

مكسيم موراي

حياتي

ترجمة
خليل حني

دار المعرفة

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان



المقالات

ان نسبة استيعاب الاثر الأدبي للحياة ، على اختلاف وجوها وأساليبها ،
تحدد مدى الفعالية الانسانية له ، ونقيس درجة بلوغه من المدد الزمني ، بلوغاً
يقرر له الخلود أو الاندثار .

والعمل الأدبي الذي يكتب له البقاء ، لا تنال منه الإرادات الشريرة ، ما
يمكنه من التغلب عليها ، ولا القيود إن كبلته تحول دون انطلاقه إلى الأجواء
التي ينمو فيها ويشعر. الأجواء البعيدة عن حقارة التثبث بتلابيب الواقع الحسي ،
الذي تركد فيه المشاعر وتأسن . فتتجمد النظرة الى الحياة في بؤر الخنوع
والاستكانة .

ان الأدب الأصيل المتفجر أبداً بالحياة ، ريبب سننها بالتجدد المستمر الدائب
على العطاء الخبير ، في صراع مع اللوالب التي تدور حول محور ثابت ، وتختلط
فيها ألوان النزوع والرغبات . وتفقد كل نكهة ذاتة ..

وكان (مكسيم غوركي) أصدق مثال لهذا ، فقد شاء ان ينقل صورة أمة
بكاملها من خلال صورة حياته .. حياته التي ترتبط بكل نظرة مكبوتة في أعين
الشعب الروسي ، وتنبثق من كل لفظة تمور في كل خاطر حرّان لفجر جديد ،
توسع آفاقه وتضج بالنور. الذي يضيء سبل الصعود إلى ما هو أسمى وأحق ..

ان المعاني الانسانية التي يكابد من اجل القوص إلى أعماقها ، جعلته كادحاً
كبقية الكادحين الذين ، كان يعدو لاهثاً وراء المباعث التي تسبب شقاهم . لقد كان
يندس في حنايا كهوفهم المظلمة ويتعلق بالحبال الواهية التي كانت تشد زوارقهم
الى صخور الشاطئ .. كان إنساناً يعيش واقع كل منهم ويؤثر ان يذوق ما
يذوقونه من مرارة البؤس والحرمان من غير ان ينسى ان نظراته ما زالت ممتدة
الى البعيد . ترتعش فيها آماله المكتومة ، التي هي في نفس الوقت . آمالهم
وأحلامهم المتواضعة البسيطة ..

ان « غوركى » في الصميم عانى تجربة الحياة ، ومن الصميم ينقل رؤياه .
والصميم منا أخيراً كان يرمي .. فأصاب ..

المترجم

لقد استلقى والدي على الأرض تحت نافذة غرفة صغيرة داكنة قد ازدحمت بالغبار ، وقد بدا لي طويلاً بشكل يلفت الانتباه ويثير الدهشة ، وقد اكتسى البياض من أعلى رأسه حتى قدميه . وقد انفرجت أصابع قدمه الخافية بشكل غريب ، وتباعد ما بينها بحركة تشنجية ، وبدت أصابع يديه اللطيفتين ، ملتوية بعناد فاضح ، وقد التف حول عينيه إطار مغلق ، وقد أصبح وجهه شديد الزرقة ، وقد راعني بصورة خاصة انكماش أسنانه الاصطناعية وبروزها بين فكّين متوترين .

وقد جلست بالقرب منه والدتي النصف عارية في تنورتها الحمراء القصيرة ، مهتمة بتسريح شعرها الطويل الحريري ، المتدلي بعناد على جبينها ، بمشط أسود قد اعتدت استعماله كمنشار احزبه قشر البطيخ ، وكانت تنتم بأشياء كثيرة مبهمة بصوت مبجوح .

وكانت جدتي - امرأة نحيلة الجسم ، كبيرة الرأس ، بارزة العينين ، وقد برز انفها بشكل يدعي الى الهزاء والتهكم - تمسك بيدي ، وكانت كثيرة النعومة ، عظيمة الكتابة ، وكل شيء فيها فائق الفطنة ... وكانت أيضاً تذرف الدموع ، بطريقة خاصة تشكل لحناً عذباً يصطحب بكاء أمني . وكانت تهتز كلياً ، وهي تدفع بي باصرار نحو والدي ، بيد انني كنت أعود الى الوراء . وأبحث عن ملجأ لي خلف تنورتها ... لقد كنت خائفاً ومنزعجاً في وقت واحد .

انني لم ابدأ الكبار بيبكون من قبل ، ولم اكن افهم معنى " لتلك الكلمات التي اخذت جدتي ترددها على مسمعي :

- تقدم ودّع والدك ، لأنك لن تشاهده بعد الآن . لقد مات . يا عزيزي . ذهب قبل ان يحل اجله ، قبل ان تدق ساعته ...

كنت قد شفيت حديثاً من مرض عضال الزمني الفراش فترة طويلة ، زارني اثناءه والدي ، وما زلت اذكر جيداً . وبدأ يلعبني ويمارحني في شيء من المرح والسعادة . بيد انه توارى ، فجأة ، واخذت مكانه هذه المرأة الغريبة ، جدتي !

سألتها :

- هل سرت كثيراً حتى بلغت هذا المكان ؟

فأجابتنني :

- انني لم أسر ، بل ركبت ! فانك لا تقدر السير على وجه الماء ، ايها الفاسق الصغير ! لقد نزلت من نيجي نوفجورود ، من فوق ...

لقد كان هذا الكلام مبهماً بالنسبة إليّ ، وان ترك في نفسي اثراً مضحكاً : كان يقطن القبو كالميكسي أصفر البشرة يعمل في تجارة الجلود ، جلود الغنم ، وكان في مقدورك ان تنزل اليه بالترحلقي على حافة السلم ، أو تدحرجاً إذا زلت بك القدم ، بيد ، ما دخل المياه في هذا الموضوع ؟ إنها خاطئة ، هي تخلط بين الأشياء بشكل غريب .

نقلت :

- لماذا تناديني بالفاسق الصغير ؟

ندوى جوابها الضاحك .

- لأنك كبرت كثيراً .

كان اسماؤها في الكلام لطيف ، جميل ... لذلك أصبحت " جدتي صديقتين حميمتين " منذ اليوم الاول الذي التقينا فيه . أما الآن فالقلق يسيطر عليّ ، وأريد ان أخرج معاً من هذه الغرفة بأقصى سرعة .

كانت دموع امي تثير في مخاوف غريبة لا تحصى ، فللمرة الاولى اشاهدها في تلك الحال .. فهي واجبة صامتة دائما ، أنيقة الهندام دائما ، عريضة الكتفين ، متينة الجسد قويته ... بيد انها الآن أصبحت مترهلة الأعضاء ، وهندامها لا يبعث الارتياح ، مشعثة ، مهترئة الثياب ، وقد تبعثر شعرها على كتفيها العاريتين وانفلتت منه خصلة راحت تدغدغ وجه ابي النائم . ولم تنتبه لي مطلقاً فقد شغلها عني تصفيف شعر زوجها ، وانهار الدموع عليه .
وفجأة فتح الباب ، ورمى الجندي وبعض الفلاحين بنظرة عجلى على العرفة ، ثم صاح الفقير بمحدة :

— اسرعوا ، وخذوه خارجاً !

كان الفطاء الاسود اللون المنسدل على النافذة ، ينتفخ بسبب مجرى الهواء ، كأنه شراع قارب صغير ، ذكرني بما جرى لي ذات يوم عندما رافقت ابي في تزهة على متن قارب شرابي ، ودوت عاصفة من الرعد فجأة . ففقهه وضمني بين ركبتيه وقال .

— لا تخف ، فلا بأس عليك ، يا بني !

وعلى حين غرة ، تحاملت أمي على نفسها بصعوبة ، ثم ما لبثت أن هوت على الارض : فانتشر شعرها الزرق وجعلها . وتوالت منه كل معنى ، والتحمت اسنانها كالآدمام اسنان ابي قاصداً .

قالته في صوت مخيف ، وهي قلقت :

— انتقل الى الباب . انزعو عني الكعبين !

فندفعتني فجأة ، جانبا ، ربي في نفسي . باتجاه الباب .

ثم صاحت :

— لا تفلحوا ، أيها الطمبون ! لا تلمسوها ! اذهبوا ، عتبة بالمسيح ! انها ليست

توليها ، بل ابتداء آلام المخاض .

تواريت خلف صندوق الملابس في زاوية ممتعة ، اطلع إلى أمي وهي

تتلوى ، وتشد على اسنانها ، فيما كانت جدتي ترقي على الارض بجانبها وهي
ترقل بلطف وجذل :

— باسم الآب والابن ؟ تشجعي يا فاروشا ، يا أم الاله الحنون ، ارحمينا ...
كنت وجلا . فقد كانت جدتي وأمي تواتران الحركة والتعلل على الارض
بجانب ابي ، الراقد من غير حراك في مكانه ، تلطيان الوجنت أسفاً عليه ،
واحياناً تلامسان جسده البارد .

تواتر هذا المنظر فترة طويلة ، وامي تحاول الوقوف على قدميها ، لتسقط من
جديد على الارض ؛ في حين اخذت جدتي تذهب وتجيء داخل الغرفة
وخارجها . وانا ساكن لا ادرك معنى ذلك الاضطراب ... وفجأة ، علا بكاء
طفل صغير في الظلمة ...

فتنفست جدتي الصعداء ، وهتفت :

— حمداً لله ! إنه صبي !

واشعلت قنديلا ...

لا شك انني استسلمت لسنة من النوم وانا قابض في زاوية الغرفة ، لأنني لم أعد
أذكر شيئاً مما جرى بعد ذلك .

أما ثاني ذكريات حياتي فكانت بقعة مهجورة في مقبرة . في يوم ماطر ...
كنت اقف فوق رابية واطئة من الارض ، وكان التراب موحلاً ، أقام تلك
الحفرة التي واروا فيها نعش ابي . كان قاع الحفرة مملوءاً بالماء والصفادع . وكنا
نقف جماعة مؤلفة من جدتي والغفير وفلاحين يحملان معوليهما وانا ، وقد تساقط
الغيث بشكل بديع ...

صاح الغفير وهو يبتعد .

— انزلا عليه التراب !

فانهمرت الدموع من عيني جدتي ، وافثنى الفلاحان وهالا الدفعة الاولى من
الوحل في الحفرة ، فتناثر رذاذ الماء ، واندفعت الضفدعتان تقفزان على جوانب
القبر طلباً للنجاة . فتصدما دفعات التراب من جديد الى اعماق الحفرة .

ربلت جدتي على كتفي ، وهتفت :

— لنعد يا اليوشا !

فتخلصت من يدها . آيباً العودة .

فندت عنها تنهدة اثارث في " بعض الارتباب :

— آه يا ربي !

تري ، أشكواها مني أم من رب السماء ؟

بقيت ساكنة في مكانها مدة طويلة ، حانية الرأس . وقد لبثت مكانها ولن تتحرك قيد انملة ، حتى بعد ان مهد الفلاحان سطح الارض بموليهما ؛ وهبت الرياح حاملة معها الغيث بعيداً . فأمسكت جدتي بيدي ، وقادتني إلى كنيسة قريبة تقوم بين غابة من الصلبان السود .

وبعد ان خرجنا من المقبرة ، التفتت جدتي إلى " مستفسرة :

— لماذا لا تبكي ؟ ينبغي ان تبكي قليلاً !

فأجبتها :

— لا أشعر بميل إلى البكاء .

فأجابت بتؤدة :

— حسناً ، ان كنت لا تشعر بميل إلى البكاء ، فلا حاجة لك به إذن .

استغربت طلبها مني البكاء ، وكنت لا أبكي إلا نادراً ، وإذا بكيت يكون احداً قد جرح شعوري -- ولم ينتزع الألم الجسدي الدموع مني ابداً -- فاذا ما اهرقتها مرة ، كان ابي يضحك من دموعي ، أما والدتي فتصرخ :

— لا تبك ! لا تفعل ذلك !

بعد انقضاء ايام عدة اتخذنا . جدتي وامي وانا ، حجرة صغيرة على مسكن مركب بخاري . كان اخي الوليد مكسب قد توفي ، وقد لف الآن بشيا ببيضاء حزمت بشريط احمر ، يضطجع في إحدى الزوايا على طاولة صغيرة .

جلست فوق امتعتنا ، أرنو إلى الخارج من كوة صغيرة ، متدبرة . كانت المياه الهائجة القائمة الزرقة تندفق تحت الزجاج المبتل ، ود مخ احيان بموجة

عاقبة لتغمر الزجاج برذاذها ... عندها ، كنت أقفز مجبراً الى الارض .
وتساعدني جدتي على النهوض بذراعيها اللدنتين ، وترجعني إلى مكاني السابق
فوق الامتعة ، وهي تهتف :
— لا تخف ، يا عزيزي .

كان كل شيء يتحرك من حولنا ما عدا والدتي ، التي كانت تقف بثبات ،
مستندة الى الحائط ، مغمضة العينين ، وقد بدا وجهها كالح اللون ، عابساً ، ولم
تنبس بكلمة طوال الوقت .
كانت جدتي من وقت لآخر تلتفت اليها ، وتحادثها بعطف ورقية لا
متناهيين :

— هلا تناولت بعض الطعام ، يا فاروشا .. لقمة على الأقل .
بيد ان والدتي ما تنفك معتصمة بصمتها ، محتفظة بهدوئها ...
ما فتأت جدتي تكلمني همساً كعادتها ، فهي اذا كلمت والدتي توجهت اليها
بصوت أعلى نبرة ، لكن بشيء من الخجل والحذر ، مما جعلني اعتقد بانها تخشى
والدتي ، مما ضاعف توددي إلى جدتي ، ومتن الروابط بيننا ...
قالت امي ، على حين غرة ، بصوت عالٍ أجش .
— سارا قوف ؟ ابن النوتي ؟

ودخل العمجرة رجل عريض المنكبين : أرمي القوس ، يلقي بكرة زرقاء ،
يحمل صندوقاً صغيراً ، أمتعته منه جدتي . وهي ضمت في حجرها جسد اخي الصغير ،
وهي تهم حباته ، سارت فاحشة الباب ، سادة يديها إلى الأمام بعمق ، ورثة شغل
الباب دون جنة ، فقد كانت الضيق بها يجمع لها يديها ، في وجهك كل يديها .
وهتفت امي بصر . وهي تشعل الشمس في وجهي .
— أو آه ، أماء ؟

في اوتابنا ، وتركتني في العمجرة برفقة ذلك الرجل الأورق . فقال ، وهو
ينثني بعطف علي .
— لقد رحل أخوك وتركنا هنا .

— من انت ؟

— فوتي .

— ومن يكن سارا قوف ؟

— انها بلدة . التي نظرة من النافذة ، ها هي ذي .. هناك .

كانت الارض خارج النافذة تسير ، سوداء ، متعددة المرتفعات ، يتصاعد منها الضباب كال دخان ، وقد ذكرتني بقطعة كبيرة من الخبز اجتزت من رغيف ساخن .

— اين خرجت جدتي ؟

— انها تدفن حفيدها .

— هل ستواريه في جوف الارض .

— اجل !

وفجأة . علت فوقنا ضجة عظيمة قد اختلط فيها الصراخ بالأنين ولم يملكني الذعر فقد فهمت ان مصدرها عملية تسيير المركب البخاري . وانزلي النوتي من بين ذراعيه بعجلة ، وانطلق خارجاً وهو يقول :

— ينبغي ان اذهب ؟

رغبت بدوري في الخروج ، فعدوت خارج الحجرة . كان المشي الضيق المظلم قفراً من الناس ، يلمع في نهايته نحاس السلم ، نظرت إلى الأعلى فرأيت بعض الناس يحملون امسئهم ... فكان عن الجلي ان الجميع يفادرون المركب . سباً بمنى انه يجب علي مفادرتة ايضاً .

رما ان بلغت السطح . وأصبحت بين اولئك المسافرين المزدحمين على السلم الذي يربط المركب بالبر ، اخذ بعضهم يصيح في وجهي :

— من انت ؟ اين أهلك ؟

— ليس ادري .

أضرباً بشفتي حيناً ، ويستطونني على الارض حيناً آخر ، ريدفعونني من انقطاع .

لكن النوتي الأشهب الشعر بدا أخيراً ، وقال :
- انه صبي من استراخان ، خرج من حجرتة فجأة ...
ورجع بي عدواً وهو يحملني إلى الحجرة حيث اجلسني على الصناديق وانتهرني
هازاً إصبعه في وجهي وهو يقول :

- إياك ان تقوم بذلك مرة ثانية ، وإلا ...
وخيم السكون ، شيئاً فشيئاً ، على المركب الذي سكن إهتزازة ولم يعد
رذاذ الماء يتطاير إلى الكوة ... بيد أن غشاء من الرطوبة سد نافذة الحجرة ،
فأصبحت معتمة خائفة ، ونحيت في ظلمتها ان الصناديق تنتفخ وتحرق في بعناد.
فأصابني شيء من الذعر ، فأخذت أتساءل :

- 'مترى' ، أتركوني وحيداً في هذا المركب الخالي إلى غير رجعة ؟
سرت نحو الباب . كان مقفلاً ، ولم أستطع إدارة قبضته النحاسية ، فأخذت
قنينة حليب كانت على منضدة بالقرب مني ، وهويت بها على القفل بكل ما
استطعت من قوة ، فتكسرت ، وانساب الحليب على قدمي ، وتغلغل إلى
حذائي .

لقد أثقل عليّ فشلي ، فارتجيت منتحباً فوق الأمتعة ، وحاولت أن انام .
وما ان استيقظت حتى رأيت جدي قابعة إلى جانبي تسرح شعرها تدمدم - ،
بينها وبين نفسها بأشياء عدة ... كانت تملك شعراً غزيراً تمتزج فيه الزرقعة
بالسواد ، ينساب بغزارة فوق كتفها ، حتى يصل الأرض . وكان فمها يفغر
ألماً . وقد بدا وجهها صغيراً جميلاً وسط تلك الغزارة من الشعر الكثيف ،
وعيناها السوداوان تلمعان من خلاله غضباً .

وقد بدا صوتها لطيفاً ناعماً وهي تجيبني على سؤال لي لم شعرها طويل على تلك
الصورة :

- إنه جزاء من الله - لقد قال لي : إليك ، فأمضي حياتك كلها في تسريح
العرف الملعون ! لقد احببته في صغري ، ولعنته في كبري . عد إلى النوم يا
عزيزي ، فالشمس لم تشرق بعد ، فما زال الوقت مبكراً .

— لم يعد لي رغبة في النوم .
فأجابت وهي تلف شعرها ، وترنو نحو الأريكة حيث تستلقي أُمِّي باستقامة
السهم :

— حسناً . إذا لم يعد لك رغبة في النوم فلا تسم ، كيف كسرت القنينة
البارحة ؟ تكلم بصوت خافت .

كان لكلماتها لحن خاص . ما أحيلها من الحسان تتعطر في ذاكرتي بسهولة
كبيرة . وكان ينبعث من عينيها نور ساطع دائم الاشعاع ، يلقي على داخليتها
هالة رائعة من الضياء . كانت فارغة القامة ، قد تقوس ظهرها وان بقيت حركتها
سريعة كحركة هرة فتية . وفيما خلا ذلك ، فقد كانت تقائل هذا الحيوان الودود
لطفاً ورقة .

كنت قبل مجيئها كغارق في ظلمة غريبة . فاذا بها تبعثني من رقادي ،
وتقودني الى النور ، وتغزل كل ما يحيطني في خيط واحد متصل ، جاعلة منه
شبكة زاهية الألوان .

وسرعان ما غدت ، إلى الأبد ، رفيق حياتي ... رفيق قادر على فهمه كل
الفهم ... وكان فهمها المجرد للحياة يثقفني ، ويهيني قدرة كبيرة احتجتها فيما بعد ،
لإرواجه بعزم وقوة مستقبلي القاسي .

قبل أربعين سنة ، كانت المراكب البخارية تسير ببطء كبير ، بحيث أمضينا
مدة طويلة حتى بلغنا ينجني نوفجورود .. ولم أزل اذكر تلك الايام العذبة ،
المليئة بهجة وسرورا .

بقي الطقس جميلاً ابداً . ومنذ الصباح حتى المساء ، كنت افترش وجدي
سطح المركب ، عائناً تحت قبة السماء اللازوردية ، بين ضفتي نهر الفولغا المزدانين
بالسندس الموشى باصفرار الخريف . وكان كل شيء حولنا يتغير بين الفينة
والفينة ... والروابي الخضراء تتوج الأرض الغنية . وأوراق الخريف الذهبية اللون
تطفو فوق سطح المياه وتسبح .

كانت أمي نادراً ما تصعد الى سطح المركب ، وتبقى معتصمة بالصمت ..
وما ازال أذكر حتى الآن جسمها الطويل الجميل ، ووجهها الكالح وقد انسابت
عليه صفائر من الشعر الاشقر المتموج . إن كل هذا يترأى لي من خلال غيوم
شفافة .. من وراء السنين يحضرنى حتى اليوم بريق عينيها المتوحشتين .
ذات يوم قالت بحفوة :

— إنك تجملين من نفسك أضحوكة يا أماء !

فقلت جدتي بمرح :

— ليضحك الناس إن أحبوا ذلك . فهذا يجعل حياتهم أكثر سعادة . كان
الله معهم !

وما ازال اذكر تلك السعادة الصيانية التي استولت على جدتي عندما وقع
نظرها على نيجني نوفجورود .. صاحت ، وهي تمسك يدي وتدفعني ناحية
حاجز المركب :

— انظر ، انظر ، ما أجملها ! هي ذي نيجني ، مدينة الله ، حيث ستعيش ،
يا لروعتها ! انظر إلى قباب الكنائس ، كم تتعالى في الجو !

والثفت نحو أمي ، وقد سبقتها الدموع

— انظري ، يا فاروشا ! لا شك انك نسيتها ، على ما اعتقد .. هيا ، تملي
من سعادة لقيائها .

بيد ان والدتي ابتسمت بألم ...

والقى المركب بمرسأه ناحية المدينة ، وتوقف في منتصف النهر الذي يعرج
بالزوارق ... وصعدت إلينا جموع حتى السطح ... وكان يدب في أول تلك
الجموع شيخ فارغ الجسم ، نحيل القوام ، مرتدياً معطفاً اسود اللون . تتقدمه
لحية حمراء تلتصع كالذهب . .

وما ان رآته أمي حتى صاحت ، وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه :

— أبتاه !

فأخذ يلامس رأسها بيديه الصغيرتين ، وأخذ يدغدغ وجهها بلطف ، ثم صاح
مغتبطاً :

- آه ، آه ! أخيراً ، ابتها الطائشة ، ها انت هنا ! آه ...
وراحت جدتي تمانق الجميع ، وهي تدور حول نفسها ...
هتفت وهي تشدني نحووم :
- هيا ، بسرعة ! هو ذا خالك ميخائيل ، وهذا ياكوف ، وهذه العممة
ناتاليا ، وهذه ابنة خالك كاترينا ، وعذان الولدان ابنا خالك ، وكل منها اسمه
ساشا ، والجميع يؤلفون عائلتنا - تأمل جيداً في هذا العدد .
ثم انتشلني الجد من بين الجميع ، ممسكاً برأسي :
- وانت ! من تكن ؟
- ولد من استراخان ، ترك غرفته صدفة ...
فاستوضح الجد مندهشاً ، وقد التفت نحو امي :
- ماذا يقول ؟
ودفعني إلى الأمام دون أن يتلقى الجواب ، هائجاً :
- لقد ورث هزال أبيه . لنزل إلى القارب .
وما ان بلغنا الشاطئ . حتى تسلفنا الطريق العتيق المنحدرة بين صفيين من
الحجارة العالية . وقد اكتست بالعشب الاخضر الريان .
مشى جدي في المقدمة برفقة امي . يدب على الارض يجانبها بخطواته المعجلى
القصيرة ، يكاد لا يبلغ كتفها ، بينما هي ترنوا اليه من عل ... وسار خلفهما
خالاي ، وقد خيم الصمت عليهما ، وبعدهما بعض النسوة السمينات وقد ارتدين
أثواباً زاهية الألوان ، وحوالي ستة أطفال أكبر مني سنّاً وأكثر مني هدوءاً .
أما أنا فقد سرت برفقة جدتي في المؤخرة ، وقد صحبتنا العممة ناتاليا .
كنت أسير كالفريب بين هذه المجموعة العائلية ، التي لم يرقني أحد من
أفرادها جميعاً . حتى أن جدتي نفسها قد ازدادت بعداً عني ..
وقد كرهت ، بصورة خاصة ، ذلك الذي يسمونه جدي ، فقد شعرت منذ
اللحظة الأولى بأنه عدو لي . وبلغنا نهاية المرتفع ، فمثل أمامي بيت منخفض
مكوّن من طابق واحد . يقوم تجاه الرصيف الأيمن من تلك البقعة المرتفعة

حيث تبدأ الطريق العامة بالقرب منه . كان لون البيت وردي بالي ، وقد طلعت
نوافذه تحت سقف عتيق مهدم ، وقد ظهر لي من الخارج كبيراً ، بيد ان الغرف
في داخله صغيره معتمه ، تضيق بجمهور مضطرب يعرج بالحركة والضوضاء .
وأراني في ساحة لا تبعث السرور ابداً . وقد عجت هي الاخرى ببعض
الادوات الزجاجية التي بدت كريمة المنظر بمائها الملون . وكان لهيب نار، ينبعث
من زاوية معتمه ، يتعالى من بين الاخشاب في الموقد . ينبعث صوت قرقره
وغليان .. وثمة شخص غير مرئي يصيح بكلمات غريبة :
— سانتالين .. حامض الكبريت !



كان ذلك بداية حياة دائبة الجريان ، مليئة بالوقائع ، غريبة ، معقدة ، يصعب وصفها بدقة . ولكن ذكرها ترافقني وتعيش في خاطري كقصة حزينة حكها لي جني طيب القلب ، بيد انه واقعي حتى درجة الإيلام . وكم أجده صعباً عليّ حتى اليوم ، إذ عدت إلى الماضي ، أن أتصور ان هذا الماضي قد جرى على هذا النحو ، فأحاول إنكار بعض الحوادث كيما اقتضب في مجرى حياة تلك « العشيرة الغبية » وما كانت عليه من ظلام وجفوة .

بيد ان الحقيقة تعلو كل هفوة ذاتية . وأنا لا أحاول الكتابة هنا عن نفسي ، بل عن تلك البيئة الغريبة التي كان يعيش فيها ، ولم يزل ، الروسي العادي . كان بيت جدي يعج بدخان العداوة الخائقة ، عداوة كل فرد للجميع ، وقد اختنق بها الكبار وانتقلت عدواها الى الأطفال ايضاً .

وعلمت اخيراً ، من جدي ، أن امي أتت الدار وأخوها يطالبان والدهما ، بإلحاح زائد ، بتقسيم أملاكه فيما بينهما . وان رجوع والدتي غير المتوقع قد زادهما جشعاً ونهماً في التقسيم ، مغبة ان تطالب أمي في مهرها الذي حجزه جدي لأنها انتقت زوجها دون رضاه . وقد وقعا في جدلٍ مرٍّ حول من سيفتح المصبغة في البلدة ، ومن سيترك المنزل الى كوفافينو ، على الضفة الثانية لنهر أوكا .

ولم يمض كثير وقت على وصولنا ، حتى وقع شجار عنيف على مائدة الغداء ، فقد انتفض خالاي بسرعة ، وانكب فوق المائدة ، ينبحان ويزعقان في وجه

جدي كالكلاب . وإذا يجدي هو الآخر ينتفض بسرعة ويضرب على المائدة بلمعته وقد علت الحمرة وجهه ، وأخذ يصيح بصوت أجش :

— سأجعلكما تستعطيان الناس في الشوارع .

فقال جدي ، وقد احتقن وجهها ألماً :

— أعطها كل شيء هيا . أعطها وسوف تتراح كثيراً لذلك . أعطها !

والجهد والدتي ، بعد أن نهضت ، نحو النافذة ببطء ، حيث بقيت واقفة مدبرة ظهرها للجميع .

وعلى حين غرة . وجه خالي ميخائيل ضربة جبارة إلى أخيه على وجهه ، فندت عن هذا الأخير صرخة عنيفة وتعلق به وشده إليه بقوة فتدحرج الاثنان على الأرض بلهثان ، ويتشامتان ...

وشرع جدي يهرول كالجنون حولهما صارخاً :

— إخوة ، ها ! إخوة دمويون ! قفوا !

كنت في بدء الشجار قد قفزت مذعوراً فوق الموقد . ومن هناك اخذت أراقب جدتي ، وهي تمسح الدم عن وجهه ياكوف بينما هذا كان يعمل ويضرب الأرض بقدميه ، في حين قالت الجدة بنبرة يائسة :

— أفلا تعقلان ، أيها المتوحشان ! تبا لها من عشيرة متوحشة !

وما أن خرج ياكوف حتى قبعت جدتي في إحدى زوايا المطبخ محدثة نفسها :

— يا أم الإله الطاهرة ! ارجوك أن تعيدي إلى ولدي عقلها !

فقصدها جدي ووقف بالقرب منها ، متأملاً الطاولة التي تكسرت عليها الأواني ، ثم قال واجماً :

— أنت ابتها الأم ! أولى بك أن تراقبي ولديك اللذين انجبت ! لأنهما يودان التخلص من قارقارا ...

— لا سمح الله ! لا سمح الله ! والآن ، إنزع قميصك حتى أرتيه لك .

أخذت رأسه بين يديها ، وطبعت قبلة على جبينه ، فدفن رأسه ، لقصره ، بين كتفها ... ثم زاد موضعاً :

- الاجدى على ما يظهر أن تتقاسم ، يا أماء !

- صدقت ، يا ابتاه ، صدقت !

تجاوزا هكذا فترة طويلة . وقد ابتدأ بمحدث لطيف سرعان ما تحول الى صياح ، واذا اخذ جدي يلطم الارض بقدمه كديك يتأهب للبراز ، ويهدد جدتي .

ثم همس عالياً بلهجة شاكية :

- انني اعرفك جيداً ! فأنت تهتمين بها اكثر مني ، وميخائيل هذا دجال كبير ، وياكوف ذاك جبان ملحد ! وسيدران كل ما املك في سكرهما وعريديتهما ، وسينفقانه عن آخره !

وبحركة بدئية لا شعورية من كتفي القيت باللكواة على الارض ، حيث دوت وهي تتدحرج فوق درجات الموقد ، حتى استقرت في سطل ماء وسخ . فقفز جدي مذعوراً ، وشدني بقسوة ، وحدجني كأنه يشاهدني للمرة الاولى .

- من اجلسك هناك على الموقد ؟ هل هي أمك ؟

- لقد صعدت لوحدي .

- انك تكذب .

- كلا ! انا لا اكذب ، كنت وجلاً .

فقدفني بعيداً عنه بضربة من راحة يده على جيبني :

- أخرج ! لست سوى صورة عن ابيك !

وكنت مغتبطاً كثيراً للتخلص من ذلك المطبخ ...

* * *

كنت احس بشكل جلي ان جدي لا يكف عن ملاحقتي بعينيه الحادثين الخضراوين ، فكنت اخافه ... وما زلت اذكر ذلك الرعب الغريزي الذي كان يدفعني دائماً الى الاختباء من هاتين العينين المشتعلتين . وتصورت أنه دنيء النفس شرير ، فهو يكلم الجميع بلهجة هازئة ، ويغتنب باغاطة الناس واستفزازهم دائماً :

- تفوا ثباتهم من قوم !

إنه شغوف بهذه الكلمات ، ويعمد بلفظها مط الغاء والواو ، الامر الذي يبعث في قشعريرة باردة .

ولم يمض على وصولنا بضعة ايام ، حتى ارغمني على حفظ صلواتي . وقد اوكل الى العمة نانا ليا امر تعليمي هذه الصلوات . وكانت امرأة هادئة رزينة ، وكنت احب ان تطلع اليها ملياً من غير ان يطرف لي جفن ، فيزعجها هذا مني ، فتأخذ بأسبال اهدابها ، والواء رأسها للهروب من نظراتي ، ثم تطلب بصوت أشبه بالهمس الناعم :

- ارجوك ، قل معي هذا : « أبانا الذي .. » .

- وماذا تعني كلمة « الذي » ؟

فتجيبني ، وهي تسترق النظر بما يحيط بنا :

- لا تسأل ! فالسؤال يزيد الامور تعقيداً . ويكفي ان تردد خلفي

« أبانا ... » هيا !

لم اكن ادرك لماذا يزيد السؤال الامور تعقيداً ... إن كلمة « الذي » تحوي معنى خفياً ، فكنت اتعمد تشويهاها :

- ألزي ، اللاندي .

فتصحح قولي العمة ، التي تبدو وكأنها تذوب شيئاً فشيئاً ، بصبر طويل :

- كلا ، قل ذلك ببساطة هكذا : « أبانا الذي .. » .

واستفسر جدي ، ذات يوم ، عن مدى نشاطي قائلاً :

- حسناً ، يا ألكسي ، ماذا فعلت اليوم ؟ هل كنت تلهو ؟ انني لاحظت ذلك من هذه الحديقة المتربعة فوق جبينك . والان اخبرني ماذا حفظت اليوم من « أبانا » ؟

فقلت صمتي :

- ان ذاكرته رديئة .

فقهقه جدي ، وهو يرفع حاجبيه الاحمرين :

— اذا كان الحال كذلك ، فيجب جلده إذن .

واستدار ناحيتي ، واستفسر :

— ترى هل جلدك والدك ذات يوم ؟

فلم أفهم ما يعنيه بكلامه . فلذت بالصمت .

ثم اجابت والدتي :

— إن مكسيم لم يضرب الطفل ابداً . وقد كان يمنعني عن فعل ذلك .

— لماذا ؟

— كان يعتقد ان الضرب لا يعلم المرء شيئاً .

فأجاب جدي وقد استشاط غضباً .

— لتد كان مكسيم غيباً احق ، غفر الله له .

لقد اثارت كلماته غضبي وقد احس بذلك :

— فيم عبوسك ؟ يحذر بك ان تقتبه لنفسك !

وخيم الصمت على الجميع ...

كانت الطريقة التي يتبعها الكبار في تغيير لون الثياب يعجبني ويشير فضولي واهتمامي . فهم يأخذون مادة صفراء اللون ويغطسونها في ماء اسود . فيحصلون على لون ازرق ضارباً الى السواد « نيلياً » . او يغسلون ثوباً اشهب اللون في ماء احمر ، فيصبح اسود اللون ضارباً الى الحمرة « خمرياً » . وكل ذلك يبدو بسيطاً ، لكن غير مفهوم ابداً .

وقد راودتني رغبة خفية في تجربة العمل بنفسي ، فاطلعت ساشا بن ياكوف على رغبتني هذه ، وكان ساشا صبي مهذب جدي ، يتبع العمال دائماً عارضاً عليهم خدماته ، فيشكره الكل ، ما عدا جدي ، على نشاطه ومساعدته . كان المعجوز يصرخ ، وهو ينظر بازدراء إلى الصبي :

— تفوا ! يا للدجال الصغير !

وعندما علم ساشا برغبتني هذه في تعلم مهنة الصبّاغ نصحتني باللجوء ، في تجربتي الاولى ، إلى غطاء المائدة الكبير ، الخاص بالمآدب ، فأخذه من مكانه

في الدولاب ، واصبغه باللون الأزرق الداكن .

قال لي بجدية :

- الأشياء البيضاء تتقبل الألوان أكثر من سواها ، وأنا واثق من ذلك .
فاحضرت الغطاء الثمين ، وعدوت به حتى الساحة ... ولم اكذ انزل احد
اطرافه في حوض « النيل » حتى قذف تسيجانوك بنفسه عليّ وانتشل الغطاء
من بين يدي ، وعصره بكلتا يديه الكبيرتين ، وزعق بابن خالي الذي كان
يتابع العملية :

- اسرع ، واحضر جدتك !

واستدار ناحيتي ، وحك رأسه الكبير منذراً بالسؤ . قال

- ستنال جزاءك بدون شك .

اقبلت جدي بسرعة ، لاهثة ، وقد سكبت بعض الدموع لدى رؤيتها ما
أتيت به من جرم ، ثم اخذت توبخني بطريقتها المضحكة .
- آه منك ايها الحبيث . ليدفعك الشيطان وليقذف بك ارضاً . لا بد من
تقييدك وجلدك ...

وبعدها اخذت تتذرع الى تسيجانوك :

- لا تخبر جده بما فعل . يا فانيا .. سأخبره ... ربما تجري الامور خيراً ..

فأجابها فانيا مقتظاً ، وهو يمسخ يده التدية بمئزره الملوث بالصباغ :

- من جهتي لا تقلقي ، فهذا ليس بعيني ا بيد انه يجدر بك ان تأخذي

حذرک من ساشا وثرثرته .

فقلت وهي تقودني ناحية البيت :

- سأعطيه بعض الدراهم يسد بها فمه .

في غروب ذلك النهار ، السبت ، قادني احدهم الى المطبخ ، كانت الظلمة
والهدوء يشران وشاحها هناك ... كان الطقس خريفيًا والمطر خلف النوافذ
يداعبها بلطف وهو يتساقط عليها . وقبالة الموقد جلس تسيجانوك اسوان حزين
على غير عادته ... وقبع جدي بجانب برميل كائن في احدى الزوايا ، يسحب

من الماء عدة قضبان طويلة فجعلها في رزمة واحدة ، ولاحها في الهواء بقوة كبيرة ... وكانت جدتي تجلس في احدى الزوايا وقد غمرتها الظلمة ، وهي تقدمدم :

- انه سعيد ، هذا الوحش الظالم !

وفي وسط المطبخ جلس ساشا ، ابن الخال ياكوف على احد المقاعد وهو يفرك عينيه بيده ويصرخ مثل متسول هرم :

- سامحني لأجل المسيح ...

فعلا صوت جدي مجيئاً ، وهو يمسح بكفه قضيباً مبللاً طويلاً :

- سأسألك بعد ان تأخذ نصيبك كاملاً . حسناً ، انزع سروالك .

نهض ساشا ، ونزع سرواله واتزله حتى ركبتيه ، وقد جثى متقوس الجسم .

كان التطلع اليه يحز بالنفس حتى ان قدمي اخذتا ترتجفان بقوة . ثم انحنى جدي ، وامسكه من عقبيه ...

هتف جدي :

- ألكسي ! تعال هنا ! حسناً ، من أكلهم ؟ تعال وشاهد ما قصدت بالجلد ، تأمل جيداً ! واحد ...

واهوى بالقضيب على جسد ساشا العاري . ففرق في العويل والصراخ ..

قال الجد :

- لا تكذب ، فتلك لم تلمسك ! لكن هذه ستفعل !

وضربه ضربة شديدة رسمت على جلده ، بسرعة جنونية ، تورداً ظاهراً .

ثم تركت تورماً احمر اللون ، فتتابع صياح وعويل ابن خالي ، يبعث الالم في قلب السامع .

- لن اقوم بذلك ثانية ! الم اخبرك عن غطاء الطاولة ؟ انا الذي أخبر .

- وشيئت ؟ لن تنفعلك وشايتك او تخفف ذنبك ! ان السوط الاول

للواشي ، اما الآن فدورك انت بسبب الغطاء !

فارتدت جدتي عليّ ، واخذتني بين ذراعيها :

- لن اسمح لك بالكسي ابدأ .. لن اتركك تفعل ذلك ، ايها الوحش !

واخذت تضرب الباب ، وتصيح :

- فارفارا ! فارفارا !

فهجم جدي عليها ، واسقطها ارضا ، وانتشلي وحملني حتى وسط
المطبخ ... وكنت احاول عابثا الخلاص من بين ذراعيه ، اشدته من لحيته واعض
يده ... ولم ازل اذكر جيداً صياحه الوحشي :

- اربطه ! سأقتله !

ولم ازل اذكر ايضاً وجه امي الابيض ، وعينيها الكبيرتين ... تعدو وراء
وامام جدي وهي تخرج متوسلة :

- كفى يا ابتاه ! اتركه ! ارجعه الي.

بقي جدي يضربني حتى فقدت الوعي ، ولازمت بعد ذلك ، الفراش عدة
ايام اعاني المرض ، ممدداً على صدري في حجرة صغيرة دافئة ذات نافذة واحدة ،
ينبعث في انحاءها ضوء قنديل احمر خافت ..

كانت مرحلة مرضي من المراحل الهامة في حياتي ، فقد كنت خلالها ابدو
وكأني اتمو سريعاً . وشعرت بقلق عميق نحو المخلوقات البشرية ، فكأن الجلد
قد تمزق عن قلبي ، فأمسيت حساساً بشكل غريب لا يصدق حيال الامتحانات
والآلام الانسانية التي اكبدها شخصياً ، او التي يعانيتها غيري من البشر .

وقد تأملت بادىء الامر ، بذلك الجدال الذي حدث بين امي وجدي ...
كانت هذه الجدة الكبيرة ، في تلك الحجرة الصغيرة ، تنقض على والدتي
وتحاصرها في احدى الزوايا وهي تدمدم :

- لماذا لم تأخذه بعيداً ؟ تكلمي !

- كنت خائفة .

- ينبغي ان تخرجلي ، يا فارفارا ، المخلوقة مثلك تخاف ؟ انما اخف رغم
كبر سني ! ان ذلك لم يجعل حقاً !

- اتركيني بمفري ، يا أماء ، لقد ضاق صدري !

- انت لا تحبينه ! ولا تكنين عطفاً لذلك الصغير اليتيم المسكين !

- انا الاخرى يتيمة ، كنت وسأبقى يتيمة طوال حياتي !

قالت امي هذا بصوت حزين اللهجة ...

واخذتا تبكيان ، وهما قابعتان على صندوقة بالقرب من الزاوية .

قالت أمي :

- لولا ألكسي لتهت الى مكان بعيد ، فلم اعد اطيع الحياة في هذا الجحيم !

لا استطيع ! يا اماء ! وليس عندي طاقة كافية !

وادركت ان امي ليست على شيء من القوة . فهي ، كالأخرين . تخاف

جدي ... وأنا مسؤول عن بقائها في ذلك البيت حيث لا تقدر تحمل الحياة ..

ما أقسى ذلك ! وسرعان ما توارت أمي بعد فترة قصيرة ، أعلموني انها ذهبت

تزرع بعض الامكنة . ولم اعلم أبداً أين مضت ...

وذاث يوم عادني جدي ... جرى ذلك فجأة ، فكأنه نزل علي من السقف .

جلس على حافة السرير ، واخذ يدغدغ رأسي بأصابعه الباردة كالثلج .

- صباح الخير ، ايها الشاب الصغير ! لا تحقد علي ، كيف حالك ؟

فشعرت برغبة في رفعه ، بيد ان الحركة كانت تؤلني كثيراً . واخرج من

جيبه كعكة من الزنجبيل ، وتفاحة ، وبعض الزبيب ، وقضيبين من سكر

النبات ، ووضعهم على المخدة بالقرب من أنفي :

- انظر احضرت لك بعض الهدايا !

ثم انثنى وقبلني في جبينني .. واخذ يتكلم وهو يلامس من حين لآخر

بلطف جبيني ، بيده السمينة ، المشوهة بالصفرة الفاقعة ، وخاصة حول اظافره

الشبيهة بمخالب النسور :

- ضربتك اكثر مما ينبغي ذلك اليوم ، يا عزيزي . لقد فقدت صوابي ،

وانا اعترف بذلك . كنت مجنوناً . وينبغي ان تتذكر شيئاً واحداً ، ان

ضربك احد من ذويك فهذا الا يعني اهانتك ، بل تربيتك ... لكن اياك

ان تترك احداً غريباً يمسك بسوء .

ودنى مني يحسمه الفارغ المحكم البناء ، وشرع يروي لي قصة طفولته ، كانت كلماته تسرسل ، الواحدة تلو الاخرى ، بلباقة دون صعوبة على الاطلاق ، - لقد اتيت الى هنا على ظهر مركب بخاري . بيد انه عندما كنت صغيراً كانت قوتي وحدها تعارك امواج الفولغا ، وهي تسحب العوامات الخشبية . كانت العوامة تشق عباب الماء ، اما انا فأسير على الضفة ، حافي القدمين . منذ طلوع الفجر حتى مغيب الشمس ، ويجب ان تسير بدون تدمير حتى التلاشي وعندها يجب عليك ان تستريح او تموت من شدة الاعياء . هكذا كنا نغضي حياتنا تحت نظر الله ورحمة شفيعنا السيد المسيح ... ثلاث مرات في حياتي قست طول أمانا الفولغا رغم عرضه واتساعه : من سميرسك حتى ريبنسك . ومن ساراتوف حتى هنا ، ومن استراخان حتى ماكاريف ، وهي تقدر بما يزيد عن ألوف الفراسخ ، وفي السنة الرابعة رقيت الى رتبة بحار .

وعلاوة على ذلك كله ، يا الكسي ، كنا نستريح في إحدى ليالي الصيف في ريخولي ، ونوقد النار عند سفح إحدى الروابي الخضراء ، انها كانت فعلاً فترة سعيدة ، فالخساء يغلي في قدره وبعض الركاب يرددون أغنية حماسية يزيلون بها بعض الغناء عن قلوبهم ، فنشاركهم في الغناء ، آه لقد كان الغناء يبعث كل جارحة فينا ، ويشدنا للاستزادة منه ، حتى يخيل اليك ان الفولغا يضاعف سرعته ، كحصان غاضب يهاجم بقوة عنان السماء ! وعند ذلك كانت همومنا ومتاعبنا تتلاشى مثلما يتلاشى الغبار في وجه الريح ا ولا نعد نذكر ذلك الخساء حتى يفور على النار . فتتطلع الى الطاهي نصب على رأسه جام غضبنا :

« بوسمك التمتع بالغناء ما اردت ، لكن اياك ان تهمل مهنتك ! »

واتوا الى الحجرة مرات عدة يطلبون جدي ، فأطلب اليه في كل مرة :

- إبقى لحظة اخرى !

فيقفه ويشير بذراعيه ويهتف :

- انتظروا ! هناك

وبقي مستمراً في سرد حكاياته حتى هبوط الليل . وعندما ودعني
استنتجت ان جدي ليس شريفاً أو غنياً .

كلما تذكرت انه هو الذي ضربني بتلك الوحشية في ذلك اليوم ، كان
الآلم يعتصر قلبي بشدة ، واحاول دون جدوى ان اتنامى تلك الحادثة .

ادركت فيما بعد ، عندما تحسنت صحتي ، أن تسيجانوك يحتل مركزاً كبيراً بين سكان منزلنا ، فاذا كلمه جدي لا يصيح في وجهه يحفوة كما يعامل ولديه ، بل يحك برأسه ويضيق عينيه كلما تكلم عنه اثناء غيابه :

— ان أيدي ايفان مجبولة بالذهب ، أخذه الشيطان ! سينمو حتى يصبح مثل الجبل ! تذكروا قولي . هذا الذي يشار كنا حياتنا ليس بالإنسان الوضيع ، سوف يشق طريقاً لنفسه ...

وكذلك علاقات خالي " بتيجانوك " ، فهم لا يجربان التلاعب عليه كما يفعلان مع المعلم جريجوري . فقد كانا يجمعان من هذا الاخير لعبة مزرية بافعالهما التي يوقعانه بها .

و ذات يوم اخبرتني جدتي ان تسيجانوك ليس إلا لقيطاً .. عثروا عليه في ليلة ممطرة بالقرب من بوابة منزلنا .

قالت ، وبوادر التفكير والابهام ترتسم على محياها :

— كان راقداً هناك . وقد لف في صرة من القماش ، يرتعد من البرد حتى غدا عاجزا عن الصباح والبكاء .

— لماذا يترك الناس اولادهم هكذا ؟

— عندما تجد الام ان الطعام والحليب ينقصانها لتغذية رضيعها تبحث عن منزل فيه طفل آخر قد مات فور ولادته ، فتحضر طفلها إليه وتتركه هناك . كنت أحب إيفان ، وبشديتي اليه اعجاب غريب ..

وفي كل سبت ، كانت حياة جديدة تنتشر في المطبخ ، بعد ان يذهب جدي لتأدية صلاة المساء بعد ان يعاقب من اذنبوا خلال الاسبوع ، كانت هذه الحياة تملؤنا غبطة لا تقدر . اذ ان تسيجانوك كان يصطاد من خلف الموقد عدة صراصير ، ثم يربطها بخيط إلى عربة من الورق يصنعها بمهارة فائقة ، ثم ينهر الصراصير ذهاباً وإياباً على طاولة مدهونة بلون اصفر وهاج .

كان يهتف مقتبلاً ، وهو ينهرها بمصاً رفيعة :
- إنهم غادون لاحضار الاسقف ...

ثم يعلق بمؤخرة صرصار آخر قطعة ثانية من الورق ، ويبعته وراء العربة السابقة قائلاً :

- لقد نسوا متاعهم ، وها هو ذا احد الرهبان يحمله اليهم .
ثم يوثق اقدام صرصار آخر ، فيأخذ يحرق نفسه متعثراً ، على رأسه ويصرخ قانياً ، وهو يفرك يديه سرورا :

- ها هو ذا الشمس يغادر الخمار الى صلاة المساء !

كان بمقدور تسيجانوك ان يقوم ببعض الالاعيب بالورق والدرام . وان يصرخ بصوت مرتفع لا يماثله فيه احد من الاطفال . وفي الحقيقة ، كان من الصعب ان تميزه عنهم . وفي احدى الامسيات فاز عليه الاطفال مرات متتالية ، فانسحب من اللعب وقد اعتلاه الحزن واعتصرقه الكتابة .. ثم يقول شاكياً :
- لقد كانت مؤامرة ضدي . فانا اعلم ذلك ! انهم يتغامزون ويتبادلون الورق من تحت الطاولة . هل تسمي ذلك لعباً ؟ لقد كان بمقدوري ان اغش بدوري كما يفعلون !

لقد كبرت صداقتي لايفان كثيراً ، واصبحت جدتي مشغولة عني ، منذ الفجر حتى المساء ، باشغالها البيتية . وهكذا غدت أمضي معظم أيامي أخب في اثر تسيجانوك الذي بقي دائماً يحميني بذراعيه من سوط جدي كلما جلدي ، ثم يريني في اليوم التالي اصابعه المتورمة ، وهو يقول :

- لا فائدة من ذلك ! انظر ما يجره علي ! انها المرة الاخيرة ، وستنال في

المستقبل جزاء نصيبك بنفسك ..

بيد انه يتلقى مرة اخرى ، عندما تسنح الفرصة ، الجزاء الذي لا يستحق .
- لقد قلت لي انك لن تفعل ذلك مرة اخرى ؟

- لم اقصد ذلك ، فقد وجدتني امد ذراعي ، من غير ان انتبه لما افعله .
وقد ادركت ، بعد مرة من الزمن ، شيئاً عن تسييجانوك زاد اهتمامي به
واخلاصي له . ففي نهار كل جمعة ، كان تسييجانوك يسرج المهر الحضي « ساراب »
الاشهب اللون ، وكان حيواناً خيئاً ، قلتع اسنانه الجميلة في ثغره ، وكان
مفضلاً عند جدي ، إلى مزلة الجليد ، ويعتمر قبعة غريبة الشكل وقد
ارتدى معطفاً قصيراً من جلد الماعز قد ربط بزنا مرتين أخضر اللون ، ويذهب
الى السوق لشراء مؤونة الاسبوع من الطعام . وفي بعض الاحيان كانت غيبته
تطول . فيفقد الجميع عندئذ رباطة جأشهم ، ويأتون النافذة لالقاء نظرة
على الشارع .

- هل اتى ؟

- كلا لم يأت بعد !

وعلى الاخص كانت جدتي تعاني من القلق الشيء الكثير ، فتقول لزوجها
وولديها :

- يا للكارثة ! ستكونون السبب في موت انسان طيب ، وحسان طيب .
انكم في امس الحاجة الى ضمير حي ، أيتها المخلوقات المزرية ! ولا يكفيكم
ما كسبتموه ابداً ، يا لها من عشيرة غبية وعائلة طماعة ! سوف يجازيكم
الله جميعاً ، وسترون .. فيعقد جدي جبينه ويتمتم .

- أوه . حسناً ! انها المرة الاخيرة !

وفي بعض الاحيان لم يكن تسييجانوك يعود ، الا بعد الظهيرة ، فيعدو
جدي وخالاي حتى الساحة للافاقه ، ثم تتبعهم جدتي مفتاة وهي تهمهم
كالدب .. ويعدو الاطفال الى الساحة . ويبدأون في غبطة كبيرة ، ينقل ما
في العربة من لحوم طازجة . وسمك وطيور ، وماكل من جميع الانواع .

وبسأل جدي ، وهو يحدق في العربية بعينه الصغيرتين :

— أحضرت كل ما أوصيناك به ؟

فيجيب إيفان مغتبطاً وهو يفرك يديه طلباً للدفع ، قافزاً من فوق العربية
— كل شيء ، حسب الأوامر !

وذات يوم أخبرني جدتي ان تسيجانوك يسرق أكثر مما يشتري من الحوائج
قالت بصوت حزين :

— اذا أعطاه جدك ورقة فئة الخمسة روبلات ، فيصرف منها ثلاثة ، ويسرق
الباقى . انه يحب السرقة ، ياله من وغدا وقد اتخذها عادة . وقد عرف جدك
الفقر والشقاء أيام شبابه ، مما جعله يقتر نوعاً ما في شيخوخته . فعنده المال أعز
من الاولاد . ويحاول الحصول على شيء من لا شيء .

ثم صمت برهة ... وتابعت :

— بيد انه اذا ما قبضوا على قانيا مرة يجرى السرقة ، فسيعاقبونه حتى
الموت .

ولزمت الصمت من جديد ، فترة قصيرة ، وعندما تابعت حديثها كان صوتها
ينبعث ناعماً :

— إيه ! عندنا قوانين كثيرة ، لكنه ليس من حقيقة تقوم عليها هذه
القوانين أو عدالة تحتضنها !

وفي اليوم التالي ، عندما شاهدت تسيجانوك ، توسلت اليه ان يكف عن
السرقة :

— سيعاقبونك حتى الموت !

فضحك ضحكة سرعان ما توارت خلف تقظبية علت وجهه ، وهتف :

— لن يقبضوا علي ، سألوذ بالهرب ، فجوادي من الخيول السريعة ، انسي
اعلم ان السرقة جريمة يعاقب عليها ، لكنني الجأ اليها لمجرد التسلية . فخالاك
ياخذان مني جميع ما أسرق خلال الاسبوع . وانا لا اهتم لذلك ، فليأخذه ، طالما
انني أحصل على كفايتي من الطعام .

وفجأة رفعتني عن الارض ، وهزني بلطف :

- انت هزيل البنية ، بيد ان عظامك متينة للغاية وستغدو شاباً قوياً .
أصغ ، تعلم العزف على القيثارة . واسأل خالك ياكوف تعليمك ذلك . انا لا
أهزأ فأنت ما زلت صغيراً . وهذا هو البلاء ! طفل صغير ، بيد انك لطيف !
واعتقد انك لا تحب جدك ، اليس كذلك !
- لا اعلم .

- حسناً . أما انا فلا احب أحداً من آل كاشيرين ، سوى جدتك ...
الشیطان وحده قادر على محبتهم !
- وانا ؟

- انت لست من كاشيرين . انت من بشكوف ودمك غير دم هذه العشيرة .
وشدني اليه بلطف ، ثم قال بلهجة كثيبة :
- يا رب لو استطيع الغناء ! لفطرت القلوب بغنائي . والآن ، دعني ...
يجب ان ابدأ في العمل .

وأعادني الى الارض ، واخذ قبضة من المسامير ، وشرع يسمر قطعاً سوداء
مبلة في لوح كبير من الخشب مربع .
ولم يمض على ذلك طويل زمن حتى لقي حتفه .
وهذا ما حدث :

كان يستند إلى السور في ساحتنا ، صليب عظيم من خشب البلوط ، بالقرب
من البوابة ، منذ أمد طويل ، حتى انني لم أزل أذكر انه لفت انتباهي يوم
أتيت ذلك البيت للمرة الأولى .

وقد ابتاعه الخال ياكوف لرفعه على قبر زوجته ، وأقسم على حمله الى المقبرة
على كتفيه في الذكرى الأولى لوفااتها .. وفي بكرة الشتاء ، صادفت الذكرى
نهار سبت . كانت الرياح تعصف وتهب فاشرة الثلج من فوق السطوح حين مضى
جدي وجدتي والأحفاد الثلاثة الآخرون إلى المقبرة لحضور الجنائز ، في حين
خرج الباقون جميعاً إلى الساحة وتركوني وحيداً في الدار جزاءً على جرم سبق
ان اقترفته .

وارتدى خالاي معطفين سوداوين متماثلين ، ثم رفع الصليب عن الارض ،
وركزا ذراعه الواحدة على كتف احدهما ، والثانية على كتف الآخر . وبصعوبة
بالغة ، رفع جريهوري ورجل آخر غريب ، قاعدة الصليب العظيمة والقيها بها
على كتف تسيجانوك العريض ، فتمايل من حمله وأوسع ما بين قدميه تفادياً
للسقوط .

سأل جريهوري :

— ألا تقدر على حمله ؟

— لا أعلم . يبدو أنه ثقيل جداً !

وصاح الخال ميخائيل :

— افتح البوابة . ايها الشيطان الأعمى !

وزاد ياكوف :

— ألا تنجبل من نفسك ، يا فانيا ؟ كلانا أضعف بنية منك .

بيد ان جريهوري التفت الى فانيا ، وهو يفتح البوابة ، وحذره بشدة :

— انتبه من إجهاد نفسك ! حسناً ، زادك الله قوة .

وقادني جريهوري من يدي الى المعمل . ثم قال :

— اعتقد ان جدك لن يجلدك اليوم . يبدو أنه حسن المزاج .

ثم اجلسني فوق ستفة من الصوف أعدت للصباغ ، وأخذ يتحدثني وقد
أحاطني بلطفه وهو ينفخ البخار المتصاعد من الأحواض .

كنت أجد لذة في الجلوس والاصغاء الى حديثه ، وأنا أتأمل النار المتأججة
الذهبية تتراقص في الموقد . وكانت ضجة انزلاق المركبات على الجليد تدف من
الشارع . بينما الدخان الأزرق يتموج متصاعداً من مداخن البيوت ، وتساقط
على الثلج اخيلة منورة وكأنها ، هي الأخرى تحكي حكايتها وأقاصيصها .

— ما هذا ؟

قال ذلك ، وقد نهض فجأة على قدميه ، ثم أرهف السمع وهو يفلق بساب
الموقد بقدمه ، وانطلق نحو الساحة وأنا أعدو في أثره .

كان تسيجانوك مضطجعا على ظهره في وسط المطبخ ، وقد مرّ من النافذة شعاعان عريضان من النور ، وقد سقط أحدهما على رأسه وصدره ، وانتشر الثاني على قدميه . وقد التمع على جبهته نور غريب ، وارتفع حاجباه ، وتركزت عيناه الى السقف ، وأخذت شفتاه السوداوان ترتجفان وترسل زبداً وردي اللون ، وقد سال من فمه الدم وجرى على وجهه ورقبته ، ثم على الارض ، يتسابق في خطوط نحو الباب .

كان تسيجانوك ممدود الذراعين يضطجع دون حراك ، ينقر على الارض بأصبعه ، وقد جثت المربية يفجئيا بجانبه تحاول وضع شمعة في يده فلم يتالك الامساك بها ، فسقطت وذوى نورها في الدماء ، فالتقطتها المربية ثانية ، وجففتها بطرف مئزرها ، ثم عاودت الكرة محاولة وضعها بين أصابعه المتحركة بدون توقف .

قال الخال ياكوف هازاً رأسه ، وقد خلاصوته من أي تعبير :
- لقد تعار ! ... فسحقه ... هوى على ظهره . وكاد يسحقنا نحن الآخرين . لو لم نزع في الوقت المناسب .
فأعلن جريهوري بصوت متهدج :
- اذن ، أنتم اللذان سحقته ا...
- لكن ، ماذا تعتقد أننا ؟
- أنتم ا

بقي الزبد الوردي اللون يتابع جريانه ، والدماء تتدفق بحرية حتى كونت بالقرب من الباب بحيرة صغيرة اسودت وبدت انها ترتفع ، وبقي تسيجانوك يرسل زفراقه ، وجسده يتهاوى ويزداد اضمحلالاً ..
همس الخال ياكوف :

- لقد مضى ميخائيل ، ممتطياً جواده ، الى الكنيسة يُعلم والدنا ، بينما قلبته أنا على عربة وأحضرتة الى هنا ... لقد فعلت حسناً بعدم حملي قاعدة الصليب بنفسي ، ولو فعلت ، ماذا كان حدث لي ؟

ومرة اخري ، ثبتت المربية الشمعة في يد تسيجانوك ، وهي ترسل الشمع والدموع على راحته ، فصرخ بها جريجوري بقسوة :

- ثبتي الشمعة على الارض بجانب رأسه ، أيتها البلهاء !

- هذا صحيح !

- إنزعوا له قبعته !

وما ان نزع المربية القبعة ، حتى ضرب رأس ايفان بالارض تاركاً صوتاً أصم ، وإثر ذلك استدار رأسه ، فانهزم الدم من فمه ، ودام الأمر كذلك مدة طويلة مفزعة . ولم أفهم جيداً ماذا جرى ... ظننت ان تسيجانوك يأخذ قسطاً من الراحة ، ولن يلبث ان ينهض ويبصق بإشمتزاز ، ويدمدم بنعمته المعتادة .

« تفو ! يا للحرارة ! »

هكذا ما كان يتفوه به أبداً ، بعد ان يصحو من غفوة الظهيرة أيام الاحاد ...

وتوارت الشمس ، فاكفهر لوننا على حافة النافذه ، وأصبح وجه ايفان داكن اللون ، وتوقفت أصابعه عن الحركة ، وانقطع الدم عن التدفق من فمه .. كانت شمعات ثلاث تضيء بنورها شعره الازرق القاتم ، وتلتف حول رأسه ، فبدت قمة انفه ضيقة . وقد تماوجت انوارها فوشحت خديه الحمرين .

بقيت المربية جاثية الى جانبه تبكي ، وهي تهمس :

- آه ، ايتها الحمامة الصغيرة المسكينة ! لقد كنت عزاءً حقيقياً !

دخل جدي المطبخ في فروقه السوداء ، تدب خلفه جدتي في معطفها الثقيل ، وبدا وراءهما الحال ميخائيل ، واطفال ، وغرباء عديدون ...

لقى جدي بفروقه على الارض ، وزعق :

- يا لأولئك الاوباش ! يفعلون هكذا بهذا الفتى ! خمس سنوات أخرى

ويفقدو ثميناً كالذهب !

ثم توجه الى خالي هازأ قبضته الحمراء في وجهها .

- ايها الذئبان !

وألقى بنفسه على مقعد مطبقاً أصابعه بعنف عليه ، وهو يدمدم ويحشرج في صوت أجش :

— آه ، أنا أعلم ، لقد كان شوكة في حلقيكما ! آه ! يا فانيبا ، أيها الشاب الفتى ! ماذا نستطيع ان نفعل الآن ؟ اسألك ماذا نستطيع ان نفعل ! الحيل غريبة ، واللجام قديم مهترى . . . انظري يا أماء ، كأن الرب في هذه السنوات الأخيرة قد عدل عن حبنا ، اليس كذلك ، يا أماء ؟
فارتمت جدتي على الأرض بجانب أيفان تلص وجهه ورأسه وصدره ، وتأخذ يديه وتفرصهما ، ثم تنفخ في عينيهِ . فانطفأ نور الشمعات كلها ، واستقامت أخيراً على قدميها كشبح أسود داكن ، وقد التمع ثوبها وقذفت عيناها السوداء ان شرراً مخيفاً ، وهي تهمس في صوت محشرج :

— اخرجوا من هنا ، أيها الشياطين !

فتوارى الجميع عدا جدي . . .

ووري تسيجانوك الثرى ببساطة ، دون ان يلفت الانتباه .

كنت أصغي الى جدتي وهي تصلي، وأنا ارقد في سرير واسع ، وقد التفتفت بلحاف ثقيل يضفي من كل جانب ... كانت تجثو على ركبتها واضعة إحدى يديها على صدرها ، بينما راحت ترسم بالثانية إشارة الصليب بكل تؤدة .
 كان نور القمر الموشى بالاخضر يطل من خلال الستائر المزركشة ، التي تغطي زجاج النافذة ، كان نوره الموشى بأنوار فسفورية يسطع على غطاء الرأس الحريري ، الذي يحجب شعر جدتي ، يشع كالفضة ، وقد تدل ثوبها الاسود على كتفيها بثنيان مناسبة تجمعت على الارض وأحاطتها من كل ناحية ، بينما كانت قدغدغ اسماعي أصوات قرقة تكسر الجليد وراء النافذة .
 وتنتهي جدتي من تلاوة الصلاة ، فتززع عنها ثيابها بهدوء ثم تودعها فوق صندوق الملابس الكائن في زاوية الغرفة ، ثم تدنو من السرير ، فأنظاها بالنوم .
 فتقول بلطف :

— كفى قميلاً ، أيها الحبيث الصغير ! فأنت لست نائماً ايها الطير الصغير !
 أترك لنا شيئاً من هذا اللحاف .
 كنت أعلم ما سيحدث بعد ذلك ، فلا استطيع مقاومة ابتسامه . فتصيح
 جدتي .

— آه ، تريد أن تجعل من جدتك لعبة ، أليس كذلك ؟
 وتمسك بطرف اللحاف وقشه نحوها بطريقة لبقة بحيث تجعلني أدور حول نفسي . فأعود ثانية إلى السرير ، بينما تفرق جدتي في عاصفة من الضحك !

- خذها ، ايها الشيطان الصغير ! فأنت تستحقها !
وفي بعض الأحيان كنت اتام دون أن أشعر بها حين تلج الى السرير لأنها
كانت تصلي طويلاً .
واكثر ما كنت أصغي اليها بانتباه ، عندما كانت تحتتم ايام الشجار والمتاعب
بمثل هذه الصلوات الطيبة ، كانت تجثو كالطود تصارح ربه بدقائق حوادث
النهار جميعها . ثم تبدأ صلاتها بهمس مبهم ما يبرح أن يغدو دمدمة قوية :
- انت تعلم ، يا ربي ، أن كل انسان يسعى باحثاً عن مصلحته الخاصة ، وهذا
أمر بديهي ، وولدي البكر ميخائيل من المتمسكين بحب البقاء في البلدة هنا ،
وانها جريمة لا تفتقر بالنسبة اليه ان يرسل به عبر النهر إلى موضع جديد لم يعرفه
احد من قبل . بيد ان الأب يفضل عليه يا كوف . وهل من العدل ان يحب أب
أولاده بصورة غير متساوية ؟ انه مخلوق قاسر ، ذلك العجوز ! وانت تفعل
خيراً يا إلهي ، ان قومتم عقله .
وقبل ان تنحني ماسة جبهتها بالسجادة ، كانت ترسم إشارة الصليب . ثم
تتابع باقتناع ، وهي تنهض :
- ولماذا لا تبعث السعادة في قلب فارفارا ؟ ماذا أتت هذه المسكينة حتى
تفضب عليها ، يا إلهي ؟ ومن سمح بامرأة شابة متينة البنية تعيش في مثل هذا
الشفاء . ومن ثم احفظ يا إلهي عيني جريحوري اللتين تسوءان يوماً بعد يوم . فإن
امسى كفيفاً ، ماذا يسي لديه سوى التسوّل في الشوارع ؟ وهل ذاك من العدل
بشيء ؟ انه يفني شبابه في أعمال الجد .. بيد انه إن كف بصره هل يساعده ؟
آه ، يا ربي ، يا ربي القدير !
ثم تركز الى الصمت مدة طويلة ، حانية الرأس وقد قدلت ذراعها وكأنها
غارقة في سنة من النوم ، وبدت كتمثال جامد هادى .
كنت شغوقاً بالله جدتي . الذي يبدو مقرباً وعزيراً عندها . ففي بعض
الأحيان أقول لها :
- حدثيني عن الله ...

كانت تتحدث عن الله بطريقة خاصة ، فتقتعد السرير ، وتسدل عينيها ،
وتبدأ الحديث بصوت هامس . وتشلح بمندبها على رأسها ، وتبدأ بحبك قصتها
الخيالية حتى أغرق في سبات من النوم ...

وما زلت اذكر انني مررت يوماً أمام غرفة خالي ميخائيل ، وكان الباب
مفتوحاً ، فشاهدت العمة ناتاليا ، قد اكتست البياض ، تلف الغرفة ذهاباً وإياباً ،
واضعة يديها على صدرها ، وهي تهمس بصوت يبعث الرهبة والخوف :

— آه ، يا إلهي خلصني من هذه العشرة . خذني اليك ...
وقد ادركت ما ترمي من صلاتها ، كما ادرك ما يقصد جريجوري حينما
يدمدم :

— سامضي وأتسول عندما أمسي كفيفاً ، وسأكون عندئذ أحسن حال
مني هنا !

كنت أتمنى ان يصبح أعشى عما قريب حتى أغدو دليله ، فنخرج معاً محبوب
العالم ونطوف في الآفاق ، نتسول كفاة عيشنا . وذات يوم بحث اليه بأمنيته
هذه . فضحك وقال :

— حسناً ! سنخرج سوياً . وسأنادي في الطرقات حتى اسمع كل الناس :
« هذا هو فاسيلي كاشرين . صاحب معامل الصباغ » واعتقد ان ذلك سيكون
مضحكاً ، اليس كذلك ؟

وكثيراً ما كنت ألاحظ تورماً في شفتي العمة ناتاليا ، وبقع سوداء وزرقاء
تعتمر في وجهها الاصفر اللون . فاستوضحت جدتي مرة ؟
— « نرى أضرارها خالي ؟ »

— لعنة الله عليه ، انه يفعل ذلك خفية ، فقد منعه جدك عن ذلك ، لذلك
فهو يضربها في الليل ، إنه شرير ، وهي جبانة .

ثم تتابع حديثها متحمسة :

— لكن في هذه الايام لا يضربون كما اعتادوا ان يفعلوا في الماضي . لقد
اصبح الناس أقل وحشية منهم بالأمس ! أجل ، قد يضربون أحياناً على الاسنان ،
والآذان ، أو الوجه ، مدة دقيقة أو دقيقتين ، وينتهي الامر ... لكنهم ، في

الماضي ، كانوا يعذبون المذنب ساعات طوال ؟ لقد ضربني جدك مرة ، من
الفجر حتى مغيب الشمس ، كان يأخذ قسطاً من الراحة بين الفينة والفينة ، ثم
يرجع الى ضربتي ثانية .. كان يضربني بلجام الفرس ، أو حبل ، أو أي شيء
آخر يقع في متناول يده .

— ولماذا ؟

— لست قادرة على التذكر الآن . فقد ضربني مرة حتى غدت شبه ميتة ،
ثم منعني من تناول الطعام مدة خمسة أيام ، وقد نجوت من الموت بأعجوبة في
تلك المرة ..

لقد أذهلتني هذه الأحداث ، فحجم جدتي يساوي ضعفي حجم جدي ولم
استطع ان اتخيل كيف كان يتغلب عليها...

وحدث ذات ليلة ، بينما كانت جدتي جاثية على ركبتها ، تناجي الله في
حديث مفعم بالآيات ، ان دفع جدي الباب على مصراعيه ، وصرخ بصوت
جهوري :

— هيا ! يا أماء ! نحن نحترق ... انه شيء من الله ! هيا ! ..

فصرخت ، وهي تحاول النهوض !

— ماذا ؟

وانطلقت وجدي في عتمة الرواق الفسيح يصرخان ...

واخذت تصدر اوامرها بصوت عالٍ رزين :

— أنزي الأواني ، يا ينجينيا ! وانت يا غاليا ، ألبس الاولاد ثيابهم .

واخذ جدي ينتحب وينوح :

— آه — ه — ه !

فعدوت الى المطبخ .. كانت النوافذ المطلة على الساحة تشتعل لهباً ، وكتل
صفراء تتدحرج على الارض وتسيل ، وأخذ الحال ياكوف يقفز عالياً وهو يدافع

ميه كأن تلك الكنتل تحرق حذاءه ... دمددم بصوت أجش :
- آه ، لقد أشعل ميخائيل النار ، شغلنا بها وقواري .
فقدفته جدتي خارج الباب حتى كاد يسقط على الأرض ، وصاحت :
- صه ، أيها الوحش ؟

كنت أشاهد المعمل يحترق ، من خلال الجليد المتكاثف على زجاج النوافذ ،
والسنة النار تندفع عبر الباب المفتوح على مصراعيه . وأخذت الشهب الحمراء
تعلو في الجو الحر ، وترسل نفاثها الأسود فيجتمع غيوماً كثيفة في ذلك الليل
الهادي .. ورأيت الثلج يتورد بانعكاسات أرجوانية ، وأخذت جدران البيت
تترنح وتهتز ... وأخذت النار تشتد ، وأخذرونها يضيء على المعمل فتنة
وجالاً ، يشدني إليه بقوة خارقة لم استطع مقاومة إغرائها .

تدفرت بمطف سميك من جلد الماعز ، وانتعلت أول حذاء عثرت عليه ، ثم
امسعت في المعشى حتى عتبة الباب حيث قبعت مذعوراً ، فلهيب النار قد
أغشى بصري ، وصم أذني صوت تأججها ، وصيحات جدي وخالي وجريهوري ..
وذهل من تصرف جدتي ، فقد القت على رأسها بكيس فارغ ، ودثرت نفسها
بحرام سميك نستعمله في كسوة الخيل عادة ، وقذفت بنفسها داخل المعمل ،
وهي تصرخ :

- حامض الكبريت ، أيها البلهاء ! حامض الكبريت سيشتعل !
فصاح جدي :

- ائنيها يا جريهوري ! أوه ، لقد قضى عليها ..
وعادت جدتي بسرعة ، وقد انعقد الدخان فوق رأسها ، منخنية تحت
عباءه إزاء حامض الكبريت الضخم .

زعمت بصوت جهوري ، وهي تسعل !
- يا أبتاه ، أخرجوا الحصان ! وازعوا هذا الشيء عني ، ألا تشاهدون
أنني احترق .

فالتزع جريهوري عن كنفها حرام الحصان المحترق ، ثم تناول معسولاً

وانثنى يزيل الثلوج المتراكمة على مدخل المعمل ، ويلقي بها في جوف النار ،
واخذ خالي يقفز حواه والفاأس في يديه ، وهرول جدي في اعقاب جدتي يغمرها
بالثلج ، وهي توارى إزاء حامض الكبريت في الجليد ، وما ان انتهت ، حتى
غدت تفتح بوابة الساحة ، وأخذت تصرخ هناك ، وهي تتطلب من الناس الذين
أتوا يعدون :

— ايها الجيران ، انقذوا مخزن الغلال ، ستطاله النار ، ومخزن العشب اليابس .
انزعوا السقف والقوا بالأعشاب داخل الحديقة ، إن كل ما جمعناه ، سيحترق ،
وسأتي دوركم بعدنا ! انثر الثلج عالياً ، يا جريجوري ، فأني فائدة في نثره على
الارض ؟ وانت يا ياكوف ، كفك عدواً ، ناول القوم فؤوساً ومعاول أساعدونا
ايها القوم الطيبون ، ليكن الله في عونكم !

وعدا ساراب داخل الساحة ، ثم قفز على قائمتيه الخلفيتين ، فلقى جدي
بقدميه ارضاً . كانت عيناه تلتصعان حمرة بانعكاس اضواء النار فيها ، وأخذ
يعدو هنا وهناك ، نافخاً بمنخريه ، ويقفز في عنف حتى اقلت له جدي اللجام
وابتعد عنه هارباً ، وهو يصرخ :

— أمسك به ، يا أم !

فألقت جدتي بنفسها بين قوائم ذلك الحصان الهائج ولبثت دون حراك
وقد فتحت له ذراعها ، فتعالى صهيله حزيناً ثم هدأ ، وهو يتطلع بنظرات
إلى النار المتأججة .

وأخذت جدتي تربت على رقبتة وتمسك اللجام بكلتي يديها ، ثم تقول
بصوت عميق :

— لا تجزع ! هل اتخلى عنك في مثل هذه اللحظة الخيفة ؟ انت ايها الفأر
الصغير الطائش ؟

فأخذ الفأر ، الذي يكبرها بثلاث مرات حجماً ، يتبعها يهدوء وطاعة حتى
البوابة ، صاهلاً كلما رأى وجهها المتورد .

واندفعت المربية يفجئنا مع الأطفال من المنزل ... وقد تدثرن جميعاً

بالأغطية وهم يصرخون بأشياء مبهمه ..

صاحت المربية :

- لم اجد الكسي ، يا فاسيلي فاسيليفيتش

فتواريت تحت درجات السلم حتى لا تاخذني بعيداً مع الباقيين ، في حين صاح

جدي منهمكاً :

- دعينا ، دعينا !

وتهاوى سقف العمل تاركاً وراءه سحباً من الدخان الكثيف بقي مدة يتطاول نحو السماء ... وبدأت الأحواض تتفجر وتفور ثائرة ، وهي ترسل بغيوم من الدخان والابخرة فتتشر رائحة غريبة في أرجاء الساحة ، تجعل الدموع تتهدل وتتساب من العيون ..

انطلقت من مخبئي وتهاويت بجانب جدتي ، فصرخت بي :

- اذهب من هنا ! وإلا رفسوك ! ابتعد .

ولج إلى الساحة خيال يعتمر خوذة فولاذية كبيرة ، وقد علا الزيد فم

جواده الأشقر ، وشرع يلوح بسوطه ويصرخ مهدداً :

- افسحوا الطريق !

وقعالت أصوات اجراس صغيرة تدق بتتابع . كان كل شيء بهيجاً مسلياً

كأيام الأعياد والأفراح . ونهرتني جدتي من جانب الباب قائلة :

- ألم تسمعي ؟ قلت لك ! ابتعد من هنا !

ومن الاستحالة ان اعصيا في مثل هذه الظروف . فعدت ادراجي الى

المطبخ .. وقبعت الى النافذة من جديد . كانت تلك الجموع من الناس تتوارى

أحياناً وأحياناً أخرى تحجب عني مشهد النار فلا اعد اشاهد غير لمعان الخوذ

الفولاذية وهي تتناقل في كل مكان .

وسرعان ما اخذت النيران بعد ان حصرت في منطقة واحدة . وتساقط

المياه الغزيرة عليها . ووزعت الشرطة الجماهير المحتشدة . وبعد ان انتهى كل شيء

عادت جدتي ببطء الى المطبخ ..

- من هناك ؟ اهذا انت ؟ ألم تم بعد ؟ هل انت وجل ؟ لا تخف ! فقد انتهى كل شيء الآن !

ارتقت بالقرب مني إلى الراء والامام من غير ان تنبس ببنت شفة ، كنت مسروراً بهبوط الليل يخيم عليه الهدوء وتغمره الظلمة ، بيد انني في الوقت نفسه ، كنت جد آسف على حرمانني من مشهد النار .

بدا جدي في العتبة :

- أماء !

- ماذا بك ؟

- هل أصبت ؟

- لا شيء يسترعي الانتباه ..

اشعل الشمعة الكائنة على الطاولة ، فبدا وجهه السنجابي الملطخ بالدخان .

ثم اقتعد الارض بجانب جدتي ، قالت :

- يجب أن تذهب وتغتسل !

فتنفس جدي الصعداء :

- ما اوسع رحمة الله إذ اعطاك هذا الذكاء !

وربت بلطف على كتفها ، وأردف وقد علت ابتسامة ثغره :

- اقصد انه يهيك اياه في فترات قصيرة متباعدة . بيد انه على كل حال يرسله .

وندت عن جدتي ضحكة وفغرت فاهها تريد ان تقول شيئاً ، بيد أن جدي

قطب وجهه ، وأردف :

- ينبغي ان تنته من جريجوري ، فكل ما وقع كان بسبب إهماله ، إنه لم

يعد ينفع شيئاً . ان ياكوف ينتحب عند العتبة . يحذر بك ان تذهبي اليه .

فنهضت وهي ترفع يدها وتنفخ على أصابعها ، ثم خرجت .

وبدون ان يلتفت جدي اليّ استوضحني قائلاً :

- هل شاهدت الحريق من بدايته ؟ حسناً ، ما رأيك يحدثك ؟ واذكر

دائماً انها امرأة هرمة .. منهارة .. إن في هذا عظة لك ، وللجميع أيضاً ، تفوا !

ولاذ بالصمت فترة ، واطفاً الشمعة بإصابعه بعد ان نهض ، قائلاً :

— هل شعرت بالخوف ؟

— كلا

— حسناً ، لم يكن من داعٍ للخوف . هيا امض الى سريرك .

خضعت للأمر ، بيد ان النوم لم يراود اجفاني تلك الليلة ، فعدت ادراجي الى المطبخ ، وتسلقت الموقد ، وقبعت في زاويته .

وجهت جدتي اوامرها الى جريجوري :

— اوقد النار اولاً !

فصعد جريجوري بهدوء الى الموقد ، فوقع بصره على قدمي ، فاذا به يصرخ مرتعباً :

— من هناك ؟ تقو ! لقد اخفنتني ! انت لا توجد الا حيث لا حاجة اليك على الاطلاق .

— ماذا هناك ؟

فأجاب بصوت هادئ ، وهو يعود الى الارض :

— العمة ناتاليا تلد !

وتذكرت ان امي لم تصرخ بهذا الشكل حين وضعت ، وعندما رفع جريجوري الغلايات على الموقد ، صعد حتى اصبح مواجهتي ، ثم اخرج من جيبه غليوناً .

قال وهو يتطلع إلى الغليون :

— اعتقد ان التدخين افضل ، لذا بدأت أدخن لأن في ذلك ابراء لعيني .

جلس على حافة الموقد ، ينو الى نور الشمعة الخافت ، وقد لوث الدخان الاسود اذنيه ووجهه ، وشق قميصه بحيث اشاهد اضلاعه تهبط وتعلو ، وتكسرت إحدى زجاجتي نظارته السوداء وسقطت منها قطعة كبيرة ، فأفسحت فرجة يستطيع المرء ان يشاهد من خلالها عينه الحمراء التي بدت كجرح مشقوق يدمي .

وحشى غليونه تبغاً ، وأخذ يرهف السمع إلى تأوهات تلك المرأة الماخض ،
ويحدث نفسه كالرجل الثمل :

- اعتقد ان النار قالت من جدتك . ترى ، كيف ستدبر امر توليد عمتك ؟
هل علمت كيف امضت عمتك نهارها ؟ لقد تركوها وقد بدأ المخاض منذ
نشوب الحريق ، وقد تأملت نتيجة الخوف تأمل ، كم هو صعب حمل مخلوق
جديد إلى هذا العالم ! ومع ذلك ، فليس من أحد يعير تلك المرأة أدنى
انتباه . ينبغي ان تحترم المرأة ، فهي أم ، وهذه هي الحقيقة ، فلا تنسها
مطلقاً .

غفوت فترة من الزمن استيقظت بعدها على صوت جلبة شاملة وصيحات
الحال ميخائيل .. وأصبحت الحرارة لا تحتل بالقرب من الموقد فنزلت عنه
مسرعاً . بيد انني لم أكد أدنو من خالي حتى كأل لي رفسة بقدمه فارقيمت ارضاً ،
وقد اصطدم رأسي بالارض ، فصرخت :

- أحمق !

فشب واقفاً ، وانتشلي ، مارجحاً بي الهواء وهو يدمدم :

- سأسحقك على الموقد !

وعندما افقت مستعيداً صوابي وجدتني ممدداً على ركبتني جدي في الصالون
الكبير ، في زاوية يهددني ، وقد علق عينا في السقف وهو يدمدم :

- لن يصيب أحد منا المفخرة ابداً ...

سألني جدي وهو يلاطفني

- ماذا يؤلك ؟

كنت أشعر ان كل عضو في يؤلني ، فرأسي نديان وقد شعرت بثقل
جسمي . بيد انني لم اجد رغبة في الافصاح عن ذلك . ووجدت ان كل من
حولي غرباء ، وكان خالي ياكوف واقفاً باستقامة بجانب الباب وقد وضع يديه
خلف ظهره . قال جدي :

- اقرب يا ياكوف ، وخذه إلى فراشه .

فأشار إليّ خالي ، فسرنا الى الغرفة على رؤوس أصابعنا . وما ان تمددت على السرير حقّ همس الحال في أذني :
- لقد توفيت عمك نائليا ...

فلم استغرب للخبر ، لأن عمي بقيت فترة طويلة لم تبدُ ملامحها في انحاء البيت ، ولا تلج المطبخ ، ولا تقعد الى الطاولة لتناول الطعام .

- اين جدتي ؟

فأجابني ، مشيراً بيده :

- هناك ، في الاسفل !

وعاد كما جاء ، يمشي على رؤوس اصابعه الخافية ...

استلقيت على السرير اتأمل حولي قلقاً . وبدأت تتصور لي ، على زجاج النافذة ، وجوه عديدة وقد كللها الشيب . وفي الزاوية كان ثوب جدتي قد علق فوق الصندوق ، كنت اعلم هذا بيد ان الثوب تراءى لي وكأنه مخلوق حي يتربص هناك بين الظلال . فدست رأسي تحت الغطاء ، تاركاً إحدى عيني مثبتة في الباب . كنت أود ان اقفز من السرير وألوذ بالهرب .. وكانت الحجرة حارة ، وقد غصّ المنزل برائحة غريبة ، تذكرني بموت تسيجانوك ، والدم يتصبب من فمه على الارض ، وشعرت ان رأسي ، بل قلبي ، ينفخ ...
وأصغيت السمع الى الباب يفتح بهدوء ، ثم ولجت منه جدتي ، ثم اغلقت به بكتفها ، وبقيت مستندة اليه ..

دمدمت في لهجة بلهاء شاكية :

- يا ليديّ المسكينتين ا ... كيف احترقنا ا ...

وفي مطلع الربيع حصل تقسيم الاملاك ، فبقي ياكوف في المدينة ، وعبر ميخائيل النهر إلى كوناينو . واشاد جدي لنفسه بيتاً جديداً جميلاً ، حجري البناء في شارع بوليفوي ، واقام في الطابق الارضي منه خمارة كبيرة ، واقام على السطح غرفة انيقة صغيرة . وامتدت امام البيت حديقة تطل على وادٍ تهايل فيه اشجار الصفصاف العارية .

كنا نجوب ارجاء الحديقة ، انا وجدي ، ونطوي المرات الناعمة التربة ، قال جدي يخاطبني وقد غمزني بطرف عينه مغتبطاً :

— ما اكثر القضبان في هذه الحديقة ! وعما قريب سأبدأ بتعليمك الكتابة والقراءة . وعندئذ سأكون بحاجة ماسة الى هذه القضبان !

كان المنزل يغص بالمستأجرين ، فأفرد جدي له غرفة رحبة في الطابق العلوي واعد لها لاستقبال الضيوف كذلك . وكان نصيبنا ، انا وجدتي ، غرفة تطل نوافذها على الطريق ، كائنة على السطح ، حيث تتمكن من مشاهدة السكاري وقد لفظتهم الحمارة في ايام الاعياد والامسيات .. وفي كل صباح كان يذهب جدي الى معمل ولديه لمساعدتهما في تنسيق الاعمال ، ثم يعود عشية ، منهوك القوى ، كئيب الفؤاد . صلب الطباع .

بينما كانت جدتي تتدبر أمور المنزل ، وتطهي الطعام ، وتحفف وجهها الذي يتصبب عرقاً :

— شكراً سرمدياً لجميع الملائكة والقديسين ! ها قد انتقلنا اخيراً الى

حياة هائلة هائلة .. شكراً للعدراء البنول !

بيد انني لم اشعر بشيء من الهدوء في حياتنا .. فقد كان المستأجرون يملؤن المنزل ديباً وصباحاً ، منذ الصباح حتى المساء يأتون وهم في عجلة من امرهم .. وكانوا ينادون جدتي :

— أكونينا ايغانوفا !

فكانت تبادرهم بإبتساماتها العذبة توزعها عليهم بلطف زائد . وعرف السمع الى احاديثهم .. كانت قابلة ، وحكي في المشاحنات البيتية ، وتعالج المرضى من الاولاد الصغار ، وتحكي قصة « حلم العذراء » عن ظهر قلب وتعلمها للنسوة فيزددن سعادة وغبطة ، ثم تدلي بنصائحها في امور البيت ومتطلباته . اما انا فقد كنت اتبع انرها طوال النهار ، ممسكاً بثوبها في الساحة او في الحديقة أو عند الجيران ، حيث تمكث بعض ساعات ، تروي ما لديها من اقايصيص واخبار .. وهي ترتشف الشاي .. وكنت أبدو ، عند ذاك . كأنني جزء منها ، وخلال تلك الفترة من حياتي لم اعد اذكر أحداً ، سوى هذه المعجوزة النشيطة اللطيفة .

وفي بعض الاحيان كانت تبدو امي بيننا في لحظات قصيرة ، وكانت لا تزال غير مبالية ، تلاحظ كل شيء بعينين باردتين قاعنتين كأشعة شمس الشتاء المكفهرة . ولا تمكث بيننا طويلاً ، فسرعان ما تتوارى من غير ان تترك في اثرها شيئاً يذكرنا بها .

استوضعت جدتي ذات يوم :

— هل انت ساحرة ؟

فندت عنها ضحكة :

— حقاً ؟ من اين استنتجت ذلك ؟

وعادت الى محياها علائم الجد والصرامة ، واردفت :

— ومن انا لاكون ساحرة ؟ الشعوذة فن شائك . وانا لا الاحظ الالف من

الباء ا تأمل جدك ا ياله من رجل مثقف ا بيد ان العذراء النقية لم تهين ،

الكثير من المعرفة والحكمة .

واقضت حينذاك مجزء آخر من حياتها الخاصة :

- لقد نشأت يتيمة . وكانت والدتي تعمل فلاحه معدمة . وذات يوم انزل سيد نبيل الرعب في قلبها وكانت ما تزال عذراء بعد .. ففي ذات ليلة رمت بنفسها من إحدى النوافذ ، فتحطمت خالصتها وكسفتها . وشلت يدها اليمنى عن الحركة ، عنصر العمل الهام ، اذ كانت تعمل في التطريز . وقد اعتنقها النبيل بعد ذلك بفترة قصيرة من الزمن لعدم جدواها .. وهكذا امست تستجدي في الطرقات . وقد كان اهل بالاخنا في ذلك الوقت ، اطيب قلباً واوسع غنى ، وكانت قلوبهم من ذهب وكل واحد منهم افضل من الآخر . فلم نترك المدينة ، واخذنا ، انا وامي نستجدي الناس طوال الحريف والشتاء ، وغادرنا بلدتنا بعدما نضى جبرائيل سيفه ، فأذاب الجليد ، فاذا الربيع يخطر على وجه الارض ويتأيل باهى حلاله .. فمضينا الى موروم ، ومنها الى بوريقت ، ثم مرنا على طول نهر الفولغا ونهر اوكا الهادىء . وكما كان مسيرنا جميلاً ! فالارض تعبق برائحة الربيع ، والاعشاب تتأيل ندية في طراوتها كالحرير ، وقد نثرت العذراء الزهور في جميع الارحاء ، فيعتمر السرور نفسك ، ويمتد الفضاء الواسع امام ناظريك يطفح بهجة وحبورا .. فاذا بغناء امي يتعالى في الآفاق ، وقد اغمضت عينيهما نصف إغلاق ، ويتراءى لك ان كل ما يحيط بنا قد ركن الى الهدوء والسكون ، يصفي السمع الى تلك التسابيح .. فقد كان صوتها آسراً .. ولكن ما ان بلغت العاشرة من عمري ، حتى رفضت والدتي ان اصحبها للتسول . كانت ترى ذلك مخزياً .. بل فضيحة شائنة .. وهكذا استقرت في بالاخنا ، حيث كانت تدق الابواب طلباً للطعام ، وفي ايام الاحساد كانت تقف على باب الكنيسة تستجدي الناس والمصلين . بينما كنت انا ابقي في البيت لأتعم التطريز ، ولم أقدر ان اتقنه بسرعة ، رغم اني كنت شغوفة بمساعدة أُمي المسكينة ، وعندما يكون النموذج شائكاً ولا انجح في انجازه ، كنت استرسل في النحيب والدمع بذرف مبراراً من عيني . وسرعان ما اتقنت في سنتين ، تصور ، تلك

المهنة الشائكة ، واصبح لي شهرة في البلدة وضواحيها ولم يكن يأتنا من القوم إلا من اراد عملاً ممتازاً ، ويقولون : « حسنًا يا أكرلياً . هلا لعبت باصابعك وإبرك ؟ » . وكنت مسرورة بذلك ، وإن كنت ، في الحقيقة غير جديرة بتلك الشهرة التي كانت والدتي أولى بها مني ، لأنها هي التي لقنتني الدروس رغم شلل يدها اليمنى .. وكنت متعجرفة جداً . فقلت لها : « تستطيعين الآن ، يا اماء ، التوقف عن الاستجداء ، فقد اصبحت قادرة على إطعامك من عمل يديّ ! » فأجابتنني : « صد ! الا تعرفين ان هذا المال ينبغي ان يكون مهرًا لك ؟ » . وسرعان ما بان جديك بعد ذلك ، رجل شاب في الثانية والعشرين من عمره ، وكان يعود بمال لا بأس به من عمله .. وتأملتنني والدته كثيراً ، وادركت ما انا عليه من البؤس ، وانني امرأة مستعطفية ، مما جعلها تفكر بانني سأكون الزوجة الصالحة المطيعة .. هل سمعت .. وكانت هي بائمة للحاوى والكمك ، خبيثة مأكرة ، لكن ليساعطني الله ، لماذا اتحدث بالسؤ عن الموتى ؟ وما الفائدة من ذلك ! ان الله يراهم ، والشيطان يحبهم ..

رندت عنها ضحكة صادرة من الاعماق فأخذ انفها بالاهتزاز على نحو يبعث السخرية ، واخذت ترنو اليّ بعطف يفصح عن مقصده اكثر مما تعني الكلمات ..

* * *

ولم ازل اذكر ليلة هادئة ساكنة بينما كنت ارشف الشاي مع جدتي في حجرة جدي . كان المرض قد ألمّ به . فأوى الى فرشه ، وقد نزع عنه قميصه ، ودثر كتفيه بمنشفة كبيرة يحفف بها ، بين الفينة والفينة ، العرق المتصبب على جبينه كانت انفاسه تتلاحق بسرعة ، وقد غطت عينيه سحابة قاتمة .. ويداه ترتجفان كلما حاول ان يمسك بفنجان الشاي بشكل يبعث الشفقة فعلاً . كان لطيفاً ، في ذلك النهار ، على غير عادته .

اخذ يشتكي لجدي بلهجة طفل مدلل :

— لماذا لم تضعني لي قطعة من السكر ؟

فأجابته بنعومة هادئة ، ولكن بصرامة ايضاً :

- لأن العسل انفع لك .
 فارتشف فنجان الشاي متمللاً شاكياً . قال :
 - حاذري ان اموت .
 - لا تخف ، فانا ساهرة بجانبك .
 - حسناً ، فاني لو مت الآن لكنت كمن لم يعيش ابداً ، او من عاش من
 اجل لا شيء .
 - نعم يكفيك فرقة .
 بقي مضطجماً فترة قصيرة ، مغمض العينين ، لا يأتي حركة .. ثم نهض
 فجأة ، وكأن احدهم لمزه .
 - ينبغي ، يا اماء ، ان تزوجي ياكوف وميخائيل في اقرب وقت . ربما
 جعلها ذلك أكثر الفة وتعقلاً . ما رأيك ؟
 وبدأ يستعرض فتيات البلدة اللواتي يلقن الزواج من ولديه ، في حين
 شرعت جدتي ترتشف الشاي ، الكأس قلو الآخر ، دون ان تعيره أدنى
 اهتمام بالموضوع .
 وعقاباً على اخطاء اقترقتها ، منعت من النزول الى الحديقة .. فجلست غروب
 يوم الى النافذة اشاهد بريق نوافذ المنازل وقد انعكست فيها اضواء الشمس
 الصفراء ، واسرح النظر فوق تلك المدينة .. كانت ترد من الوادي ، وراء الحديقة ،
 اصوات اطفال يلعبون بين الاشجار الغضة ، فيدفعني شوق يائس ، وقد اثقلت
 كآبة الغروب على نفسي ، ان اشاركهم في هوم .
 وفجأة ، أخرج جدي من جيبه كتاباً انيقاً ، وضرب عليه براحه يده ،
 وفاداني بصوت اليف :
 - انت ، ايها الحسون الصغير ! تعال هنا ! اجلس . ايها التتري الوجه ! هل
 ترى هذه العلامة ؟ إنها « الف » في أب . ردد ذلك : « الف في أب »
 « ب » في باب ، « ت » في توت . ما هذه ؟
 - « ب » في باب ..

- صح ويحد .

- « ت » في توت .

- خطأ : « الف » في أب . انظر هنا . « د » في دار ، « ج » في جار

ما هذه ؟

- « ج » في جار .

- صح ، وهذه ؟

- « د » في دار .

- عظيم ، وهذه ؟

- « الف » في أب .

فقاطعتنا جدتي قائمة :

- من الافضل لك ان تمام يهدؤ ، يا ابتاه !

- صه ! ان هذا يزيل عني بعض المتاعب ، تابع ، يا السكي !

وطوق رقبتى بساعده الحار الرطب ، واخذ يشير الى الحروف ، وقد امسك

في اليد الثانية بالكتاب تحت انفي توأ .

كان مزيج من رائحة الحل والبصل المشوي والعرق تفوح منه ، تكاد ان

تخنقني . . .

كنت ارنو اليه مقتبظاً ، وقد جلست جدتي ومرفقاها على الطاولة ،

وأصابعها على خديها ، تبتسم وهي تتأملنا .. قالت :

- كفا كما ثرثرة !

واستدار جدي إلي ، بشرح لي بمودة :

- انني اثرثر لانني مريض .

ثم حك رأسه المتصبب عرقاً ، وقال موجهاً حديثه الى جدتي .

- لقد اخطأت المرحومة ناتاليا عندما قالت : إن ذاكرته سيئة ، انها اشبه

بذاكرة حصان اصيل ! تابع ، يا افطس الانف !

ثم شدني اليه ، فيما بعد نحو السرير مازحاً :

- يكفي الآن ! احتفظ بالكتاب ، سأسألك غداً عن جميع الاحرف
الايحدية ، فأياك ان تغلط في قراءتها ، وسأهبك خمسة كوبيكات لقاء ذلك .
وعندما دنوت منه لأخذ الكتاب ، ضمنى اليه ، وقال بلوعة :
- ما الذي حمل والدتك الى الذهاب وتركك هنا ، يا بني ؟
فتدخلت جدتي :

- ما الفائدة الآن من الكلام عن ذلك ، يا ابتاه ؟
- الاسى يحملني على ذلك .. آه ، يا لها من فتاة ، بش ان تضل !
وابعدني عنه بحركة عنيفة :
- اذهب من هنا والعب ، ابق في الساحة او في الحديقة ! لكنني امنعك
من الخروج الى الشارع . أسمع ؟
وهذا ما كنت أبقيه ، اذ لا اكاد ابدو فيها حتى يأخذ الاطفال الذين يلعبون
في الوادي يرشقونني بالحجارة ، فأرد لهم الصاع صاعين .
كانوا يهتفون ، عندما يشاهدونني :
- ها هي ذي البقة !
ثم يتجمعون في كتلة واحدة ، ويصرخون :
- اضربوه !

لم يكن عندي فكرة عن ماهية البقة ، وهذا يفسر انه لا يمكنني ان اعتبر
أقوال الاطفال إهانة موجهة إليّ . وكنت اجد نفسي سعيداً باعتباري خصماً
لجميع تلك الجماعة ، واراهم يتزاحمون هرباً عندما أصب عليهم وابلاً من الحجارة ،
ويتوارون خلف الادغال الكثيفة . وكانت هذه المعارك تنتهي دائماً على خير
وجه ، بدون ان تقع أذية .

تلقنت القراءة بسرعة ، مما جعل جدي يزيدني عناية واهتماماً ، ويخفض من
عدد مرات جلدي ، مع انني كنت ، في الواقع ، استأهل الجلد اكثر من ذي
قبل . وبما انني أزداد نمواً عقلياً وجسدياً ، فقد بدأت في مخالفة اوامر جدي .
فكان يكتفي بتعنيفي أو بهز أصابعه في وجهي .

تصورت عندئذٍ ، انه كان في غالب الاحيان يجلدني في صغري دون سبب وجيه ، وذات يوم بحث له بوجهة نظري ، فنقر نقرة ناعمة تحت ذقني ، ورمقني بنظرة ، وهو يتشدد في كلامه :

— ما .. ذا ؟

ثم اردف وهو يقهقه :

— انت ايها المسخ الصغير ! من انت حتى تدرك عدد المرات التي يجب ان تضرب فيها ؟ انا وحدي ادرك ذلك ! هل فهمت ؟

وامسكتني من كفتي ، بينما كنت اشيح عنه ، ومرة اخرى اخذ يرمقني بنظراته :

— أأنت خبيث ام أبله ؟

— لا ادري .

— لا تدري ، ماذا ؟ حسناً ، سأعلمك إذن ، انت خبيث ، وهذا افضل من البلاءة ! الحيوان ابله ، هل فهمت ؟ والآن ، امض والعب ..

وسرعان ما ابتدأت في تهجية كتاب المزامير ، وكان جدي يدرسني ، في اغلب الاحيان ، بعد تناول الشاي ، حيث كنت اقرأ في كل يوم مزموراً بأكمله . كنت اتوقف عن القراءة لأستمع اليه ، وارنو الى وجهه المضطرب . كانت عيناه تحدقان من فوق رأسي ، وقد امتلأتا بكآبة عنيفة تذوب في جبروته المعتاد ، كان حاجباه الاحمران يرتعشان ، واظافره تنقر على الطاولة بعصبية ، وقد التمع الصباغ الذي يلوث اصابعه .

— جداه !

— ماذا ؟

— قص علي حكاية ..

فياخذ في فرك عينيه كأنه قد استيقظ لتوه من النوم :

— هيا ! اكمل قراءتك ، ايها الكسول ! انك تفضل الاصغاء الى الخرافات اكثر من المزامير !

كنت متأكداً انه ، بدوره يفضل الروايات الخرافية على المزامير التي حفظها
عن ظهر قلب . وقد آل على نفسه ان يقرأ جزءاً منها كل ليلة قبل ان
يذهب للنوم .

وابقى الح عليه حتى يعطف عليّ ، فيقص لي احدى قصصه قائلاً :
- حسناً : ستحتفظ انت بالمزامير طوال حياتك . أما انا فقريباً سأمضي
لاقابل ربي ..

ويستند الى حافة الكرسي ملقياً رأسه الى الوراء ، ويركز عينيه في السقف ،
ويفرق في تأملاته ، ثم يبدأ بالكلام عن والده والايام الغابرة . لقد حدث ،
ذات مرة ، ان جماعة من اللصوص سطت على بالاخنا قاصدة دكان التاجر
زاليف . فأسرع والد جدي عدواً حتى قبضة الكنيسة لينبه الناس ، فأدركه
اللصوص فأخذوه بسيفهم والقوا به من فوق البرج .

- كنت لا ازال طفلاً صغيراً فلم ادرك تلك الحادثة ، ولم اعد اذكرها .
وتعود ذكرياتي الاولى الى مجيء الفرنسيين عام ١٨١٢ ، ولم اكن اتجاوز الثانية
عشرة حينذاك ، عندما اقتادوا حوال ثلاثين اسيراً حتى بالاخنا ، وقد كانوا
ضامري البنية ، فبرزت عظامهم ، وتهذلت اسماهم حتى غدوا كالمسولين ، وقد
تجمدت اطراف بعضهم من البرد فاصبحوا عاجزين عن الحركة يستطيعون النهوض
على اقدامهم ، واراد الفلاحون قتلهم عن بكرة ابيهم . بيد ان الحراس وحامية
المدينة منعهم عن ذلك ، وارجعهم عنوة الى اكوأخهم . ثم جرت الامور على
ما يرام ، واعتاد الفريقان بعضهم بعضاً ، وكان الفرنسيون طيبو القلب ، ثاقبو
الفكر ، يتغنون باعجادهم حينما طاب لهم .. واخذ نبلأونا يأتون من نييجني
نوفجورود في العربات ليتفرجوا عليهم .. وما زلت اذكر ان شيخاً كان من
كبار النبلاء ، حجب وجهه بيديه مرة وراح يبكي ويصيح : « هل شاهدتم ما
اياه ذلك الشيطان نابليون بحق هؤلاء الفرنسيين ؟ » تأمل ذلك ، روسي طيب
القلب ، تحمله الشفقة على هؤلاء البؤساء الاجانب .

ويركن جدي الى الهدوء والسكون فترة ، ويسدل عينيه ، ويسوي شعره

الطويل بيده ، ويحني رأسه .. ثم يتابع حديثه باهتمام ، مفتشاً في زوايا ذكرياته العتيقة :

- وأتى الشتاء بأعاصيره الهائجة ، ورياحه القارسة تزجر بعناد فوق
الأكواخ ، فكان الفرنسيون يعدون حتى نوافذنا ينادون والدتي ، وكانت تصنع
الكعك ، يتسمرون في مكانهم وهم يقرعون الباب على والدتي ويطلبون منها
الكعك الساخن ، وكانت والدتي لا تسمح لهم بالدخول الى المنزل بل كانت
تناولهم الكعك من خلال قضبان النافذة ، فيتخاطفونه ساخناً تقوح منه رائحة
زكية فيضعونه فوق القلب تماماً . ولم ادرك كيف كانوا يتحملون تلك الحرارة
الشديدة ! ومات اكثرهم من الصقيع ، لأن سكان البلدان الحارة لا يستطيعون
تحمل ذلك الجليد . وقد اقام اثنان منهم عندنا ، احدهما ضابط والثاني مرافقه
ويدعى ميرون ، وكان الضابط فارغ الطول ، نحيل القوام ، يتجول في معطف
نسائي يصل حتى ركبتيه . كان طيب النفس لطيفاً ، مدمناً على الشراب .
وكانت امي تصنع الجعة بالسر ، فكان يبتاع منها مقادير كبيرة .. ويأخذ في
انشاد اغانيه اللامتناهية في ساعة نشوة السكر . وأخذ شيئاً من لفتنا ، فكان
يردد في بعض الاحيان : « بلادكم ليست بيضاء ، إنها سوداء جافة .. » اما
مرافقه ميرون فقد كان مولعاً بالخليل كثيراً ، يتجول بين الاسطبلات ويسأل
القوم السباح له العناية بالخليل بلغة الاشارات . بيد أن القوم قد خافوا منه بادية
الامر ، فهو عدو وليس من شيء يمنعه من إتيان السوء . ولم تمض مدة من الزمن
حتى أمسى الفلاحون ، بعد ان جربوه ، بأتونه من تلقاء أنفسهم .. ولكنه فقد عقله
فيما بعد وذات يوم امطره رجال الاطفاء ضرباً حتى مات .. اما الضابط فبقي
يذوي ويذوي مع اطلالة الربيع ، وبعد ذلك مات ، دون اي ضجة في عيد
القديس نيقولا . واحسست بالاسف لأجله وذرفت عليه بعض الدموع سراً .
فقد كان انساناً لطيفاً . والعالم لا يوجد فيه عدد كبير من أصحاب القلوب
الطيبة ..

كان جدي يتعدد في ذلك الجو الداكن بشكل مريع وقد اشتدت الظلمة .
كانت عيناه تشمان كعيني هر في الظلام . وهو يتحدث عادة يهدوء . وتأمل ..
بيد أنه ، وقد اخذ يتكلم عن نفسه ، أكثر حمية وتفاخرا . ولم تكن عظامه
تروق لي :

— « تذكر ذلك ! » .. « إياك ان تنساه ! » .

ولم يكن يقص عليّ شيئاً من اقصيص الجن ، فقد كانت اقصيصه من صميم
الواقع الحياتي من ماضيه بصورة خاصة . وادركت ان كثرة الاسئلة تزعجه
كثيرا لذلك كنت عندما تسنح الفرصة اطرح عليه وابلا منها :

— قل لي ايها افضل الرومي ام الفرنسي ؟

فيجيب غاضباً :

— ومن يستطيع الاجابة على هذا السؤال ؟ انالم اشاهد الفرنسيين عن
كثب في وطنهم الاصلي .
ثم يضيف .

— الفأر نفسه في حجره عظيم الفضيلة .

— وهل الروسيون طيبون ؟

— البعض كذلك والبعض الآخر لا ! لقد كانوا اناساً طيبين يوم كانوا عبيدا
تقيدهم الاغلال . اما وقد امسوا أحرارا فقد تناسوا العادات القديمة . ولا شك
ان النبلاء قساة القلوب نوعاً ما ، لكن النبيل اذا كان طيب القلب ، كان
فاضلاً جداً .. وبعضهم حقى تماماً .. وكل ما نحتاجه ان نشحذ عقولنا . بيد
انه ليس من ثمة ما نشحذها به ..

— هل الروس اشداء ؟

— البعض منهم اشداء ، بيد ان القيمة ليست كائنة في القوة بل في الحذاقة !
فانت مهما بلغت من القوة ، يبقى الحصان متفوقاً عليك في هذا الميدان .
— ولماذا حاربنا الفرنسيون ؟

— الحروب من شأن الحكومات والقيصر . وليس علينا ، نحن عامة الشعب ان ندرك مثل هذه الامور ..

بيد انني لن انسى طوال عمري ، ما اجابني به جدي عندما سألته عن نابليون بونابرت ومن يكون .. قال :

— كان رجلا شجاعاً ، وقد اراد الهيمنة على العالم بأسره حتى يتمكن من نشر المساواة فيما بينهم ، وإمكان العيش معاً . فلا نبلاء ، ولا عامة ، بل الجميع سواسية . ومهما اختلفت الاسماء سيبقى الجميع متساوين في الحقوق ..

كان معظم الوقت ، يتأملني بعينيه الواسعتين فترة طويلة ، وكأنه يشاهدني للمرة الاولى ، وهذا ما كان يزعجني كثيراً .

بيد انه لم يحدثني البتة عن ابي او عن امي ..

* * *

اثناء هذه الاحاديث كانت تدلف جدي احياناً الى الغرفة .. فتجلس على كرسي في الزاوية ، في هدوء تام ، وتركز الى الصمت فترة طويلة ، ثم تسأل ، على حين غرة ، بصوتها الناعم :

— هل تذكر ، يا ابتاه ، كم كانت تلك الايام جميلة ، يوم حججنا فيها الى ميرون لزيارة العذراء البتول ! في اي سنة حدث ذلك ؟

— لا اذكر بالضبط ، بيد ان ذلك حدث قبل الكوليرا ، في العام الذي طهروا فيه الغابات من الأولنخاريين .

— بالضبط ! فما زلت اذكر كم كنا نرهبهم !

— اجل ، اجل !

فسألت عن هؤلاء الأولنخاريين ومن يكونون ، وما الذي اجبرهم على التواري في الغابات . فأجاب جدي مشمئزاً :

— لم يكونوا سوى فلاحين عبيداً ، هربوا من العمل في المصانع والحقول .

— وكيف امروهم ؟

— هل لك ان تعرف؟ لقد كان ذلك شبيهاً بلعب الاطفال.. البعض يعدون ويختبئون ، والآخرون يسكون بهم . وبعد ان انتهى القبض عليهم جلدوا بالسياط ، وضربوا بالمحروقات ، ثم جدعوا لهم انوفهم وكووا لهم جباههم بالنار كي يشاهد الناس العقاب الذي احل بهم .

— ولماذا فعلوا ذلك ؟

— من يعلم ؟ ذلك امر غامض مبهم . ومن المسير التمييز بين الحابل والنابل من الطرفين ..

فقالت جدتي مرة ثانية :

— هل تذكر ، يا ابتاه ، ماذا جرى بعد النار العظيمة ؟

فاستوضح جدي ، وقد عقد جبينه :

— اية نار عظيمة ؟

كانا يفرقان في ذكرياتها وينسيان وجودي في هذه الاحوال ، فتدافع احاديثها موزونة منسقة حتى يخيل لي انها يشدوان أغنية شجية ، بيد انها اغنية كئيبة ، موضوعها النار ، والامراض ، والمصائب التي تنزل بالمخلوقات البشرية ، واللصوص والنبلاء المنحدرون من الطبقة الراقية ، والمشردون ..

ويدمدم جدي :

— ما اكثر ما رأينا : وشاهدنا في حياتنا !

فسألت جدتي !

— وهل كانت حياة رديئة ؟ هلا تذكر جمال ذلك الربيع الذي ولدت فيه عارفارا ؟

— كان ذلك سنة ١٨٤٨ ، عام الحملة على المجر .. وقد اقتادوا تيخون بما يوم واحد من عمالها .

فتعالت من جدتي تنهيدة ، وقالت :

— ولم يعد منذ ذلك الحين !

— أجل لم يعد ! ومنذ ذلك الحين الى الآن ورحمة الله تنزل بعيداً عنا كالماء
إذا سال على سطح مشحم . آه . إن فارقارا ..

— كفى يا ابتاه .

فاجاب محتدأ :

— لماذا كفى ؟ ان اولادنا يغدون ارذالاً رغم كل العناية التي بذلناها لهم .

لقد ذهبت جهودنا التي بذلناها ! كالبذار في ارض قاحلة ! كنا نعتقد اننا نضع
اشياءنا في مكان امين ، بيد ان الله اراد ان ينثر كل شيء من بين ايدينا .

وكن لذع بالنار ، راح يقفز في زوايا الغرفة ، يشتم ابنائه هازأ قبضته
الصغيرة العظمية في وجه جدتي ثم صرخ :

— لقد كنت تدافعين عن هؤلاء اللصوص وافسدتهم بتدليلك اياهم . انت

ابتها الساحرة ! انت ابتها الساحرة !

ورمى نفسه في زاوية من زوايا الحجرة منتحباً ضارباً صدره الفارغ بيديه ،

باكياً بصورة جد مؤثرة :

— لمَ يا ربي ؟ هل اخطائي اكثر من اخطاء الناس حتى انال هذا الجزاء

القاسي ؟

وأخذت عيناه تلتمعان سخطاً والمأ بالدموع ، واخذ جسمه يرتجف كورقة

في مهب الرياح ..

كانت جدتي تبقى قابضة في زاوية معتمة ترسم شارة الصليب ، ثم تنهض

بجذر وتمشي اليه ، وتقول معزية :

— لماذا تعذب نفسك بهذه الصورة ؟ ان الله بكل ما تأتي يداه عليم ! ..

فليس ثمة اولاد افضل من اولادك . ان الامر متشابه في كل بقعة من بقاع

الارض ، يا ابتاه .. منازعات ، خصومة .. وجميع الآباء والامهات يغسلون

خطاياهم بدموعهم السخية ، ولست الوحيد الذي ...

كان حديثها ، في بعض الاحيان ، يرد اليه الهدوء والسكون ، فيدس نفسه

في الفراش متعباً وتتابع ، انا وجدتي ، الى غرفتنا . وذات يوم دنت منه تك.
بكلما لها اللطيفة ، فاستدار حول نفسه وكال لها لطفة على وجهها . فتأيد
جدتي ، حاجبة شفيتها بيدها ، حتى إذا استعادت سكونها ، همست في صو.
أنيس :

— يا لك من أحق !

ثم تبصق الدم عند قدميه ، فيرفع يده فوق رأسه ، ويصرخ :

— إمض من هنا قبل ان اقتلك !

فاجابته جدتي ، وهي تشير ناحية الباب :

— احق .

فرمى بنفسه وراءها ، بيد انها تجاوزت العتبة ببطء ، واغلقت وراءها الباب
في وجهه . فصرخ وقد تأجج وجهه كشعلة من النار ، ممسكاً بقبضة الباب ضار
عليه بيديه :

— يا للفاجرة المعجوز !

كنت في هذه الاثناء قابلاً على ظهر الموقد ، غير مصدق عيني ، فهذه المر
الاول التي يضرب فيها جدتي وانا حاضر ، وقد تأملت من بشاعة ذلك
وادركت من خصلته تلك عن صفة جديدة ، اخذت تثقل كاهلي بصورة
تطاق .. بقي هناك متشبهاً بقبضة الباب وقد علت وجهه الزرقة ، وعلى ح
غرة اصبح في منتصف الغرفة ، ثم ارقى على ركبتيه مستنداً على ذراعه . ثم قف
واقفاً ، وضرب صدره بكلتا يديه ، وهو يصرخ :

— يا الله ! يا الله !

فاعطيت ساقى للريح ووليت الادبار ..

كانت جدتي في الطابق العلوي لا تهدأ لها ساكنة . وهي تفرر كمية م
الماء في قمها .

— هل تتألمين ؟

فمضت حيث المنسلة وبصقت فيها الماء . ثم اجابت بصراحة :
- لا ابدأ ا لقد جرحت شفتي ولم تصب اسناني بسوء .
- لماذا فعل ذلك ؟

فاجابت وهي ترفو الى النافذة .
- لقد فقد صوابه ا .. اذهب الى فراشك ، وانسى ما حدث ..
فسألها عن شيء آخر ، بيد انها صرخت بشدة غير مقصودة ، على غير
عادتها ا

- الم تسعني ؟ امض الى فراشك ا يا لك من ولد عاق ا
بقيت قرب النافذة تمص شفتها وتبصق . من حين لآخر ، في منديلها .
وبقيت قابلاً اتطلع اليها ، وانا انزع عني ثيابي ، وقد التمتعت فوق رأسها جمهرة
من النجوم في غسق الليل . وعندما تدثرت بالحاف اقتربت مني ودغدغتني
بلطف على جبيبي :
- نم في امان ، سأهبط اليه الآن .. فلا تأسف من اجلي ، ايها الحسون
الصغير ا هيا ، الى النوم ا
قبلتني وانطلقت . وتركنتي غارقاً في بحر من الامل والام . فنهضت من
السريـر ، وتوجهت حتى النافذة . حيث قبعـت أأأمل في الطريق الحأوي ، وانا
ارزح تحت وطأة من العذاب القاسي .

ومرة اخرى اصبحت الحياة غير محتملة ! ففي مساء يوم ، وقد انتهينا من تناول الشاي واخذت في قراءة المزامير بصحبة جدي ، بينما انهمكت جدتي في توضيب الصحن وغسلها ، ، إذ بالخال ياكوف يدخل الغرفة كريخ صرصر . فقد كان مشعث الشعر كعادته ، يشبه في منظره الخارجي مكنسة بالية ، والقي بقبعته في احدى زوايا الغرفة واخذ يتحدث بسرعة من غير ان يرمي السلام ، وأثناء ذلك كان يأتي بحركات غريبة همجية :

— ميخائيل غاضب ، يا ابتاه ! لقد تناول الغداء عندنا ، وشرب حتى الثمالة ، واصبح كالجنون ! فحطم الصحن ، ومزق ثوباً لأحد العمال ، وهشم النافذة ، وشتمني وجريجوري ، وهو الآن آت الى هنا . وقد حلف على النيل منك ! كان ينبج : « سأزع شعر لحيتك ! » ثم يصرخ ! « وسأقتله ! » . يجدر بك ان تأخذ حذرك منه ..

وانثنى جدي فوق الطاولة ، ونهض متحاملاً على نفسه ، وقد تشنجت عضلات وجهه ، وصرخ قائلاً .

— هل تسمعين ذلك ، يا اماء ؟ ما رأيك ، ايه ؟ يود قتل والده ! هذا الذي من لمحي ودمي ! حسناً ، لقد حان الوقت ! ايها الفتيان ..

واصلح وضعه ، ثم اخذ في الذهاب والمجيء في الغرفة ثم توجه الى الباب وانزل المزلج الثقيل . ثم قال :

- انتما تعدوان وراء مهر فارفارا الانني اعلم ذلك ، لكن اليك ما ستصيبه ..
والتفت نحو ياكوف ، وانثنى هائلاً تحت انفه توا . فتراجع هذا الاخير ،
وقال بصوت حاد :

- وما ذنبي انا ، يا ابتاه ؟

- انت ؟ انني اقمك جيداً ، انت الآخر !

لم تنبس جدي ببنت شقة ، بل اخذت ، بكل هدوء ، تضع الفناجين في
الدرج ، ثم تقفل عليها :
- لقد اتيتم احرسك !
فقمقه جدي بمكر :

ها ها ! انه جميل اعلمه ! اشكرك يا بني ! اصغي ، يا اماء ! اعطي هذا
الماكر شيئاً يلهو به ، قضيب النار او المكواة ، وانت يا ياكوف ، في اللحظة
التي يتوصل فيها اخوك الى الدخول فاعطه اياها ، على رأسي ..
فابتعد خالي في احدى الزوايا ، واضعاً يديه في جيبه .

- حسناً بما انك لا تريد ان تصدقني.

فصرخ جدي ، وهو يرفس الارض بقدمه :

- اصدقك ؟ أنت ؟ انني استطيع ان اصدق خنزير ، او هر او جرد ،
اما انت فلا : انت الذي ثاولته الشراب المسكر واهجته ، انني اعلم ذلك !
حسناً .. اما الآن ، ينبغي عليك ان تتخلص من أحد الاثنين . هبنا اخر .
واقفل أحدنا ، انا او هو !

والتفتت الي جدي ، وهمست :

- امض الى الطابق العلوي ، وراقب خالك ميخائيل من خلال النافذة ،
واعلمنا عندما تراه بسرعة ! هبنا امض الى فوق ، اسرع !
فصعدت السلم عدواً وقبعت الى النافذة ..

كنت مضطرباً بعض الشيء عندما كنت افكر بما سيفعله خالي الفاضب

عندما يصل المنزل ، بيد انني كنت فخوراً بالمسؤولية التي انيطت بي .. كانت المناظر المحيطة تبعث في السأم ، حتى غدوت لا احتمل هذه الحالة ، فاخذ صدري يغلي كالنار ، مليء بالبخار ، وقد ضاقت الاضلاع به حتى كاد ان ينفجر تحت وطئة الانتظار ..

وعلى حين غرة ، لمحت خالي يطل من خلف أحد المنازل ، وقد غطت قبعته رأسه حتى اذنيه . كان يرتدي معطفاً قصيراً ، وقد توارت إحدى يديه في جيب سرواله ، بينما راحت الأخرى تشد على لحيته بغيظ وعنف . ولم استطع تمييز ملامح وجهه ، بيد ان شكله قد اوحى لي انه قادر على القفز عبر الشارع ، واغماذ مخالبه السوداء المليئة بالشعر في بيت جدي . كان ينبغي عليّ ان اذهب واخبرهم بمجيئه ، ولكنني لم اقدر ان انتزع نفسي بعيداً عن النافذة ، بل بقيت اراقبه باهتمام وهو يقترب بجذر شديد ، يجتاز الشارع ، ومن ثم يبلغ الى أسماعي صرير باب الحانة يفتح ، ثم يلج الى الداخل .

فزلت الدرج اربعاً اربعاً وقرعت بشدة باب حجرة جدي ، فصرخ المعجوز بغيظ دون ان يفتح الباب :

- من هناك ؟ انت ؟ حسنأ هل ولج الى الحانة ؟ ماذا تقول ؟ لا بأس ارجع من حيث جئت .

- إنني مضطرب ا

- لا حيلة لي في ذلك .

فعدت ادراجي الى النافذة ... كان الظلام قد بدأ يدب بخيوطه .. واخذت الاضواء الصفراء تلتهم في النوافذ .. وكان احدهم يلشد في الحانة ، وكلما فتح الباب رن في اذني صوت منكسر منكع اعرف فيه صوت المتسول نيكيتوشكا الاعور ، وكان صرير الباب يتعالى على صوته ، فتتوارى الاغنية وكأنها اصبغت صدى ..

كانت جدتي تحسد ذلك المتسول على عيشه ، وعندما تستمع اليه يلشد تتعالى

منها تنهدة ثم تقول :

- ما اسعده على هذه النعمة ، لانه يعرف هذه الاغاني الرائعة .
وكانت تناديه احياناً الى ساحتنا ، فيقتعد عتبة الباب وقد أتكأ على عصاه
ينشد مقطوعات من الشعر، بينما تجلس جدتي بجانبه تمطره بأسئلتها الغزيرة :
- اتقصد ان تقول ان العذراء الطاهرة ظهرت في ريان ؟
فيجيبها بلهجة واثقة :
- انها في كل مكان !

ثم غرقت في بحر من الذكريات كما يفرق المرء في حلم بديع لا يبيد ان
ضجيجاً وصراخاً وأصواتاً ترد من الحانة والساحة في الاسفل قد أعادتني الى
الواقع ، فانتشيت على حافة النافذة لأشاهد جدي والحال ياكوف ، ورجلاً آخر
من عمال الحانة ، يشير منظره الضحك ، يدفعون خالي الثمل ميخائيل خارج
الحانة الى الطريق ، كان يشق طريقه متعثراً فيكيلون له اللطمات ويركلونه ،
حتى توارى اخيراً في غبار الطريق .. واغلقت البوابة واوصدت بالزلاخ ورمي
بقبعة الحال الثمل من فوق الحاجز . ثم خيم الصمت والسكون .
وبعد فترة من الزمن قضاها خالي ميخائيل مضطجعاً ، رجع فانتصب على
قدميه ، وامسك بنخجر من على الارض وذلك به البوابة ، فحدث دويماً هائلاً ،
تدافع على اثره الناس من الحسنة وقد إشرأبت أعناقهم ، كما غصت النوافذ
بالرؤوس ، وامسى الشارع يضيق بالصياح والضحك . كان ذلك مشهداً بديعاً
شبيهاً بأساطير الجنيات ، بيد انه كان مزعجاً ومرعباً في الوقت نفسه ..

وفجأة ذهب الجميع وانتهى كل شيء ، قران الهدوء ..
... وهذه جدتي قد قبعت على صندوق للثياب ، حانية الظهر ، لا
تأتي حركة ، وانا أقف مواجهتها أربت على خديها النديين الناعمين الدافئين ،
من غير ان تأخذ بالها مني على ما يظهر ، وهي تهمس بأشياء عديدة :
- رباه القدير ، اليس لديك كفاية من العقل لتوزعه علينا ، انا واولادي ؟

رباه ، صكن عطوفاً بنا ..

* * *

لم يمض على وجود جدي سنة كاملة في منزل شارع بوليفوي ، من الربيع الى الربيع . حتى اكتسبت الدار ، في تلك الفترة القصيرة ، سمعة سيئة جداً . فكان الاولاد يأتون متزاحمين ، عصر كل احد ، الى بوابة بيتنا ، فيجتمعون امامها ويشرعون بالهتاف مبتهجين فرحين :

- لا بد معركة جديدة في منزل آل كاشرين !

وفي مساء كل يوم كان الحال ميخائيل يأتي ، ويقم طوال الليل ، وقد جعل من المنزل هدفاً لحصاره ، ومن سكانه فريسة للقلق الدائم .

وفي اغلب الاحيان كان يصطحب معه مساعدين او ثلاثة ، من مستخدميهم في معمل كونا فينو ، فيتسلقون السور سوية ، ومن ثم يهبطون الى الحديقة ، حيث يطلقون لحياهم الثمل العنان ، فينتزعون جذور الفريز ، والاعصان الندية ، وكل ما يقع في متناول ايديهم . وذات مساء اندفعوا الى غرفة القسيل ، ومن ثم شرعوا في تحطيم كل ما يمكن تحطيمه ، وقد اخذوا معهم الموقد بعدما انتزعوا بلاط الارض ، وخلعوا الباب ، واخشاب النوافذ .

ويبقى جدي ملازماً للنافذة ، مكفهر الوجه ساكناً ، يرهف السمع اليهم وهم يحطمون املاكه ، اما جدتي فكانت تعدو عبر الساحة ، حيث تتوارى في العتمة فلا يصلنا منها سوى صوتها المتواصل :

- ميخائيل ! فكرفيا تفعل ، يا ميخائيل !

لم افكر مطلقاً في اللحاق بجدتي في مثل هذه الاحوال ! لقد كان ذلك مستحيلاً . بيد ان البقاء من دونها امر مخيف جداً ، فاذهب الى حجرة جدي ، الذي يصرخ في وجهي بشدة :

- اخرج من هنا أيها الشيطان !

فاعدوا الى الطابق العلوي ، اقفرس في الظلمة الداكنة حديقة بيتنا ، مركزاً

بصري على جدي، محاولاً عدم تضييعها ، واناهاها واصرخ خوفاً من أن يفنكوا بها ، بيد أنها تأبى العودة .

و ذات مساء اقعد المرض جدي ، فاضطجع في فراشه واخذ يئن بشكل يقطع نياط القلب . هازأ رأسه ذات اليمين وذات اليسار فوق الوسادة :

— اهكذا ما حييت من اجله ، وادخرت المال في سبيله ؟ لولا الفضيحة لاستدعيت الشرطة ، ونهرتها امام المحكمة . يا للفضيحة ! من سمع عن ابوين يسلمان اولادهما للشرطة ؟ لا بد لك ايها العجوز ، سوى تحمل ذلك او ان تبقى ممدداً هنا بدون حراك !

وعلى حين غرة ، القى بقدميه على الارض ، ومضى يحرق نفسه الى النافذة . فصرخت به جدي ، وقد تطلعت بذراعه :

— قف ، الى اين تضي ؟

فنهروا ، وهو يكاد يخنق :

— احضري لي شمعة !

فأشعلت جدي الشمعة واحضرتها له . فامسك بها كجندي يمسك بندقية ، فصاح ساخراً من خلال النافذة :

— تقو ، ميشكا ! ايها المخنون ! ايها الكلب الهائج ! يا سارق الليل !

وفي ذات اللحظة اذ بلوح زجاج من النافذة يتحطم ، وتقع قطعة منه على المائدة قرب جدي . فصاح جدي ب لهجة لم اقبينها إن كانت بكاء ام ضحكاً :

— لقد اخطأت الهدف !

فانتشلت جدي بين ذراعيها ، وجرته الى السرير ، وهي تدمدم بصوت مرتجف :

— ماذا تفعل بحق المسيح ؟ لو وقع شيء لكانت سيبريا بانتظاره ! اتعتقد

انه يفهم ماذا تعني سيبريا عندما يكون على هذه الحال ؟

وتمدد جدي وقد ارتجفت ساقيه ، وهو يلتحب بصوت اجش :

— ليقتلني ...

وثرامى الينا من الخارج صوت زججرة وغضب ... فأختطف قطعة الزجاج
عن المائدة . وعدوت نحو النافذة . فامسكت بي جدتي ، وشدتي نحو الزاوية ،
وهي تصيح :

— ايها المجنون الصغير !

ومرة اخرى تسلق خالي الباب الخلفي ، وأخذ يحطمه بهراوة غليظة ،
وقبع جدي ينتظره في الصالة ، يسانده اثنان من الجيران ، وقد حمل كل منها
هراوة في يده . اما جدتي فقد قبعت وراء الجميع تتوسل :
— اتركوني ابلغه .. اتركوني أقل له كلمة واحدة ..

ومنعاً لكل طارئ ، رفع جدي هراوته ، وقد وضع قدماً الى الامام ،
فامسى بذلك يشبه الفلاح حامل الرمح في لوحة «صيد الدببة» . وعندما اقتربت
منه جدتي دفعتها بقدمه ومرفقه بعيداً .. كان الجميع يقفون في وضع تأهب ،
وانتظار .. وكان ضوء القنديل الكائن فوق رؤوسهم على الحائط ينير وجوههم
بانوار الباهتة ، اما انا فقبعت في الطابق العلوي اراقب ذلك المنظر الخفيف ،
وتدفعني الرغبة في انتشال جدتي الى جانبي ، بعيداً عن ذلك المكان المرعب .
بقي خالي يضرب الباب هائجاً ، حتى تهشمت مفصلاته السفلية وتركته
يتأرجح في المفصلة العلوية التي أوشكت على الانهيار . وتوجه جدي الى مساعديه ،
قال لهم بصوب كئيب :

— اضربوه على ساقيه ويديه . واحذروا من اصابته في رأسه !

وبالقرب من الباب كانت تركت نافذة صغيرة لا تسمح لأكثر من الرأس
بالمروور من خلالها ، فحطم خالي زجاجها ، وتركها تفقر فاهماً في الظلمة الداكنة
من بين شظايا الزجاج المتكسر . فصعدت جدتي حتى بلغت تلك النافذة ، ومدت
يديها من خلالها ، وأشارت بها الى ميخائيل وهي تقول :

— ميشا بحق المسيح ، عد من حيث جئت ! انهم سيهشمون احد اعضاءك
ان بقيت هنا ! عد !

بيد انه كال لها بهراوته .. وتمكنت من مشاهدة شيء غليظ يلوح قرب

النافذة يصيب ذراعها . فاذا بها ترتمي على الارض ، وهي تصرخ من جديد :
- ميشا ! لذ بالهرب ..

ثم تكورت على نفسها ، وسكنت .

فصاح جدي ، بصوت مرعب :

- آه .. اماء !

وانبلج الباب ، وانطلق خالي داخل الغرفة ، بيد انه سرعان ما تبايل وسقط
على المتبة .

ثم نقلت جدتي الى حجرة جدي الذي لحقنا بعد قليل .

استوضح مهتا ، وقد إنثنى عليها :

- هل تحطم المعظم ؟

فأجابته ، من غير ان تفتح عينيها :

- اعتقد ذلك ! لكن ماذا فعلتم به ، ماذا فعلتم به ؟

فصرخ جدي هائجا :

- ارجعي إلى عقلك ، يا امرأة ! اتظنني وحشا ؟ لقد اوثقناه ، وهو ممدد

الآن في الاسطبل . وقد صببت سطلا من الماء على وجهه . يا لذلك الشيطان

الذي انجبته ! ترى ، من اين اثبت به ؟

فتأوهت جدتي ..

ثم اضاف جدي ، وهو يجلس على السرير بجانبها :

- لقد بعثت في طلب المجبرة . حاولي تحمل ذلك بعض الوقت . سوف

يحملان الموت الينا يا اماء ، سيرسلان بنا الى المثوى الاخير قبل ان

يحين اجلنا !

- اعطها كل شيء .

- وفارفارا ؟

بقيا مدة طويلة يتحدثان ، جدتي بلمحبتها الرزينة الكثيرة ، وجدي بلمحبه

الغاضبة .

وفي النهاية اطلت امرأة صغيرة متكورة ، بلا فمها وجهها ويصل من الاذن الى الاذن ، وقد فتح كفهم السمكة فوق فكها الاسفل المضطرب بدون انقطاع ، أما منخارها فحاد ناتئ يشطر الشفة العليا حتى يبدو للناظر اليه أنه يسعى الى الارتقاء في أحضان الجوف الفاجر شذقيه . أما عينها فقد بدت صغيرتين غائرتين يستحيل للناظر رؤيتها . ولم تكن تسير على الارض ، بل بالاحرى تزحف على الارض متكئة على عكازين ، وقد حملت في احدى يديها صرة صغيرة ينبعث منها صوت رنين غريب .

اعتقدت انها الموت يزحف باتجاه جدتي ، فعدوت نحوها وشرعت اصرخ بكل ما اوتيت من قوة :

- اخرجي من هنا !

بيد ان جدي انقشطني ، ورفعني بين ذراعيه ، وصعد حاملا بي حتى الطابق العلوي .



٧

لقد فهمت في وقت مبكر أن إله جدي يختلف اختلافاً كلياً عن إله جدتي
فكانت هذه الجدة ، عندما تنهض صباحاً ، تبقى فترة طويلة في السرير تسرح
شعرها ، فيهتز رأسها ، وتصير أسنانها ، وهي تمشط خصله الحريري الناعمة ،
السوداء الطويلة ، وتلعن بصوت هامس ، مخافة إيقاظي :

- لتحل بك الجدري .. ليأخذك الطاعون .. لتحل عليك اللعنة ..

وفي بعض الأحيان كانت تمتنع عن تسريحه فتجمعه ، من غير عناية ، في
ضفيرة واحدة ، وتسرع بالاغتسال ، وتند عنها طوال الوقت دمدمة غاضبة
ثم تعود إليها نضارتها .. ثم تقوم عمودها الفقري ، وتحرك رأسها إلى العلاء ثم
قليلاً إلى الورا . وتتأمل بعطف وجه عذراء قازان المستدير ثم ترسم شارة
الصليب باندفاع زائد وهي تهمس :

- ابتها العذراء المباركة يا أم الإله ، هبينا بركاتك في هذا اليوم الطالع ..

وتثنى حتى تلامس جبهتها الأرض ، وتنهض بعدها بهدوء ، ثم ترجع إلى
الهمس بحمية زائدة وحنان كبير :

- يا منبع السعادة والسرور ، أيها الجمال الطاهر ، يا شجرة تفاح في عز
نورها ...

كانت كل صباح تجد تعابير جديدة من المديح والعبادة ، مما جعلني اتعلق
بصلواتها . فاعبرها كل اهتمامي :

— ايها القلب الكبير الزائد الطهارة والالوهية .. يا نور نفسي ، يا شمس السماء البهية ، ويا ام الاله الحبيبة ، ويا حارسة مأواي ، انقذينا من أعمال الشيطان الرجيم ، واحميني من ان اهين احداً . او من تلقي إهائته من غير فائدة .. وتلتصع ابتسامة رقيقة في عيناها السوداوين . فيخيل اليّ انها تستعيد شبابها وفتوتها ، ثم ترسم بيدها الثقيلة وبحركة هادئة اشارة الصليب ، وتضيف :
— يا يسوع الحبيب يا ابن الله ، إرحمني انا الخاطئة بشفاعة امك الطاهرة .. كانت صلواتها ، دائماً ، تصدر عن قلب نقي طاهر ساذج . ولم تكن صلاة الصباح تستغرق وقتاً طويلاً ، اذ لا بد من القيام بأعمال البيت . وكان ان تأخرت في تقديم شاي الصباح ، يطررها جدي بوابل من اللوم والتأنيب لا ينتهي .
كان جدي في اغلب الاحيان يستيقظ قبل جدتي ، فيصعد الى الطابق العلوي حيث يجدها مستغرقة في صلواتها ، فيفرق في سكون عميق وهو يرهف السمع اليها ، وقد علت على شفتيه الصغيرتين ابتسامة احتقار ، ثم يخاطبها بعد ذلك اثناء تناول الطعام :

— كم مرة علمتك الصلاة ، اينها العجوز البلهاء ؟ ومع ذلك فأنت مصرة ، في تعنت ، على قلاوة سخافات من صنعك ! كيف يتقبل الله ذلك ؟ هذا ما يفوق إدراكي !

فتجيبه جدتي بلهجة صارمة واثقة :

— اما هو فيدرك .. ان المرء يستطيع ان يفاتحه بكل شيء وهو يدركه بكل تأكيد ..

— إنك معتومة ، هذه هي حقيقتك ! تقو !

كان الهما يرافقها طول اليوم ، حتى انها تكلم الحيوانات عنه ، وكنت احس ان جميع المخلوقات من بشر وطيور ونحل وكلاب وحتى النباتات كذلك ، تخضع لذلك الاله القدير ..

و ذات يوم تشاجر جدي مع امرأة صاحب الحان ، فأنت هذه الاخيرة في قدحها وذمها على ذكر جدتي ، واكثر من ذلك قذفتها بجزرة كبيرة . فلم تأت

جدتي شيئاً بل قالت لها :

— انك بلهاء يا سيدتي العظيمة !

بيد أنني استأت كثيراً من أفعال تلك المرأة تجاه جدتي ، واتخذت قراراً بالتأثر لها .. فبقيت فترة طويلة أفكش عن طريقة حسنة أأال بها من تلك المرأة الضخمة . وفكشت عن طريقة لم يستعملها احد من الناس ..

واستقر رأيي في النهاية على التدبير التالي : انتظرت ذات يوم امرأة صاحب الحان السمينة حتى أتت الى القبو طلباً لحاجة ما ، فأغلقت الباب خلفها واقفلته ، واخذت أرقص رقصة الثأر ، ثم رميت بالمفتاح على السقف . ومن ثم انطلقت بسرعة فائقة الى المطبخ حيث كانت جدتي تهيء الطعام . ولم تدرك اول الامر مبرر بهجتي ، حتى إذا علمت ذلك صفعني مرات عدة ، ثم نهرتني حتى الساحة طالبة مني احضار المفتاح . فأقيت به صامتاً ، مندهشاً لهذه النهاية غير المتوقعة ، ثم انطلقت الى احدى زوايا الساحة ، واخذت اراقب جدتي تطلق سراح الاسيرة التي أتت الي بصحبتهاء ، واخذتا في الضحك ، وكأنها صديقتان حميمتان . وأمسكتني جدتي من عنقي ، وجرتني حتى المطبخ ، واستوضعت :

— لماذا فعلت ذلك ؟

— الم ترمك يجرزة ؟

— آه .. لقد فعلت ذلك من اجلي ، أليس كذلك ؟ سأذكر لك ذلك ، أيها المصفور الصغير ، سأرميك تحت الموقد مع الفئران حتى تستعيد بعض الشعور ! .. لو علم جدك بذلك ، حتى سلخ لك جلدك عن قفاك ا هيا إمضِ إلى الطابق العلوي وذاكر في كتبك ..

ولم تكلمني بقية ذلك اليوم مطلقاً ، بيد أنها قبل أن تجثو للصلاة مساء ذلك اليوم ، جلست بالقرب مني على حافة سريري ، وممت في اذني كلمات لن انسها ابداً :

— أصغ ، ايها الطير الصغير ، واذكر ابداً ما سأقوله لك : لا تتدخل مطلقاً في امور الكبار ، لأنهم جماعة أشرار ، قد اجتازت العقبات والتجارب .. اما

أنت فما زلت صغيراً ضعيفاً ، وينبغي عليك ان تعيش في سنك ، وتصرف في امورك حسب ما يملكه عليك قلبك النقي حتى يجد الرب إنه حان أن يلامس قلبك ، ويقودك الى الطريق التي يجب عليك أن تسلكها .. هل فهمت ؟ إن الله يحاكم ويفرض العقاب ، وذلك ليس من شأننا ..

وركنت الى الصمت فترة ، ثم ضيقت عينها اليمنى ، و اردفت :
- وأؤكد لك أن الله نفسه يصعب عليه ، في بعض الاحيان ، تمييز البري .
من المذنب .

فسألتها مندهشاً :
- لماذا ، ألا يعلم الله كل شيء ؟
فأجابت مكتئبة :

- لو كان يعلم كل شيء ، فلا بد للناس من ان يمتنعوا عن إتيان إِمور عديدة ،
إنه كائن هناك في السماء ، يراقب اعمالنا نحن الخطاة ، وغالباً ما يذرف بعض الدموع ، وهو يتنهد ويقول : آه يا اولادي ، يا أولادي المساكين الاحباء !
كم يتألم قلبي من اجلكم !
وشرعت في البكاء بدورها ، ثم سارت ، من غير ان تحفف دموعها ، حيث بدأت بالصلاة ..
ومنذ ذلك الوقت ، أصبح الهما قريباً من قلبي وغالباً أكثر من ذي قبل ،
واقرب الى إدراكي وفهمي كذلك ..

* * *

كان جدي يلقنني في الدرس أن الله يعلم كل شيء ، ويرى كل شيء ، ويوجد في كل مكان وأنه على استعداد لتخفيف مشاكل الناس . بيد انه كان يصلي بأسلوب يختلف كثيراً عن أسلوب جدتي . فكان قبل تلاوة الصلاة في الصباح ، يغتسل بعناية فائقة ويرتدي ثيابه . ويسوي شعر رأسه ولحيته ، ثم يصلح وضع

قميصه على المرأة قبل أن يذهب للصلاة ويعقد ربطة عنقه السوداء . كان يقف دائماً في نفس المكان حتى تركت قدماه أثراً في الأرض ، ويسمر ذراعيه إلى جانبيه كالجندي ، ويبقى فترة من الوقت ساجداً في بحر من الصمت العميق . ثم ينتمم بتأثر :

— باسم الأب والابن والروح القدس !

ومن ثم يلقي برأسه إلى الوراء ، ويعقد ما بين حواجبه ، ويبداً بتلاوة صلاته بلهجة رزينة وكأنه يعيد أمثولة ينبغي أن يحفظها عن ظهر قلب ، وكان يشدد على الكلمات .

— وسينأتي يوم الحساب ، على حين غرة . وعند ذلك تتكشف أعمال البشر ...

ومن ثم يبدأ بضرب صدره بلطف ، ثم يلتبس العفو قائلاً :

— أمام وجهك وحدك أخطأت ... فاصرف وجهك عن خطاياي ... كنت أحفظ صلاة الفجر التي يتلوها ، وكذلك صلاة الغروب ، عن ظهر قلب ، لذلك كنت أصغي إليه بانتباه فائق آملاً أن يخطيء ولو مرة ، أو ينقص ولو كلمة واحدة . وقد كانت تلك الفرص نادرة جداً ، ولكنها تثير في شعوراً خبيثاً بالنصر .

وعندما ينتهي جدي من صلاته ، كان يلتفت إلينا ويلقي السلام :

— سعدتما صباحاً !

فنتحني ، ثم نأخذ أما كننا إلى المائدة ...

قلت ذات مرة ، وأنا التفت ناحيته :

— لقد اسقطت اليوم كلمة « يكفي » من صلاتك .

فاستوضح مرثاباً :

— حقاً ؟ هل انت واثق من انك لا تكذب ؟
 — نعم ! كان ينبغي أن تقول : « واجعل ايماني يكفيني لأستغني به عن كل شيء ... » فاسقطت كلمة يكفيني .
 كنت ادفع غالباً ثمن ملاحظاتي هذه . إلا انني كنت أحس بالنصر والغبطة طالما أجد جدي متضايقاً مرتبكاً .
 وذات مرة ، قالت جدي مازحة :
 — لا شك ان الاصغاء الى صلاتك امرٌ يبعث السأم بالنسبة الى الله ، يا أبتاه !
 فأنت دائماً تردد نفس العبارات .
 فيتوعد متشدقاً بكلامه :
 — م . . . ل . . . ذا ؟ بماذا تخرفين ؟
 — اقول انني لم استمع اليك مرة واحدة تخاطب الله بعبارة واحدة تابعة من صميم فؤادك .
 فاحمر وجهه ، وأخذ يصطك فوق مقعده . ويتراقص ، ثم قفز على قدميه والقى صحناً بوجهها ، واخذ يصرخ ويعبر كمنشار يقطع الزجاج :
 — اخرجي من هنا ، ايتها العجوز الماكرة !
 كان جدي ، عندما يكلمني عن قوة الله الجبارة ، يشدد في الدرجة الاولى على قسوة الله وغضبه . كان الله ، بالنسبة اليه حساماً مشهوراً دائماً ، مسلطاً فوق رؤوس الأشرار ...
 كنت اشك في احاديث جدي بالنسبة الى قسوة الله ، واعتقدت انه يحدثني بها ليس ليبعث في مخافة الله ، بل مخافته هو ...
 وذات يوم سأله بصراحة :
 — اتحدثني بهذه الاشياء لتجعلني اطيعك وحدك ؟
 — بالطبع ، ان شيئاً عظيماً سيحدث إن لم تطعني !

- لكن جدتي ...

فصرخ بحدة :

- لا تأل بالأ لتلك البلهاء . فانها طوال حياتها ، كانت جاهلة ، غبية ،
مجنونة ، وسأمنعها من ان تحدثك بهذه الأمور . اما الآن ، اجب على هذا السؤال
كم طبقة يوجد بين الملائكة ؟

فأجبته ، ثم سألته :

- ماذا تعني هذه العبارة : « فرد من الطبقة الراقية » ؟

فتنفس الصعداء ، وعض على شفته ، وزفر !

- تود أن تعلم كل شيء !

وبعد فترة قصيرة ، شرح لي ذلك ، بلهجة مترددة :

- ذلك ليس له صلة بالله ، بل هو من أمور البشر ، أفراد من الطبقة الراقية ،
انهم كموظفي الحكومة . فالموظف هو احد الذين يعيشون من القوانين ، يمشون بها
ثم يتعلمونها .

- أية قوانين ؟ وما هو القانون ؟

فرد المجوز ، وقد شمت عيناه النديتان باللذة :

- القانون ؟ على حد قولهم ، الشيء الذي يتخذه الناس عرفاً . فالناس
يعيشون في مجتمع واحد ، ويتفقون فيما بينهم على عقد اجتماعي ينظم أمورهم ،
ويتخذونه عرفاً أو قانوناً كما يسمونه . .

- والموظفون ؟

- انهم يشبهون الاولاد الأشرار الذين يخونون القانون ، مع انه اوكلت اليهم
مهمة حراسته وتطبيقه .

- لماذا ؟

فأجاب ، وهو يهذر :



جوركي مع السيدة كاترين بشكوف وولديها مكسيم
وكاتيوشكا ، سنة ١٩٠٣

— ذلك ما لا لم تستطع إدراكه الآن ؟ انك أصغر من ان تعلم هذه الأمور كلها ..

ثم يرجع إلى متابعة الدرس :

— ان الله يراقب أعمال جميع الناس . انهم يريدون شيئاً ، وهو يريد شيئاً آخر . بيد ان إرادة الانسان ضعيفة ، ويكفي ان ينفخ الله عليها حتى يذهب كل شيء مع الرياح فكأنه هباء منثورا .

بقيت مدة طويلة احتفظ بتقويم جدي الكنسي ، وقد دونت على حواشيه ملاحظات مختلفة بخط يده . ففي الصفحة المقابلة لعيد يواكيم وحنة مثلاً دون بالحر الأحمر : « تخلصنا من بلاء عظيم بفضلها » ... وانا ادرك حقيقة ذلك « البلاء » ... فقد كان جدي يتعامل بالربا سرّاً لكي يساعد ولديه اللذين اخذت اعمالهما تتدهور يوماً بعد يوم ، وكان يتلقى لقاء ذلك بعض الاشياء الغالية الثمن رهناً وضمانة ... فوشى به احدهم لدى الشرطة التي دامت الدار ذات مساء ، واخذت بتفتيشها .. وكانت الضجة كبيرة ، بيد أن كل شيء انتهى على صورة حسنة ، وقبّع جدي يصلي حتى بزوغ الفجر . وقبل تناول طعام الافطار في الصباح ، دون هذه الكلمات في هذا التقويم .

* * *

كنت قبل العشاء ، اطالع معه ، فصولاً من المزامير ، أو مقاطع من كتاب الصلوات ، أو من مجلد ضخيم من تأليف يفريم سيرين . فاذا ما انتهينا من تناول طعام العشاء ، يعود الى صلاته ثانية ، فتنبعث في سكون الليل تراقيله المتواترة النغم زمناً طويلاً :

— الله وحده وهب ، وهو وحده أخذ ... يا أيها الاله الممجّد الحي ابدأ... لا تتركنا ندخل في التجربة .. نجنا من الأشرار ..

وغالباً ، كانت جدتي ، تقاطعه قائلة :

- آه ! كم انا مرهقة ! يظهر انني سأوي الى الفراش من غير ان أتلو صلاتي
هذه الليلة .

كنت اذهب بصحبة جدي الى الكنيسة بصورة دائمة ، نهار السبت لصلاة
المغرب ، ونهار الأحد لخدمة قداس الصباح .. فأستطيع حق في الكنيسة من
تمييز الناس الى قسمين مختلفين في صلاتها ، فالكاهن والشماس يصليان لإله جدي
أما بقية المزلتون فيرفعون اصواتهم في المديح لإله جدتي .

كان التفكير في الله ، في تلك الايام ، يشكل غذاء نفسي الاساسي ، فهو
الجمال الوحيد الذي وجدته في هذه الحياة ، بينا الانطباعات الأخرى توحزنني بما
فيها من وحشية ورذيلة . فالله ، واقصد إله جدتي ، ابني وأحسن من أي شيء
آخر يحيط بي في هذه الحياة .

ومن المدهش حقاً ، وهذا ما لم استطع إدراكه ، ان يعنى جدي عن هذا
الإله الطيب القلب ...

كنت قد منعت من النزول الى الشارع لكثرة مساكن يستهويني ، وكنت
ميلاً إلى القتال ، والعصيان ، فكنت فيه محوراً للخصومات ، لذلك لم تكن
لي صداقات بل ان الجميع كانوا يناصبونني العداء . وعندما ادرکوا ان اسم
كاشرين يقيظني ، كانوا يتلذذون بإغاظتي فينادونني به عندما يلحونني من
قريب أو بعيد :

- هو ذا حفيد كاشرين ، ذلك العجوز المقتّر ، انه قادم إلينا !

- ارموه ارضاً !

وتتشب معركة حامية في تلك اللحظة ...

كنت قوي البنية بالنسبة الى عمري ، ومقاتلاً شجاعاً .. حتى ان أخصامي
كانوا يعترفون بذلك ، فلا يداهوني إلا مجتمعين ، لذلك كانوا يتغلبون عليّ
دائماً ، وأتلقى من ضرباتهم الشيء الكثير ، واعدود إلى المنزل والدم ينزف من

انفي ، وقد جرحت شفتي" ، ومرقت ثيابي .

وتتلفاني جدتي في المنزل ، مضطربة ، ينبع منها الحنان :
— ماذا ؟ أشاجرت ثانية ، ايها الجرذ الصغير ؟ سأكيل لك ضرباً لن
تنساه أبداً .

ثم تغسل لي وجهي ، واضمة بعض القطع النحاسية من العملة على جروحي ،
أو تستعمل بعض الأعشاب ، أو الأملح الخاصة ، وتبقى تدمدم طوال
الوقت :

— ما الذي يدفعك الى مشاجرة الاولاد ؟ انك طفل هادئ في البيت ،
وما ان يستقبلك الشارع حتى تنقلب عفريتاً . ألا تخجل ؟ سأعلم جدك بذلك
فيمنعك من الخروج إلى الشارع مطلقاً .

وكان جدي يلوح آثار الجروح والمشاجرة فلا يشور ، بل يقول بكل
بساطة :

— هل ارتديت أو ممتلك ثانية ؟ يا لمقاتل الشجاع ! ولكن ، إياك ان تتيح
لي مشاهدتك في الشارع مرة ثانية ، هل تسمع ؟

لم يكن عندي رغبة في الانطلاق إلى الشارع عندما يهيمن عليه الهدوء
والسكون ، بيد انه ما ان تصلي اصوات الأطفال وصياحهم حتى أنسى تهديد
جدي ووعيده ، وانطلق من المنزل بأي وسيلة كانت .

لم أكن أهتم بآثار الجروح مطلقاً ، بيد انني كنت اشمئز من الألعاب
الوحشية المسيطرة على الأطفال ، وحشية كانت تبعث في الثورة والنقمة وتشدني
الى ما يشبه الجنون . كانت تثور نغمتي عندما اشاهدهم يدفعون الكلاب والديوك
إلى المشاجرة ، أو يعذبون الهررة ، أو يطاردون المتسولين في الطرقات ، وخاصة
ذلك التقي المسكين ايجوشا ، الملقب بـ « حامل الموت في جيبه » .

كان رجلاً فارغ القامة ، نحيل العود ، غائر الوجه وقد قدلت لحيتته

وتمركزت في أسفله . محدودب الظهر ، وقد ركزت عيناه في الطريق بعناد كبير . وكان يرتدي دائماً . ستره من جلد الماعز قد تدلت بشكل يثير الضحك كنت أتاامل عينيه الحزينتين ، فأتصور ان مشاكل عديدة تشغل باله ولا يحوز بالتالي ازعاجه وعرقلة المهات الملقات على عاتقه .

كان الاولاد يعدون وراءه يرشقون ظهره المحدودب بالحجارة . بينما يبقى هو مدة طويلة من الوقت لا يعيرهم أدنى انتباه ، وكأنه لا يشعر بما يرمونه به من ضربات . حتى إذا نفذ صبره اخيراً يقف فجأة ، ويلتفت بصعوبة ، ثم يتفحص قبعته الشعثاء ، بحركات مضطربة . كان يعدو خلفهم وهو يعرج ، فيلف معطفه الطويل قدميه ويطرحة أرضاً ، وعندئذ يطره الاطفال بوابل من الحجارة ..

بيد ان أشد المشاهد في الشارع وخزاً وإيلاماً ، بالنسبة إليّ ، كانت مشاهدة رئيس عمالنا السابق جريجوري ايفانوفيتش الذي كف بصره تماماً ، وأمسى يمضي أيامه متجولاً في طرقات البلدة يستجدي الناس . كان بهي الطلعة ، نحيل العود ، تقوده امرأة صغيرة الجسم ، هرمة ، قد شاب منها الشعر ، تستوقفه تحت كل نافذة ، ثم تنادي بصوت رفيع ، وقد وجعت انظارها :

— ساعدوا المتسول الضريد ، حياً بالمسيح !

أما جريجوري فياوذ بالصمت ، فيما تلتفت نظاراته السوداء الى جدران المنازل أو النوافذ مبات ، وتسرح يده الملوثة ببقايا الصباغ تدغدغ لحيته الكثة . بينما تبقى شفتاه مطبقتين بإحكام .

كنت التقيه مراراً ، بيد انني لم اسمع ابداً كلمة واحدة تنبعث من بين تلك الشفتين المطبقتين بإحكام دائماً ، فأتألم لذلك الصمت الرهيب الطويل . وكنت عندما ألحه لا أذهب اليه ، بل انطلق أعدو حتى ابلغ المنزل وأعلم جدتي :

— جريجوري في طريقه الينا .

فتقول ، وقد انتابها اضطراب حزين :

- آه ، صحيح ، انطلق وناوله هذه !

فأرفض بشدة ، وعند ذلك تسير جدتي الى البوابة بنفسها ، وتقف هناك
تكلمه مدة طويلة . كان يضحك ، وهو يلامس لحيته ، لكن من غير ان
يتفوه بكلمة واحدة . وفي غالب الأحيان كانت جدتي تدعوه الى المطبخ ، فتناولوه
الطعام وتقدم له الشاي . وذات مرة سألها عني ، فنادتني ، يسد انني لذت
بالهرب وتواريت بين أكوام الحشب . لم اكن أقدر على لقائه ، إذ كنت أحس
بالخجل تجاهه . وادرك ان جدتي تحس نفس الشيء كذلك . وقد تكلمنا عنه ؛
انا وجدتي ، ذات مرة . بعد ان اصطحبته حتى البوابة ورجعت الى الساحة ببطء ،
حانية الرأس تنهمر الدموع من مقلتيها ... فسرت نحوها واخذت بيدها ،
فسألتنني بهدوء :

- لماذا تهرب منه دائماً ؟ انه يحبك كثيراً ، وهو رجل طيب ..

- لماذا لا يقوته جدي ؟

فأثنت عن المسير ، وشدتني اليها وهمست بلمحة تنبؤية :

- اذكر هذه العبارة : سيعاقبنا الله عقاباً صارماً على سلوكنا مع هذا الرجل !
عقاباً قاسياً جداً !

لم تكن مخطئة فيما تنبأت به ، فلم يمض اكثر من عشرة أعوام على ذلك ،
حتى كانت جدتي ترقد في مثواها الأخير ، وأصبح جدي شقياً معتوها ،
يستجدي في شوارع المدينة ، من تحت النوافذ قوتاً يسد به رمقه :

- ايتها العائلة الطيبة ، جودي عليّ ببيع اللحم - قطعة صغيرة فقط .

تفو ! تبأ لهم من قوم !

كانت عباراته القاسية : « تفو ! تبأ لهم من قوم ! » الشيء الوحيد الذي
تبقي له من الماضي ...

كان في بيتنا أشياء عديدة تثير الاهتمام ، وأشياء أخرى يفتح لها الفؤاد .
بيد ان إحساساً من الكتابة كان يطغى عليّ في بعض الأحيان كعبء ثقيل يرهق
عائقي ، فيخيل إليّ وكأنني أغرق في قاع سحيق شديد الظلمة ، وقد فقدت
شعوري ، وفقدت السمع والبصر ، أغرق ، شبه واعٍ ، في الهاوية التي لا تعرف
قراراً .

★ ★

٨

وعلى حين غرة ، باع جدي المنزل ، إلى صاحب الحان ، واشترى بيتاً آخر في شارع كانا تانيا . كان الهدوء والسكون يسيطران على هذا الشارع الذي غطي بالعشب ، وينتهي الى حقول فسيحة ، وقد ركنت على جانبيه منازل صغيرة ذات ألوان زاهية .

كان منزلنا الجديد يضيف بهجة وسرورا ، وقد دهنت واجهته بلون احمر داكن . أما ساحته والحديقة فقد ملأت بعدد كبير من الفسحات الهادئة ، وقد ارتحت لها ، لأنها قد ازدانت بشجيرات قتية ، كثيفة ، وجميلة قد تعانقت . وتركن حجرة الغسيل في إحدى زواياها ...

كانت الدار تصخب باناس كثر لم يقع عليهم بصري من ذي قبل ابداً ، فالجناح الامامي يسكنه ضابط تقري المولد مع زوجته الصغيرة . وكانت هذه المرأة لا تكف ، منذ بزوغ الفجر حتى المساء ، عن الضحك ، والصياح ، والعزف على قيثارة قد وشحت بالوان عديدة . وتشرع في الغناء ، بصوت حاد ...

وكان يسكن ، في جناح صغير قد اشيد فوق المخزن والاسطبل ، رجلان يمتهنان سوق العربات ، كان أحدهم اشيباً ، ينادونه بالعم بيوتر ، أما الثاني ، وكان ابن اخيه ويدعى سنيوبا ، أطرش أبكم ، هادىء الطبع ، وكان يشار كهما في المسكن رجل تقري شاحب الوجه ، أنيق الملبس ، يدعى فالي .

كان هؤلاء الناس غرباء بالنسبة اليّ، وهذا ما اتاح لي فرصة جديدة لمغامرات عديدة . أما الشخص الذي كان له عندي حظوة ، هو ساكن الحجره التي تجاور المطبخ ، حجرة واسعة طويلة لها نافذتين تطل إحداها على الحديقة والثانية على الساحة .

كان ذلك المستأجر منطوياً على نفسه ، هادئاً ، منحني الجسم ، طويل القامة ، تتقدم وجهه نظارتان كبيرتان . وكان كلما دعواته الى العشاء أو الشاي يجب قائلاً :

— هذا بديع !

ومنذ ذلك الوقت اخذت جدتي تطلق عليه في غيابه « هذا بديع » و احياناً في حضوره فتقول :

— انطلق يا الكسي ، واعلم « هذا بديع » ان يأتي لتناول الشاي !

وكانت تقول ايضاً :

— تناول شيئاً آخر يا « هذا بديع » فانت لم تاكل كفايتك .

كانت حجرتة تغص بالكتب الفخمة والصناديق ، وقد توزعت في جميع أرجاء غرفته زجاجات من السوائل ، مختلفة الألوان ، وقطعاً صغيرة من الرصاص والحديد ، ومساطر من النحاس لا حصر لها . كان دائماً يلبس معطفاً بني اللون من الجلد ، وقفازين رماديين ، قد لطخا بالدهان ويمضي النهار بطوله ، منذ الصباح حتى المساء يصهر المعادن ، ويلحم البعض ويصرخ من حين لآخر إذ يحرق أصابعه ، ومن ثم يأخذ في مشاهدة بعض الأشكال الهندسية الكائنة على الحائط ، فيمسح نظارته ويأخذ بفحصها عن كثب بحيث تلامس انفه ... وعلى حين غرة كان يقف في وسط الغرفة أو يجانب النافذة ، ويبقى فترة طويلة بهذا الشكل . وقد اغلق عينيه ، وحنى رأسه ، هادئاً ، لا يأتي حركة ... وذات مرة ، تسلفت السطح وشرعت أراقبه من خلال النافذة المفتوحة ...

كنت قادراً على مشاهدة اللهب الأزرق يتصاعد من فتيل مصباح الكحول الكائن فوق الطاولة ، وقد انكب الرجل بقامته فوقه . أو لاحظته يدون أشياء عدة في دفتر ممزق ، وقد التمعت نظاراته في ضوء اللهب الأزرق ببرود وكأنها قطعتان من الجليد .

كنت أبقي ساعات عديدة مسمراً إلى السطح مندهشاً لتحمله هذا العناء . . . فأحياناً يقف الى النافذة ، ويداه وراء ظهره ، يتطلع تَوّاً إلى السطح من غير ان يشاهدني ، ثم يقفز فجأة باتجاه طاولته ، وينحني فوقها منقباً بين الأشياء المتراكمة فوقها .

كان سكان المنزل يكرهون « هذا بديع » ويتكلمون عنه بسخرية زائدة ، فامرأة الضابط اللعوب تدعوه « صاحب الأنف الطباشوري » . والمم يوتو يطلق عليه اسم « الكيائي الساحر » . أما جدي فكان يلقبه : « الصيدلي بائع السحر الأسود » .

سألت جدي :

— ماذا يفعل « هذا بديع » ؟

فاجابت بغلاظة :

— هذا ليس من شأنك . يجب ان تعلم متى ينبغي ان تحتفظ بفمك مقفلاً .

و ذات يوم ، استجمعت كل ما أملك من شجاعة وانطلقت الى نافذته . . .
سالته . محارلاً إخفاء انفعالي بصعوبة :

— ماذا تفعل ؟

فوجيء . وهو يشخص إليّ من فوق نظارتيه . وأعطاني يده المحترقة المليئة جروحاً وندوباً . ثم قال :

— تعال . اصعد الى هنا !

والحقيقة انه بساحه لي الدخول من النافذة بدلاً من الباب قد زاد من قدره

عندي ، واحترامي له . تهاوى على صندوق في إحدى الزايا ، ودعاني للجلوس
قبالته ، واخيراً سألني :

- من أين أتيت ؟

لقد أثار سؤاله دهشني ، فأنا أجلس بجانبه الى الطاولة في المطبخ اربع مرات
كل يوم ، فأجبتني :

- إلى حفيد كاشرين .

- آه ، أجل !

ثم لاذ بصمت عميق ، وهو يتأمل إحدى أصابعه ...

وجدت انه من الواجب ان اوضح له الأمر ، فقلت :

- بيد انني لست من عائلة كاشرين ، انني من آل بشكوف . الكسي بشكوف .

فردد ، بلهجة شديدة النبرة :

- بشكوف ! الكسي بشكوف ؟ هذا بديع !

ونفض ، دافعاً بي عنه ، مسرعاً الى الطاولة قائلاً بلهجة أمرية :

- حسنًا ! اجلس ، وإياك ان تأتي ضجة .

قبعث هناك فترة طويلة جداً ، اراقبه وقد وضع قطعة من النحاس بسين
فكي مازمة صغيرة ، ثم يبدأ ببردها ، وعندما انتهى من ذلك جمع الفتات الذهبي
على لوحة ثم صب في بوتقة كثيفة . ثم أضاف إليها بعضاً من مسحوق أبيض
كالملح تناولوه من إحدى الزجاجات . وفي النهاية أتى بزجاجة سوداء اللون وسكب
منها على المزيج . فاخذت هذه الأشياء تغلي . وتنفث الدخان . وتتصاعد منها
رائحة حادة أجبرتني على السعال .

استوضع الساحر مبتهجاً :

- هل هي رائحة رديئة ؟

- أجل

- آه ! هذا بديع يا اخي . هذا بديع جداً !

حاولت أن أجد مبرراً للغبطة . فلم أستطع ...

قلت بحدة :

- ما دامت رائحة رديئة . من المستحيل أن تكون بديعة !

فصرخ . فاركأ عينيه :

- أحقاً ما تقول ؟ حسناً . ليس ما تقوله يا أخي صحيحاً ! أنجب اللعب بالكعاب .

- أجل !

- أتريد أن أصنع لك كعبا من الرصاص ؟ ولن يستطيع أن يغلبك به أحد !

- طبعاً أريد ذلك :

- ناولني كعبك إذن !

وحمل البوتقة في يده . واتجه نحوي . ثم كلمني متطلعاً إليّ بعين واحدة :

- هل تعذني إذا صهرت كعباً لك . ألا تعود إلى هنا مرة ثانية ؟

فصدمت لذلك ... وقلت :

- لست بحاجة إلى ذلك كيلاً أرجع إلى هنا !

ثم خرجت إلى الحديقة كثيباً غاضباً ...

كان جدي منشغلاً في تسوية الأرض حول جذوع أشجار التفاح . كان الوقت خريفاً ومنذ وقت بعيد وأوراق الأشجار تتساقط .

اعطاني جدي القص . وقال :

- خذ . شذب اشجار توت العليق .

فسألته :

ما الذي يفعله « هذا بديع » ؟

فأجاب مغتاضاً :

— انه يخلط ، فهو يتناف الحجرة ، ويحرق البلاط ، ويوسخ الجدران ، حتى انه قد أكلف جزءاً كبيراً من الورق الملصق عليها ، سألته بضرورة إخلاء الحجرة نهائياً في أقرب فرصة ...

— إنك تفعل حسناً !

فوافقت معه ، وأنا أشذب أطراف ثوب العليق :

بيد انني تسرعت في قولي هذا .

* * *

في الليالي الماطرة ، وعندما يخرج جدي الى بعض اعماله ، كانت جدتي تقيم في المطبخ حفلات رائعة .. فتدعو جميع الجيران ، بما فيهم السائقين والجندي ، وامراته المرحه ، وبتروفنا السمينه . أما « هذا بديع » فكان دائماً يركن في الزاوية بجانب الموقد ، حيث يقبع جامداً لا يأتي حركة ، بينما يأخذ الأبكم الأصم سديبوا بلعب الورق مع فالي التتري ، الذي يكيل له بين الحين والآخر على أنفه المفرطح ويصرخ :

— انت ، ايها العفريت المعجوز !

وكان العم بيوتر يحمل معه دائماً رغيفاً ، وجاط مليء بمربى التوت ، فيأخذ المربى ويصبه بكثرة على الخبز ، ثم يحمل تلك القطعة من الخبز على كفه مقدماً إياها للضيوف ، وهو ينحني الخنساء خفيفة ، قائلاً :

— هل تفضلتم وأخذتم شيئاً من هذا ؟

وكانت بتروفنا الجميلة تحضر معها بعضاً من السوائل الكحولية بينما تحضر الجارة الصغيرة اللعوب بعضاً من قطع سكر النبات ، والجوز ، وعند ذلك تبدأ وليعة حقيقية بإشراف جدتي التي تنضح بالفرح والغبطة .

لقد اقامت جدتي إحدى هذه الحفلات بعد مدة قصيرة من محاولة « هذا بديع » رشوتي كي ابتعد عن حجرته . كانت الريح تهب صاحبة ، وأمطار الخريف الحزينة تمارك الأرض بشدة ، والأشجار تتراقص ضاربة جدران

المنازل باغصانها ... كان الجو في المطبخ حاراً يبعث الدفء ، وقد تجمع القوم الى بعضهم بعضاً ، وقد علت القبضة اساريرهم ، وتأخذ جدتي في سرد أقاصيصها بشكل يسترعي الانتباه ...

... وما ان تنتهي جدتي من سرد اقاصيصها حتى يقفز «هذا بديع» ويتعالى صراخه ، ويأخذ في الدوران على ارض المطبخ وقد شرع ذراعيه ، وهو يصرخ :

— هذا بديع ! بديع جداً ... انه صحيح جداً ... وروسي بحت ! وادرك الجميع انه يبكي : فقد انهمرت الدموع من مقلتيه وانسابت فوق وجنتيه ، وكان من المدهش والمؤثر معاً ، مشهد هذا الرجل وهو يعدو في المطبخ بشكل يثير الضحك ... كان العم بيوتر يفرق في الضحك ، بينما لاذ الجميع بالصمت وقد اعترتهم الدهشة .

وفجأة ، توقف في وسط المطبخ وشرع يتحدث بنبرة عالية ، مشيراً بذراعه الأيمن ، وقد بقي يتكلم بحماسة وقتاً طويلاً ، ثم عنه بين الحين والآخر تنهدة عميقة ، ثم يضرب الارض بقدميه . وقد لاحظت انه ردد مرات عدة هذه العبارات !

— كلا ! كلا ! تلك جريمة لا تغتفر أن يعيش الانسان بوحي من ضمير غيره !

وفجأة ، تلاشى صوته ، والقي نظرة عجيلى على المحتفين به ، ثم انجه خارجاً مطأطأ الرأس . فتطلع الجمع بعضهم ببعض بقلق واستياء ، بينما انزوت جدتي بقرب الموقد حيث سمعتها تتنهد بحسرة ..

قالت بتروفا ، وقد علتها الدهشة ممسكة بيدها شفتها الحمراء :

— كأنه غضب ؟

فأجاب العم بيوتر :

- كلا ! انها طريقته بكل بساطة !
ثم اردف العم بيوتر يهدوء :
- ان المثقفين والنبله ، هكذا دائماً غريبو الأطوار !
وأضاف قالي :
- كل هذه التفاهات ، مردها الحياة الانعزالية ، وحياة العزوبة .
فقهه الجميع ...
لم يعد الجو في المطبخ يحتمل . وقد طمس الحزن قلبي . فقد ادهشني « هذا
بديع » . واشفت عليه وتأملت له وحتى الآن . لم تنل عيناه الدامعتان ، محفوظتين
في ذاكرتي .
امضى الليل خارج الدار ، ثم عاد بعد ظهر اليوم التالي . كان يبدو تعباً .
مشغول البال ، مكسور الحاطر ...
قال لجديتي بلهجة صيدانية بحتة :
- لقد ارتكبت حماقة مساء البارحة ، هل انت غاضبة ؟
- ولم الغضب ؟
- لأنني ورطت نفسي فيما لا يعنيني ، وتفوهت بعدة حماقات .
- انك لم تنل من شعور احد .
ادركت ان جدتي ترهبه ، فهي لا تتطلع اليه ، ولا تكلمه كما دت هافي
السابق .
ودنى منها ، وقال بصراحة :
- تعلمين انني أقطن بمفردي ، وليس لي من أنيس في العالم ... وعندما
يبقى الانسان وحيداً هكذا . لا ئذا بالصمت . فلا بد ان تأتيه فرصة ينفس بها
عما تراكم في أعماق نفسه . فينفجر . انه في مثل تلك الحالة . يكلم الجلود .
والاشجار ...
وسألته جدتي وهي تذهب بعيداً :
- لماذا لا تزوج ؟
فصاح مشيراً بيده !
- آه !
ثم مضى مكتئب الوجه ...

رافقته جدتي بنظراتها وهو يتوارى ، ثم التفتت إلي قائلة

— لا تتبعه البتة . فالله أعلم ما يمكن ان يؤتبه هذا المرء .

بيد ان شيئاً خفياً كان يشدني اليه باستمرار ...

لقد لاحظت التغير الذي علا وجهه وهو يقول : إنني أقطن بمفردي ، فكان

بمبارقته تلك شيء ادر كته جيداً ولا مس مني شغاف القلب ، فذهبت

لرؤيته .

تأملت في نافذة حجراته فقد كانت خالية منه ، وقد غصت بأشياء غريبة

عديمة الفائدة . قد تركت بشكل عديم الترتيب . كصاحبها تماماً . فمضيت الى

الحديقة حيث رأيته جالساً على خشبة ترك الحريق فيها أثراً . واضعاً رأسه بين

يديه محدودب الظهر . يرتكز مرفقاه على ركبتيه ... بيد ان هذه الجلسة لم

تكن تبعث الراحة فيه . مما جعلني أشعر بمزيد من الحزن والكآبة . شدي نحو

ذلك الرجل بقوة اكبر ...

بقي مدة طويلة يتطلع إلي بعينين غائرتين . لكن من غير ان يراني فيما يبدو

ثم سأل فجأة في شبه ملل :

— هل أتيت في طلي ؟

— لا !

— ماذا تريد اذن ؟

— لا شيء على وجه التحديد !

ثم نزع نظارتيه ومسحها بمنديله الملوث ببقع حمراء وسوداء . ثم قال :

— اقرب واجلس هنا .

وعندما جلست بقربه . ضمنني اليه قائلاً :

— اجلس هنا ! سنجلس من غير ان نتكلم ، ما رأيك ؟ هكذا . . انك

فعلاً لفتني عنيد !

— أجل !

— هذا بديع !

ثم مضى مكثت الوجه ...

رافقته جدتي بنظراتها وهو يتوارى ، ثم التفتت إلي قائلة :

— لا تتبعه البتة ، فالله عالم ما يمكن أن يؤتبه هذا المرء .

وبقينا هناك ، فترة طويلة ، دون أن ننبس بكلمة واحدة ... كان المساء لطيفاً هادئاً ، من تلك الامسيات الصيفية المملة الكثيبة ، عندما تذوي الزهور والارض ترشح برائحة الحريف الرطبة ، والهواء يمضي مـذعوراً ، وتوابب الطيور في الأجواء تاركة افكاراً حائرة . كان كل ما يحيط بنا هادئاً ، حتى ان حفيف اوراق الاشجار ، تهمس بصوت يبعث على الالتفات والتطلع مستفهماً ، ثم يعود كل شيء فيغرق مرة أخرى في سكون عميق ...

كانت تلك الجلسة الحاملة تستدعي الافكار النقية ، بيد انها شغافة كنسيج العنكبوت ، يصعب على الانسان تركيزها في فكرة ما ... في تلك الجلسة تتكون الشخصية وتتقوّل في نموذج أبدي ...

كان جليسي ، بين الحين والآخر ، يتنفس الصعداء ، ويقول :
— هذا بديع ، اليس كذلك؟ بديع ، بيد ان الطقس رطب ، اليس صحيحاً؟
ألا تشعر بالبرد ؟

وعندما القى الظلام وشاحه ، وتوارى كل شيء في الظلمة ، قال :
— حسناً ، اظن ان ذلك يكفي ، لنعد . هيا بنا ...
وفجأة ، عند باو غنا البوابة ، توقف قليلاً :

— ان جدتك امرأة بديعة ... يا لها من حياة !
ثم اغمض عينيه ، وتابع بهدوء وقد علت ابتسامة بحياه :
— ذلك كان جزاءه ، لأنه بلغ الإدرك من الشر ، وسخر نفسه لضمير
سواه !

ثم تقدمني نحو البوابة ، موجهاً كلامه لي :
— تذكر ذلك ، يا فتى ، اتجيد القراءة والكتابة ؟
— كلا !
— تعلم ذلك ، وعندما تتقن الكتابة دون قصص جدتك ، انها بديعة .

لقد أمسينا صديقين حيمين ... فأخذت في زيارة « هذا بديع » منذ ذلك اليوم ، كلما أجد رغبة لذلك ، فأقبح على صندوق مليء بالأقمشة ، أرنو اليسه مفتبطاً ، وهو يصهر المادان ، فاذا ما بلغ درجة من الاحرار أخذ في تقويمه في صفائح رقيقة ، على سندان صغير ، مستعملاً مطرقة صغيرة ذات مقبض بديع . وكان يستعمل أيضاً مبردأ ومناشير ، ويمزج بعض السوائل في وعاء صيني ، فيعقب جو الغرفة برائحة حادة ، ثم يشرح في تصفح كتاب ضخمة ويدمدم ماصاً شفتيه ثم تند عنه تنهدة :

— آه يا زهرة شارون ...

— ماذا تفعل ؟

— عملاً هاماً . يا اخي .

— وما هو ؟

— سنشاهده ، لأنني لا أستطيع شرحه لك الآن حتى تدركه ...

— سمعت جدي يقول بأنك تزور العملة .

— بجدك ؟ تلك سفسطة ! فالمال ، يا اخي ، لا يستأهل كل ذلك التعب .

— اذن ، فمن اين تدفع ثمن الخبز ؟

— هذا صحيح . إذ لا نستطيع ان نشترى خبزاً من غير مال .

— ارأيت ؟ واللحم ايضاً ...

— آه ! واللحم كذلك !

وندت عنه ضحكة بسيطة ، اثارت الغبطة في نفسي ، ثم دعك اذني مازحاً ، وأردف :

— انني غير قادر على مناقشتك ، فأنت تورطني دائماً في حديث لا أستطيع إلهامك إياه . والأجدر ان نتوقف عن الكلام .

كان يتوقف ، هو بين الفينة والفينة ، عن العمل ، ويأتي النافذة يتطلع من

خلالها الى اشجار التفاح العارية ، والمطر ينزل مداراً مغطياً الاعشاب . و
« هذا بديع » مقترأ في حديثه ، فهو لا يقول إلا العبارات الضرورية ،
تظهر لي ابدأ ، وكأنها عين الحقيقة . واذا أحب ان يلفت نظري إلى شيء ما
لكزني بمرفقه ، مشيراً الى ذلك الشيء بغمزة من عينه ...

لم اكن اشاهد شيئاً يسترعي الانتباه في ساحتنا . بيد ان تلك اللكزات
وما يصحبها من كلمات متناغمة ، كانت تضيء على كل شيء مما أشاهده مع
خاصاً يرسخ في أعماق مخيلتي . فهذا فالى الأعرج يشق طريقه وسط الساء
كجواد عجوز ، وقد ارتفع رأسه شزراً يتطلع الى السماء ، فتنعكس عليه أش
الشمس الخريفية ، وتضيء ازرار معطفه النحاسية ، فيتوقف التتري عن الس
ويدس تلك الازرار بأصابعه المرتجفة ، فيقول صاحبي :

— انه يتأمل ازرارهِ وكأنها أوسمة علقَت على صدرهِ !

وسرعان ما ادركت ان تعلقِي بـ « هذا بديع » يرسخ في نفسي ويزداد
قوة . وأمست غير قادر على فراقهِ ، فقد كان يقاسمني أفراحي وأتراحي
وعلى الرغم من طبيعته الهادئة وحبه السكون ، فقد كان لا يمنني من التحدث
في أية لحظة ، عما يجيش في نفسي من أفكار . على عكس جدي الذي ينهرني
كلما انفرجت شفتاي بقوله .

— كفى ثثرة ، أيها الطاحونة !

اما جدتي فلها افكارها وأحاسيسها الخاصة ، فهي لا تعير أدنى انتباه
لأفكار الآخرين .

بيد ان « هذا بديع » كان يصغي إليّ بانتباه زائد . وفي أغلب الأحيان
كان يقول مبتسماً :

— لكن هذا غير صحيح ، يا اخي ! انك تروي ذلك من مخيلتك ...
كانت ملاحظاته المقتضبة بمعنىاً ، تقع في محلها .. فأتصور انه يغوص إلى

أعماق نفسي ويرى ما في قلبي وعقلي ، ويدرك الأشياء الكاذبة التي تخنم في رأسي قبل أن تنطقها شفتي ويقطع نقاشاً لا جدوى منه قبل أن يتأصل بكلمات لطيفة :

- أنت تكذب ، يا أخي !

وفي بعض الأحيان كنت أمتحن حدسه عن سابق تعمد ، فاخترت الروايات والاساطير وأقولها على أنها حقيقة واقعية . بيد انه يرهف السمع إليّ فترة ، ثم يهز رأسه قائلاً :

- أنت تكذب ، يا أخي !

- وكيف أدركت ذلك ؟

- آه اني أعلم ذلك جيداً !

غالباً ما كانت جدتي تصحبني معها ، لنحضر الماء من مضخة ساحة سينايا . وذات يوم شاهدنا خمسة من أهل المدينة قد إنهالوا ضرباً بفلاح مسكين ، وقد القوا به أرضاً ، ثم إندفعوا نحوه كعصبة من الكلاب الشرسة . فأخذت جدتي الدلو وامسكته من خشبته كالعصاة . واندفعت نحو البورجوازيين وهي تصرخ بي :

- إمض من هنا !

كنت وجلاً ، فأسرعت وأنا أعدو خلفها .. رامياً الأعداء بالحجارة ، بينما انهالت جدتي عليهم بالهراوة بشجاعة فائقة ، وشاركها المعركة بعض الناس ، فولى البورجوازيون الأدبار ، وعند ذلك استدارت جدتي نحو الفلاح وشرعت في غسل وجهه المثخن بالجراح . وما زالت فرائصي ترتعد خوفاً ، حتى اليوم ، كلما تذكرت مشهد الفلاح وهو يضغط على أنفه الممزق ، والدماء تنهمر بغزارة من أصابعه على وجهه وصدره .

وعدوت إلى حجرة المستأجر ، عندما بلغنا الدار ، أروي له ما وقع لنا

اليوم، فتوقف عن العمل قبالي، وقد حل مبرداً طويلاً يرهف السمع إلى حديثي.
ثم تأملني بقسوة من تحت نظارتيه، وقاطعني على حين غرة قائلاً . مشدداً على
كلماته بصورة غير معتادة !
- بديع ، هذا ما وقع تماماً ! حسناً !

كنت ما أزال مضطرباً ، متأثراً بما شاهدت ، فاردفت في كلامي من غير ان
اعيره أدنى أنقباه . بيد انه طوقني بذراعه ، وشرع بذرع الحجرة ذهاباً وإياباً،
وهو يقاطعني ثانية ، ويقول معاتباً وموبخاً :

- كفى ! كفى ! لقد قلت ما يجب أن يقال ! هل سمعت ؟ هذا كفاية !
فتوقفت عن متابعة حديثي .. وقد تأملت لأول وهلة ، ولكنني ، عندما
تأملت جيداً ، ادركت في دهشة فائقة أنه قد اوقفني حيث يجب أن اقف ..
كنت في الحقيقة قد رويت كل شيء ..
قال :

- حاول أن لا تتذكر ذلك . وينبغي أن لا تهتم لهذه الاشياء ، فهذا
أفضل لك .

كان أهل دارنا يكونون ! « هذا بديع ، كراهية تزداد يوماً بعد يوم ، حتى
أن مرة الشابة التي تجلس في حجر الجميع من غير تفريق ، أخذت تستلثبه ،
غير ملبية ندائه اللطيف ، وقد إغتظت لذلك ، فعاقبتها بشدة أذنيها ، وشرعت
محاولاً إقناعها بالأتخاف من صاحبي . بيد أنه كان يحذ لها الاعذار ، فيقول لي :

- لا عليك ! إن رائحة ثيابي العابقة بالحوامض ، تثنيها عن ذلك .
بيد أنني كنت على يقين من أن لكل فرد من سكان الدار ، بما فيهم جدتي ،
له الاسباب الخاصة التي تدفعه لمناسبة « هذا بديع ، العداء الشديد ، وكنت
أجد في ذلك خطأ فادحاً يبعث في احزاناً لا تحتمل .
سألنتني جدتي محتدة :

- لماذا تلف حوله دائماً ؟ إحدرك منه ! فالله وحده عالم بما سيلقنك إياه .
اما جدي ، قمة الشر ، فكان يجلدني يوحشية عندما يعلم أنني ذهبت إلى
ذلك المستأجر ، ومن الطبيعي أنني لم أكن اطلع « هذا بديع » على ما أصابني
من جزاء كلما عصيت امر الامتناع عن زيارته ، بيد أنني قلت له بصراحة رأي
القوم فيه :

- ان جدتي ترهبك . وهي تدعي أنك تعمل بالسحر الاسود ، وهذا رأي
جدي كذلك ، فهو يدعي أنك عدو الله ، ومن الخطر على الناس ان يتعاطوا
معك .

فيهز رأسه . وتقفز ابتسامة شاحبة على محياه . ينقطر لها قلبي فيرد بهدوء .
- إمتني أرى ذلك ، يا اخي ، هذا شيء مؤسف ! اليس كذلك ؟
- أجل .

- مؤسف جداً ، يا اخي .
وفي النهاية ، اخلاوا البيت منه .
وذات صباح ، وبعد تناول طعام الافطار ، شاهدته مترعباً على الارض
يشد امتعته وكتبه وحقائبه في صناديقه ، وهو يدمدم بلحن زهرة شارون ..
وما انت أبصرني حتى قال :
- حسناً ! الوداع يا صاحبي ، فانا راحل .
- ولماذا ؟

فتأملني فترة بدقة ، ثم اجاب :
- الا تدري السبب ؟ إنهم بحاجة إلى هذه الحجرة من اجل والدتك .
- ومن قال هذا ؟
- جدك .
- لقد كذب !

فشدني « هذا رائع » اليه بحنان ثم همس بصوت هاديء . بينما كنت أفتعد
الارض بالقرب منه :
- لا تحزن ! اعتقدت انك على علم بتلك المكائد ، وانك تخفيها عني ، لذلك
كلمتك عنها ، يا اخي ، ولست اود ذلك على أي حال .

كنت اشعر بضيق يخنقني ، واحس بالنقمة ، من غير ان ادري السبب ..
ابكسم وهو يقول بصوت هامس :
- صه ، اسمع .. هل تذكر منعي إياك من زيارتي ؟
- أجل
- لقد جرححت شعورك حينذاك ، اليس كذلك ؟
- أجل !

- انني لم اقصد ذلك ، بيد انني علمت انهم سيماقبونك إذا ما غدونا
صديقين ، فأجبت أن أجنبك عناء ذلك ..
وشرع يتحدثني كأننا أصدقاء سن واحدة . كانت عباراته تغممني بالغبطة
والسمادة . فيخيل اليّ أنني أعرفه ، منذ زمن طويل ، كل ما يريد أن يطلعي
عليه . فقلت :
- لقد ادركت ذلك من زمن طويل .

- حسناً ! اعتقد ان ذلك افضل ، يا اخي !
وشمرت بالام يعتصر قلبي . فسألته :
- لماذا لا يحبك أحد ؟
فغممني بلطف ، وهو ينظر بعيداً :
- لأنني غريب ، هل تدرك هذا ؟ هذا كل شيء ! إنني غريب !
فتشبثت بكنتفه من غير أن ادري ما اقول أو افعل .
فأردف :

— لا تحزن :

ثم قال هامساً :

— وكذلك لا تبك .

بيد أن الدموع إنسابت على خديه من تحت نظارتيه .. وقبعنا هكذا مدة طويلة من غير أن نتكلم ، ندمدم بين الحين والآخر بكلمات مقتضبة .

وفي المساء ، وبعد أن ودع الجميع ، وقمانقنا بحرارة ، ذهب في طريقه .. عدوت خارج البوابة ، وأنا أراقب العربية التي استقلها وهو يبتعد ، واخذت أصوات العجلات تتلاشى .. وما أن برحنا حتى أخذت جدي في تنظيف حجرته ، فقصدتها ، وشرعت أعدو امامها من زاوية إلى زاوية قاصداً مضايقتها ...

صرخت وقد اصطدمت بي :

— امض من هنا !

— لماذا طردتموه ؟

— هذا شيء لا يعنيك .

— إنكم بلهاء ، كل هذه العشيرة .

فاسرعت تكيل لي بالمسحة المبتلة ، صارخة ؟

— هل جننت ، أم ماذا ؟

فأجبتها مصححاً :

— لقد جن الجميع . ما عداك ...

بيد أن ذلك لم يرضها .

وفي المساء ، وعلى طاولة العشاء تنهد جدي :

... حسناً ! الشكر لله على خروجه . لقد كان يحز في قلبي كالسكين إذا ما
ما رأيته ، لذلك تخلصت منه .

فهشمت معلقة لشدة غضبي . كان جزائي عليها عذاباً اليماً ...
وهذا تكون قد انتهت صداقتي لأول إنسان من تلك الجماعة الكبيرة ، غريباً
في وطنهم الأم ، رغم كونهم خيرة أبنائه .



في مستطاعي ان اتمثل بخلية نحل يحمل اليها أناس مختلفون غسل آرائهم ومعرفتهم في الحياة ، وكل منهم يساهم في هذا العمل ، حسب امكانياته الشخصية في نمو شخصيتي وتطورها . وفي معظم الأحيان كان الغسل مرأ ، بيد انه ، على أي حال ، عسلا .

توطدت اواصر الصداقة ، بعد ذهاب « هذا بديع » بيني وبين العم بيوتر وهو الى حد ما يشبه جدي في نعومته ، واثاقته ، وان كان أصغر حجماً والنحل جسماً ، يبعث في مخيلة من شاهده صورة فتى يلبس ، لمجرد التسلية ، ثياب شيخ هرم . وقد غزت الأخاديد وجهه فحفرتة... وكان شعره المتجمد أشيب اللون ، وقد تدلت لحيته بشكل دوائر ، يندس بين شفتيه غليون ينفث منه الدخان . كنت أتصوره هازئاً بالناس ابداً ، وهو يحكي قصة حياته :

... كانت تقول لي الكونتيسة التي تملكني في البدء ، وتسمى قائيان ، بأنني سأصبح حداداً ، فما ان شرعت في ذلك العمل حتى قالت : ينبغي ان تعمل مساعداً للبستاني . فلم امانع ، وامسيت بستانياً . ولكن ، كما يقول المثل : « اعط خبزك للخباز ولو أكل نصفه » . لم انجح في عملي الجديد ، نصحتني : جرب عدة الصيد . وما ان بادرت في عملي الجديد ، وابتعت عدة الصيد ، حتى قلت للأسماك وداعاً... وقبل ان تسنح لها الفرصة بأن تجعل مني شيئاً ، جاءت الحرية وتحلر الناس ، واصبحت حراً لا املك سوى الحصان . ومنذ

ذلك اليوم غدوت اتبع الحصان بدل الكونتيسة .

كان حصانه هرمًا ، سقيمًا ، وقد اعوجت ارجله ، وتدل رأسه العظيمي في حزن شديد من عتق يكاد ان لا يوصله بالجسد غير بعض الاوردة الضخمة ، وبشيء من الجلد القاسي المتجمع .

بيد ان بيوتر كان يعامله معاملة حسنة ، فيطلق عليه لقب تانيا ولا يحاول ضربه أبداً .

وذات مرة سأله جدي :

— لماذا تطلق على حصانك اسماً مسيحياً ؟

فأجابه

— لا ، يا فاسيلي فاسيليفيتش ، أبداً ! ليس تانيا اسماً مسيحياً الاسم المسيحي هو تانيا .

كان العم بيوتر ذو ثقافة واسعة . يلم بالكتاب المقدس . فيغوص مع جدي ابداً نقاشاً لا ينتهي ، موضوعه من هو أقدس القديسين ؟ وكان نقاشها يبلغ بعض الأحيان الوطيس ، فيصرخ جدي . وقد التمتعت عيناه شرراً :

— امض من هنا . يا الكسي !

كان العم بيوتر نظيفاً الى حد كبير . وحيث مضى في الساحة كان يلتقط . من الساحة ، اشياء كثيرة من عظام . وقضبان . ويدمدم مشمئزاً :

— لا جدوى منها غير اعتراض الطريق !

كان كثير الثروة . تنضح بشائره باللطف . وان كانت سحابة آنية تغشى عينيه احياناً . فاذا ما شبيهان بعيني جنة هامة . وكثيراً ما كنت أشاهده قد انزوى في زاوية مظلمة ، هادئاً ، كثيراً ، كإبن اخيه . فأمضي اليه واسأله :

— ما بالك ، ايها العم بيوتر ؟

فيجيب بأسى شديد وصوت متهدج :

- إمض عني !

كان يسكن احد منازل حيننا سيد قد اكدودبت جبهته . وقد اعتراه جنون لا يفارقه : فهو كل يوم يقبع إلى النافذة ، ويأخذ في اطلاق النار على الكلاب ، والحرر ، والدجاج ، والطيور ، وحق على المارة الذين لا يعجبهم منظرهم . وقد فعل ذلك مرة مع « هذا بديع » . بيد ان الرصاص لم يخترق غير معطفه لحسن حظه . وما زلت اذكرك كيف توقف صاحبي متفحصاً باهتمام بالغ جسده براحة يده . وعندما حثه جدي على تقديم شكوى ضد المعتدي ، فقال :

- انها لا تستاهل كل ذلك .

كان العم بيوتر ، عندما يرتفع صدى طلقات المجنون في الشارع يهرول إلى قيمته المهترئة ، فيلقبها على رأسه ثم يمضي خارج البوابة ، ثم يتخبط بكبرياء وهدوء امام نافذة ذلك المجنون ، ولا يتوقف عن ذلك أبداً . ويتجهمر جميع السكان امام البوابة يراقبون ما يحدث في الشارع ، بينما يطلل الضابط وامراته الشقراء من النافذة ولا يبقى غير منزل آل اوفزيانيكوف عديم الحركة والضوضاء كأنه قبر لا يحوي غير الاموات ...

كان العم بيوتر يعود فاشلاً في معظم الأحيان ، فالمجنون لا يحسبه صيداً يستاهل الصيد أبداً ... وفي أحيان أخرى ، كانت طلقنا البندقية تتواليان :

- بُوم ! بوم ! ...

فيدنو العم بيوتر منا ، من غير ان يسرع الخطى ، ويقول متفاخراً :

- لقد اصابني في مؤخرة معطفي

وذات مرة ، أصابته طلقة في عنقه وكتفه ...

فسألته جدي ، وهي تنزع من رقبتة الخردق ، بإبرة الخياطة :

- لماذا تثير ذلك الخلق المعتوه هكذا ، قد يقضي عليك مرة ..

فيجيب العم بيوتري باحتقار :

— آه ! لا اكوليننا ايضا نوفا ! لا يستطيع ان يفعل ذلك مطلقاً ، فهو لا يجيد الرماية أبداً !

— ولماذا تتيج له الفرصة لارضاء غروره ؟

— لارضاء غروره ؟ إنني أفعل ذلك لإغاظته .

وأردف وهو يتفحص جروحه :

— كلا ، إنه ليس برام مطلقاً ! لقد ارتبطت الكونتيسة ثانياً مرة بعلاقات زواج انية ، مع ضابط يدعى مامونت إيليتش . وكان ذلك رامياً ماهراً .. قادراً على فعل كل شيء ببندقيته .. وكان هناك أبله يدعى إجناسكا ، كان يوقفه على بعد اربعين خطوة أو أكثر ، ويربط إلى حزامه الجلدي زجاجة ، بحيث تتدلى بين ساقيه المتباعدين ، عندما يطلق مامونت النار كانت الزجاجة تتطاير قطعاً صغيرة .. وذات مرة حرك إجناسكا ساقه ، قد تكون عقصته حشرة ، فاذا بالرصاصه تصيب منه الركبة ، وتحطمها ، وعندما استدعي الطبيب أمر بقطع الساق .. وقد دفنوها ..

— واجناسكا ؟

— آه ، لقد بقي حياً وعاش في احسن حال . فالاغنياء ليسوا بحاجة للارجل أو للأيدي لكي يعيشوا في عالمهم الجنوني .. وهم جماعة غير مؤذية كما يقول المثل « لا ضرر ، من لا عقل له » .

لكن هذه الحادثة لم تؤثر في جدتي فهي تعلم الكثير أمثالها ، بيد أنها جعلتني أرتجف فرحاً ، ثم سألت صاحبي :

— هل يستطيع الواحد من النبلاء أن يقتل أي إنسان ؟

— لماذا لا ؟ ان باستطاعته أن يقتل حتى نبيلاً في بعض الاحيان ..

كان يعاملني بلطف زائد ، فيحدثني كما يحدث الكبار . بيد أنه لم يكن

يعجبني في شيء ، وهو انه حين يعزمننا إلى اكل مرباه ، كان يقطع لي قطعة كبيرة من الخبز اكبر من حصه الباقيين ، وإذا نزل المدينة احضر لي معه كعك الزنجبيل . وفي غالب الاحيان كان يسألني باهتمام .

— حسناً ، ماذا تريد أن تفعل عندما تكبر ؟ اريد أن تصبح جندياً ، أم موظفاً ؟ .

— اريد أن اصبح جندياً !

— ذلك يلقى بك ، إذ لم تعد مهنة الجندي شاقة في هذه الايام . وكذلك بالنسبة إلى الكهنة ، فما عليك إلا السير في الشارع ، وتقول : « يا رب إرحم » ، وهذا كل شيء .. فحياة الكاهن أسهل من حياة الجندي . بيد انه من المستحسن ان تتهن صيد الامماك ..

واخذ يقلد ، مغتبطاً ، كيف تلف السمكة حول الطعم ، ثم كيف تحاول جاهدة التخلص من الصنارة .. وفي بعض الاحيان ، كان يخاطبني قائلاً : — أنت تغضب عندما يحلك جدك ، اليس كذلك ، وهذا خطأ لأنه ليس من داع الى الغضب في مثل هذه الحالة . إذ أن جدك يحلك لمصلحتك .

وأخذ يروي لي باطناب بعض القصص . وموضوعها الآلام البشرية . والذل ، والهوان . في كل قصة يتعذب إنسان ما ، أو فلاح يسخر منه . حتى مللت تلك الاقاصيص ، وعزفت عن سماعها فقلت له :

— حدثني عن شيء آخر .

فامسك بشعر لحيته المجعد ، واخذ في رفعها حتى عينيه . ثم قال . — حسناً ، أيها النهم سأروي لك شيئاً آخر .. لقد كنا نملك ، ذات مرة ، طباخاً ..

— من الذي كان يملك ؟

— الكونتيسة تاتيان ألكسييفنا .

— لماذا تطلق عليها اسم تاتيان ، كأنها رجل ، بدلاً من تاتيانا ؟ إنها امرأة
اليس كذلك ؟

— اجل إنها سيدة ! ومع ذلك عندها شارب اسود اللون ، لأنها جرمانية
الاصل ، قبيلتها شبيهة بالقبائل السود ، حسناً ، لقد كنا نملك طباخاً ، آه ،
إنها قصة مضحكة ، يا عزيزي ...

تتلخص تلك القصة بان طباخاً قد افسد ذات مرة طبخ طير ، فكان عقابه
بتناول ذلك الطير دفعة واحدة ، وفي النتيجة سقط مريضاً ، ولازم فراشه
زمناً طويلاً .
قلت متأففاً :

— إنها قصة غير مضحكة ابداً .
— إذن ماهو المضحك في رأيك ؟ هيا قل لي ..
— لست ادري .
— إذن عليك بالسكوت .
مرة ثانية ، اخذ يحبك أقاصيصه المملة ..

* * *

غالباً ما كان ابنا خالي ، في فترة الاحاد والاعياد ، يأتيان إلى بيتنا بقصد
الزيارة ، احدهما ، ابن ميخائيل ، كثيباً خاملاً كعادته ، والآخر ، ابن ياكوف ،
فطناً ، يدرك كل الامور ، نظيفاً ، كعهدي به . وذات يوم ، بينما كنا ثلاثتنا
نطوف السطوح ، رأينا رجلاً قد جلس على كومة من الاخشاب في ساحة آل
بيتلنغ ، يداعب عدداً من الكلاب الصغيرة .. كان يلبس معطفاً اخضر اللون ،
يزدان بفراء اسود ثمين ، وقد بقي رأسه الاصلع عارياً من غير غطاء . فراقبت لنا
هذه الكلاب ، فاقترح ابن خالي ياكوف ان نسرق أحدها ، وقد لاقى هذا الامر
منا تأييداً كبيراً من غير تردد .. فرمينا بسرعة غريبة ، خطة مفادها أن يذهب

إبنا خاليّ الى الشارع . و يلتظران عند البوابة الضخمة لآل بيتيلينغ ، في الوقت الذي أقوم انا فيه بإخافة الرجل ، حتى إذا لاذا بالهرب ، اغتنا تلك الفرصة لاختطاف جرو صغير .

فسألت :

— وبماذا أخيفه ؟

فاقترح احدهما :

— إيصق على صلعة رأسه .

فراقت لي الفكرة حتى انني لم اجد خطيئة كبيرة في البصق على رأسه ، لأنني أعلم أساليب عديدة أشد ضرراً لإنزال الأذى بالناس . فلم أتردد في تنفيذ هذه المهمة ...

بيد أن هذا التصرف أثار جلبة كبيرة ، وسرعان ما توافد الى الساحة جمع غفير من نساء آل بيتيلينغ ورجالهم وقد بدا في مقدمتهم ضابط انيق . وبما أن ابنا خالي كانا يلهموان في الشارع بهدوء وسكينة أثناء اقتراف الجريمة ، كتب لي ان التحمل العقبات لوحدي من دونها ، فقام جدي العزيز بحلدي ، في جمع غفير ، كي يخفف من غضب سكان الدار المجاورة ويعمل على إرضائهم .

كنت ممدداً في المطبخ منهار الأعصاب ، يعتصرني الألم ، حين أتى العم بيوتر ، وقد لبس أجمل ثيابه ، وقد بدا في حالة نفسية حسنة ، فاقترب مني وهمس في أذني .

— لقد قمت بعمل يدل على الذكاء والفتنة ، يا عزيزي ، ان ذلك التيس المعجوز يستأهل أكثر مما ناله ! ابصق على عشيرتهم كلها ! كنت أفضل أن ترمي رأسه بقرميدة كبيرة ...

فتذكرت ذلك المعجوز ، المربع الجسم ، ذو الرأس الأصلع بوجهه الذي يشبه وجوه الكلاب الصغيرة ، وقد أخذ يزعق كالجرور ويمسح رأسه الاصفر بيديه الصغيرتين . وشعرت بنجل عظيم لا يوصف ، وكذلك شعرت بالكراهية لابني

خالي في نفس الوقت ، بيد انني تناسيت كل شيء الآن ، عندما رأيت وجهه
بيوتر الشبيه بالسلة ، المحفور بأخاديد عميقة ، قبدًا منظره مربعاً ، لا يماثله في
شناعة ذلك الا وجه جدي اثناء جلدي .

صرخت ، وانا اقذف بيوتر بيدي وقدمي .

- اخرج من هنا !

فتعالى ضحكك وغمز بعينه ، ثم نهض ونواري ...

ومنذ ذلك الحين ، لم يعد لي رغبة في مخاطبته ، وأخذت أتجنبه ، وفي نفس
الوقت أراقبه ، كأنني انتظر منه شيئاً غامضاً لا ادرك كنهه على وجه
التحديد !

* * *

وبعد تلك المغامرة حدث شيء آخر ... كان منزل آل أوفزيانيكوف شغلي
الشاغل منذ فترة طويلة ، كانت جدرانها القديمة توحى لي بأنه ينطوي على شيء
غريب لا وجود له إلا في حكايات الجنيات .

وكان منزل آل بيتلينغ يعج بالضوضاء والحركة ، تقطن فيه شلة من الفتيات
الفاتنات ، كان يتردد اليهن عدد كبير من الطلبة والضباط الذين كنت ترام
دائماً ، أينما وجدتهم يضحكون ، ويصيحون ، ويلهون ، ويغنون ، ويعزفون
الألحان الشجية ، وكان المنزل ذو طلة بهية . بيد ان جدي لم يحب ذلك المنزل
ابداً ، فهو يطلق على سكانه لقب الكفرة والزنادقة ، بينما يصف فتياته بكلمة
بذيئة ، شرحها لي العم بيوتر بطريقة قدرة ..

وعلى العكس كان الصمت والسكون الخمين على منزل أوفزيانيكوف يبعثان
فيه الاحترام والتبجيل . كان منزلاً شامخاً ، وان كان مؤلفاً من طابق واحد ،
يطل على ساحة شاسعة قد غطيت بالاعشاب ، ويقوم في وسطها بئر ماء تحت
سقف صغير ترفعه دعامتين . كان ذلك المنزل يركن بعيداً وراء الشارع كأنه
يود الاحتجاب عن الأنظار ...

كنت أشاهد كل يوم تقريباً ، منذ الهجير حتى الغروب ، ثلاثة أولاد يلعبون في الساحة ... كان الجميع يرتدون ملابس رمادية وقبعات متماثلة ، وكانوا جميعاً بوجوههم المستديرة ، يشبهون بعضهم بعضاً بشكل غريب ، فلا تستطيع التفريق بينهم إلا بقاماتهم .

كنت الاحقهم بنظري من خلال شق صغير في السور من غير ان ينتبهوا لوجودي ، الشيء الذي كان يغيظني كثيراً . وكانت ألعابهم الحساسة ، تبعث السرور في نفسي . كان الجميع يضحكون اذا ما تعثر صغيرهم وارتمى ارضاً . بيد ان ضحكهم كان مجرداً من الحب لا تشوبه دناءة ، ثم يساعده الآخرون على النهوض ، ويمسحون بمنديلها ما بقي من اثر الارض على ركبتيه ويديه ... وكان الأوسط يدمدم بصوت عذب :

— انت ، ابها الغشيم !

ولم اشاهدهم مطلقاً يتشاجرون أو يحاولون خداع بعضهم بعضاً .. فقد كان الثلاثة نشيطون أشداء ، ينضحون بالحساسة .

ذات يوم تسلقت الشجرة ، وأخذت اصفر لهم كي الفت انتباههم إلي . فانثنوا عن اللعب ، ورنوا بابصارهم نحوي ، وأخذوا يتهايمسون بصوت خفيض .. وتوقعت ان يرشقوني بالحجارة فأسرعت بالهبوط لأعوده بعد لحظات وقد امتلئت جيوبي بالحصى . بيد انني وجدتهم يلعبون في زاوية بعيدة ، وقد نسوا على ما يظهر كل شيء عني . فأسفت لذلك ، ولم أرغب في أن أكون البادىء بالمشاجرة وسرعان ما نادى أحدهم من النافذة :

— عودوا الى البيت ، ابها الصغار ! بسرعة ...

فاستداروا طائعين ، ومشوا ببطء نحو المنزل ...

وكثيراً ما تسلقت ، فيما بعد ، تلك الشجرة المتعالية فوق السور . متمنياً ان يدعوني لمشاركتهم اللعب ، لكنهم لم يفعلوا ... بيد انني كنت أشترك ، في مخيلتي ، معهم في تلك الألعاب ويبلغ في الحماس ان اهتف أو اضحك عالياً بين

الفينة والفينة . وعندئذ كانوا يرمقوني بنظرة ، ثم يتهامسون فيما بينهم ، بينما أكون قد هبطت عن تلك الشجرة حائراً مرتبكاً .

و ذات يوم ، اخذوا يلعبون « القميص » وكان دور الأوسط ان يقوم بالتفتيش عن الآخرين ، فوقف في زاوية قرب المستودع ، وقد وضع يديه على عينيهِ ، من غير ان يسترق النظر ، بينما راح الآخرون يفتشان عن مكان يختبئان فيه . فأسرع الكبير ، واستتر في العربة الكائنة في الساحة وقد غطاه سطح المستودع ، بيد ان الصغير بقي يلف ويدور حول البئر ، مفتشاً عن مكان يختبئ فيه .

صرخ الأوسط :

- واحد .. إثنان ...

فقفز الصغير ، في شبه هوس ، على حافة البئر ، وتعلق بالحبل ثم قفز الى السطل الفارغ الذي توارى توأ . وقد اصطدم بحدران البئر . فراعني المشهد حين شاهدت الحبل يهوي بسرعة . فقفزت داخل الساحة . وانا أصرخ :

- لقد سقط في البئر !

كان الأوسط قد وصل الى البئر ، في نفس اللحظة التي بلغته فيها ، فتمسك بالحبل الذي شده عالياً ثم القاه على الارض وقد احرق يديه . وتوصلت الى الامساك بالحبل ، وفي ذلك الوقت ، وصل الكبير وهو يعدو ، وساعدني في رفع الدلو ... قال .

- على مهل ، أرجوك !

اخرجنا الصغير الذي بدا مرتعباً ، والدم ينزف من اصابع يده اليمنى ، وقد جرح خده ، وابتل حتى خصره ، وبدا شاحب اللون . ومع ذلك ابتسم قائلاً وهو يرتجف

- بالله ... كيف سقطت !

وارتبك الأخ الأوسط :

— انت . أيها المجنون !

وأخذه في حضنه ، وشرع يمسح الدم عن وجهه ، بينما اعتلت وجه الأكبر
تقطعية ، وصاح :

— تعال ، فنحن غير قادرين على إخفاء ذلك ابداً . يجدر بنا ان نسرع
الآن .

فسألتهم :

— هل متجلدون ؟

فهز رأسه ، ثم مد يده لي ، قائلاً :

— انت تعدو بسرعة فائقة .

فتمايلت لاثنايه ، وقبل ان أمد يدي لأصافحه ، شرع يقول للأوسط :

— هيا بنا ، قبل ان يصاب بالبرد . سنقول بكل بساطة ، إنه سقط على
على الارض . ومن المستحيل ان نقول شيئاً عن البشر .

فهز الصغير رأسه موافقاً :

— أجل . سنقول انني سقطت في بركة الماء .

ثم ذهبوا ...

كل ذلك حدث سريعاً ، بحيث ان الفصن الذي كنت اعتليته قبل نزولي إلى
الساحة ما زال يهتز ، وأوراقه الصفراء تتساقط حين وقع نظري عليه ..

تواري الأخوة الثلاثة ، بعد ذلك مدة اسبوع عن ناظري .. وعندما بدوا
اخيراً ، كانوا أكثر بهجة وحبوراً منهم في أي وقت مضى ، عندما ابصروا بي .
صاح الكبير بلطف ورقة :

— تعال والهو معنا .

فمضيت اليهم ، وتعلقنا بعربة قديمة مهجورة حيث امضينا مدة من الوقت

نتعارف . استوضحت :

- هل جلدوكم ؟

فأجاب الكبير !

- لقد أخذنا نصيبنا، جميعاً !

كان يشق علي ان يحلد هؤلاء الصبية كما يحلدي جدي ، واعتبرت ذلك جوراً
فتألمت لهم ...

سأل الصغير :

- لماذا تقتنص العصافير ؟

- لأنها تشدو بصوت رائع .

- لا تقوم بذلك مطلقاً ، دعها تطير حرة أيا ن شاءت ، وتغرد ..

- حسناً ، اعدك بذلك ..

- لكن ، قبل ان تعدل في رأيك ، اصطد واحداً واعطنيه .

- ماذا تفضل ؟

- عصفوراً مرحاً ، لأضعه في القفص .

- ينبغي أن يكون ذلك بلبلا .

فقال الأوسط :

- ستلتهمه الهرة . ولن يدعنا والذي نحفظ به .

فوافق الكبير :

- هذا صحيح !

- هل عندكم والدة ؟

فأجاب الكبير :

- كلا ! لكن ...

فصرح الأوسط قائلاً :

— اجل لنا . لكنها واحدة اخرى ، ليست امنا ، فقد ماتت امنا .

فقلت :

— ان هذا النوع يدعى خالة .

فهرز الكبير برأسه قائلاً :

— اجل ! هذا صحيح

ولاذ الثلاثة في ضمت عميق ...

كنت ادرك من روايات جدتي ، ما هي الحالة ، فلم يصعب علي ان ادرك معنى ألمهم العميق ، وقد جلسوا الآن متلاصقين كصيصان مذعورة ... وعادت الى مخيلتي قصة تلك الحالة الساحرة التي لجأت الى اشنع الوسائل لتأخذ مكان الأم الحقيقية ، فقلت محاولاً تعزية الصبية :

— لا تحزنوا ! ستعود أمكم الحقيقية ثانية .

فهرز الكبير كتفيه ، ثم قال :

— وكيف سترجع وهي ميتة ؟ ذلك لن يحدث مطلقاً !

واخذت اقصر عليهم بعض اقاصيص جدتي بحماسة فائقة بيمسك ان الصبي الاكبر ابتسم باحتقار . قال :

— لقد سمعنا هذه الروايات ، فهي حكايات خرافية ليس إلا ! ..

كان اخواه يصغيان بانتباه . وقد عقد الصغير جبينه ، وعض على شفتيه . ووضع الأوسط مرفقه على ركبتيه . وطوق بذراعه الآخر رقبة اخيه ...

قبيل الغروب . كان السكون ييمن . وتعالى بعض الغيوم الرمادية في الجو فوق السطوح . حين بدا على حين غرة وجه شيخ ابيض السالفين . وقد لبس معطفاً بنياً طويلاً يشبه ثوب الكهنة . وقد اعتمر قبعة من القرو .. دنا منا ثم استوضح وهو يشير إلي بإصبعه :

— من هذا ؟

فنهض الكبير ، وأشار بيده الى دار جدي وقال :
- انه من هناك .

- ومن طلب منه الحضور الى هنا ؟

فهبط الثلاثة توأ عن العربة ، ومشوا بالجماء البيت ، وقد ذكروني مرة
اخرى ، بالاوز المطيع ..

وامسك بي الشيخ من كتفي بقسوة ، وقادني من الساحة حتى البوابة .
كنت اشعر بالحاجة الى ذرف الدموع من شدة لوعي ، بيد انه ركض بي
مسرعا ، وبخطوات واسعة ، حيث وجدت نفسي في الشارع قبل أن تنهمر
دموعي .

وتوقف بجانب البوابة ، هازأ إصبعه في وجهي منذراً ، فقال :

- إياك ان تجرؤ وتأتي لمشاهدتي مرة أخرى !

قصرخت مغتاضاً :

- انا لم آت لمشاهدتك انت ، أياها المفريت الهرم !
فمد ذراعه والتقطني مرة اخرى ، جاراً إياي على طول الطريق . مكرراً
نفس السؤال ، فتساقط عباراته على رأسي كضربات مطرقة ثقيلة :
- هل جددك في البيت ؟

وشاء القدر القاسي ان يكون جدي في المنزل ... وقف ذليلاً امام الرجل
المتوعد ، وقد شلح رأسه الى الوراء ، وانقذفت لحيته الى الامام ، وقال مرتبكاً
وهو يتطلع بعينين مدورتين حزينتين :

- ان والدته غير موجودة ، وانا مشغول ، وليس من احد يرعاه . انني
استميتك عنراً ، يا سيدي الكولونيل .

فهدر الكولونيل بصوت تردد صده في انحاء البيت ، ثم استدار على عقبيه
وتوارى ...

وبعد فترة قصيرة كنت اضطلع في عربة العم بيوتر اخفي دموعي، بعد ان اخذت نصيبي من العقاب ... فاستفسر العم بيوتر وهو مشغول بالحصان :
— هل جلدك جدد مرة اخرى ، يا صاح ؟ ما هو جرمك هذه المرة ؟
وعندما اعلمته بالامر نهض واقفاً ، وصر " على اسنانه ، وصرخ مفتافاً :

— لماذا تصاحب مثل هذه الجماعة ؟ انهم من سلالة النبلاء ، فهم كالآفاعي ..
ارأيت ما اصابك بسببهم ؟ لن تنسى ذلك ، اليس كذلك ؟
وبقي يهذي على هذا المنوال فترة طويلة . فأرهفت له السمع بادىء الامر ثائراً نتيجة ما اصابني من جلد بسببهم . بيد ان الوجه الشبيه بالسلة اخذ يرتجف بشكل غريب . وسرعان ما قصورت ان اولئك الصبية هم يجلدون كذلك ، وقد وقع ذلك لهم فعلاً فيما مضى . وانهم لم يقصدوا اذيتي أبداً فهم لا يستأهلون اللوم اكثر مني على ابي حال . قلت :

— ليس من داع الى ذلك . فهم صبية طيبون . وان ما تتفوه به مجرد سخافات ليس إلا " .

فتأملني بحدة . ثم صرخ فجأة :

— اخرج من عرقتي .

فزعلت وانا اقفز من العربة

— أحمق !

واخذ يعدو ورائي في الساحة وهو يصرخ . من غير ان يتمكن من الامساك بي .

— انا احمق ؟ انا سخي ؟ سأريك مرة ...

وبدت جدتي على عتبة المطبخ . فألقيت بنفسي في احضانها . بينما طفق بيوتر يشرح لها ما حدث بيننا قائلاً :

— ان هذا الجرو الصغير ينقص عليّ حياتي . وهو لا يدرك معنى لعبارته . فيصفني بالقاتل بذئته . ويتجاسر على نعتي بكاذب مع اني اكبره بست مرات ...

كنت لا أتمالك نفسي امام الناس الذين يكذبون أمامي . فينعتقد لساني من الدهشة ... وهذا ما جرى لي عندئذ . فرفوت اليه فاقد المقدرة على الكلام... بيد ان جدتي قالت بصرامة وحزم :

— والآن يا بيوتر ، أنت من يكذب . فأنا متأكدة من أنه لم ينعتك بالفاظ بذينة ابداً .

أما جدي فكان يصدق ، ما يقوله له . ذلك السائق ...

* * *

منذ ذلك اليوم ، شنها بيوتر حرباً عليّ ، فهو يتحين الفرص . ليلكني على ظهري ، أو يضربني باللجام الذي يلوحه بيده عابثاً . وكان هذا الأمر يحدث في بعض الأحيان صدفة ... وكذلك افلت عصفيري من الأقفاص ، وسلط عليها الحرر .. وكان يختلق مناسبات يشكوني فيها الى جدي ، ويسر اليه بأشياء كثيرة ، مغالياً في إظهار أخطائي وتكبيرها . وهكذا كنت لا أجد فيه سوى صبي صغير في مثل سني ، بيد انه يرتدي ثياب الشيوخ .

واخذت بدوري أقتفن في الثأر لنفسي منه . فأفك شرائط حذائه ، واقطع اقمشة جواربه ، حتى إذا ما لبسها وشدها كانت تتقطع إلى آخرها . وذات مرة وضعت في قبعته مسحوق الفلفل ، فبقي ساعة يسدور على نفسه وهو يعطس .. وبكلمة اخرى أخذت أبذل قصارى جهدي لأكيل له الصاع صاعين . وما ان يأتي نهار الأحد حتى ياخذ في التجسس عليّ ، ويراقبني بعين يقظة ، حتى إذا ما ضبطني في بعض المرات مع الصبية النبلاء ، عدا إلى جدي وأشياء بي .

ورغم كل ذلك ، بقيت اتصلاقي تزداد وثوقاً ، ويزداد معها سروري الذي اعجز عن وصفه . وكانت تركز بين حائط منزلنا وسور آل أوفريانيكوف . زاوية صغيرة تظللها أشجار الليمون . وقد غطيت بأشجار من البيلسان التي

فتحت خلفها متسماً صغيراً في السور بأثني منه الأخوة . فجلس القرفصاء
تحدث في سكون وهدوء بينما يقف شخص يحرس المكان مخافة ان يفاجئنا
الكولونيل فجأة .

و ذات يوم قصوا علي قصة الحياة الرتيبة التي يعيشونها في كآبة وحزن .
فكان ذلك يحز في نفسي ... كنا نتجاذب الحديث عن الطيور التي اصطادها .
وعن كثير من الأمور التي تملأ حياة الصغار . بيد انني ما زلت اذكر غاماً انهم
لم ياتوا مطلقاً علي ذكر والدم أو امرأته . وغالباً ما كانوا يسألونني أن أروي
لهم حكاية . فاعيد علي مسامعهم بأمانة متناهية . كل تلك الأساطير والروايات
التي سمعتها من جدتي ... فاذا غابت عني بعض الأحداث . كنت أطلب اليهم
الانتظار لحظة . وأمضي الي المطبخ استرجع جدتي ما غاب عن ذاكرتي الأمر
الذي كانت تفتبط له كثيراً .

كنت احديثهم . غالباً عن جدتي ... وذات مرة ندت عن الأخ الأكبر
تنهدة صيقة . ثم قال مكتئباً :

— لا شك ان الجدات لطيفات للغاية . فقد كان لنا جدة لطيفة . وكنا
نكن لها كل الحب ...

كان يتكلم . في أغلب الأحيان بصيغة الماضي ويردد كثيراً . وبجزم بآد .
هذه الكلمات : « كنا » و « ذات مرة » و « كان لنا » . حتى ليخيل الي
السامع انه عاش مئات السنين . لا احد عشر عاماً .

كنت اغرق وإيام في الحديث حتى يغيب عن بالنا امر العم بيوتر الذي ما
ان يظهر حتى يفرقنا وهو يقول :

— ما ... ذا ؟ انت معهم مرة أخرى ؟

كنت ادرك انه يزداد تقطيباً وعبوساً . واصبحت أيضاً ادرك طبيعة
مزاجه من طريقة فتحه للبوابة عند عودته من العمل . كما . من عادته أن

يفتحها بثأن وقمل . فاذا كان مزاجه سيئاً كان يفتح البوابة بحيث تبعث المفصلات نباحاً حاداً أشبه بتأوهات انسان يتألم ويعاني آلاماً قاسية .

وقد تركنا ابن اخيه الأبكم الأصم ومضى الى الريف منذ زمن بقصد الزواج . . وهكذا اصبح بيوتر يقطن وحيداً في حجرته الواطئة السقف ، الكائنة فوق الاسطبل ، ذات نافذة واحدة . كان مهملاً في ترتيب تلك الحجرة حتى ازدحمت بالروائح ، من جلود مدبوغة وتبع وقطران ، وعرق ، كل هذه الروائح كانت حاجزاً يمنعني من زيارته .

وفي الأيام الأخيرة . شرع ينام من غير ان يطفىء القنديل . الأمر الذي ازعج جدي كثيراً .

كان يقول له جدي دائماً :

— إحدري يا بيوتر . وإلا "أحرقت المكان .

فيجيب . وهو يتطلع بعيداً حتى لا تتلاقى نظراته بنظرات محدثة :

— كلا . اطمئن . فلا خوف من ذلك مطلقاً ! فانتني اركز الشمعة في الليل وسط حوض الماء .

أصبحت نظراته الى الناس والأشياء سريعة . مسترقة . واخيراً امتنع عن حضور حفلات جدتي . ولم يعد يعزمنا على مرابه . في حين اخذ وجهه يزداد غضوناً وجفافاً . واصبح يترنح في مشيته ويحير رجله كرجل مريض منهار .

وصبيحة ذات يوم . بينما كنت اجرف الثلج مع جدي ، تناهى الى سمعي صوت صرير مزلاج البوابة بنغم وقح ، ودخل منه الى الساحة شرطي ثم اغلق البوابة وراءه . واستند اليها . ثم أشار الى جدي بإصبعه السمين طالباً اليه الدنو منه . وما ان غدا بجانبه حتى انحنى عليه واسر اليه شيئاً جعله يدمدم . وهو مضطرب :

- هنا ؟ متى ؟ لو كنت اذكرك فقط ...

ثم اجفل بشكل مزر . وصاح .

- ايها الرب المجد ! هل ذلك ممكن ؟

فنبه الشرطي بصوت هامس :

- صه ! لا تصرخ هكذا !

فتأمل جدي حوله ، فشاهدني ، وقال :

- خذ المجارف وامض الى المنزل .

فتواريت في زاوية ورحت اراقبها وهما يدخلان جناح السائق بيوتري الاسطبل ، وقد نزع الشرطي قفاز يده اليمنى وطفق يضرب به اليسرى ، وهو يقول .

- لقد ادرك ذلك تماماً ، فترك حصانه وتوارى .

انطلقت الى المطبخ باقصى سرعة واخذت جدتي بما شاهدت وسمعت . فوجدتها منحنية فوق وعاء العجين ، يتأرجح رأسها مع حركاتها الى الامام والوراء .

وعندما انتهيت من كلامي ، قالت بتكاسل :

- ربما مرق شيئاً . إمض إلى الساحة والعب ، فليس لك شأن في ذلك !

عدت إلى الساحة عدواً ، فرأيت جدي يقف بجانب البوابة ، وقد نزع قبعته عن رأسه . يتطلع الى السماء وهو يرسم اشاره الصليب . وقد اعتلت وجهه علائم الغضب . وقد ارتجفت ساقيه .

صرخ . ضارباً الارض بقدمه :

- ألم أقل لك بأن تمضي الى الدار ؟

ودفعني الى المطبخ . وما ان رأى جدتي ، حتى هتف بها :

— تعالي ، يا أماء !

انطلقا الى غرفة مجاورة حيث امضيا فترة من الوقت يتهامسان .. وعندما عادت جدتي الى المطبخ ، فهمت ان شيئاً رهيباً قد وقع .. سألت ؟
— لماذا أنت مذعورة خائفة ؟

فاجابت بهدوء :

— إخرس ، هل فهمت ؟

وغرق المنزل في جو من الرهبة والضييق طوال ذلك اليوم وبقي جدي وجدتي طوال الوقت يتبادلان نظرات قلق ، وعبارات غامضة ، زادت من اضطرابي وحيرتي . ثم اصدر الجدة اوامره بصوت عال ، وهو يسعل :

— اشعلي القنديل ، يا أماء ..

تناولا طعام الغداء من غير شهية وبسرعة متناهية ، كأنها بانتظار شخص ما . واثناء ذلك كان جدي ينفخ خديه ، ثم يسعل ، ويدمدم :

— إن الشيطان يفوق الانسان قوة .. تأملي هذا مثلاً ، انه رجل مؤمن ، بقي ورع . ومع ذلك تأملي ماذا فعل !

فتنهدت جدتي ..

واخذ النهار يلحم اذياله في كسل ، واصبح الجو لا يطاق يزداد توتراً واضطراباً ساعة بعد ساعة .

وقبل هبوط الظلام ، اتانا شرطي آخر . كان سمين الجثة ، احمر الرأس ، اقتعد زاوية في المطبخ ، واخذ يغط في النوم فيعملو شخيرته في ضجيج عنيف . سألته جدتي :

— كيف اكتشفوا ذلك ؟

فاجاب متكدراً ، بعد فترة من الصمت :

— لا تتباهي ، انهم يكتشفون كل شيء عندنا .

كنت جالساً الى النافذة واضعاً في فمي قطعة قديمة من العملة اسخنها كي اطبع بها صورة القديس جاورجيوس ، حامل النصر ، على زجاج النافذة

المتجمد .. وعلى حين غرة ، تعالى الضجيج
وبدت بتروفتنا على العتبة ، وهي تصرخ :
— انهضوا وشاهدوا ماذا يوجد على أرضكم
وما ان وقعت انظارها على الشرطي . حتى ا
الهرب . بيد ان الشرطي امسك بها من ثوبها وصرخ :
— مهلك لحظة ! من انت ؟ ماذا يوجد هناك ؟
فخرت على ركبتها ، وشرعت في البكاء وهي تبتلع دموعها .
— لقد مضيت لاحلب البقرة . وفجأة شاهدت ما يشبه زوجين من الاحد في
ساحة آل كاشرين ..

فصرخ جدي مقتظاً :
— هذا كذب ، أيتها الفاجرة ، انت غير قادرة على مشاهدة شيء في
ساحتنا ، فالسور عال ، وليس هناك من فجوات فيه ابداً . انت تكذبين !
ليس هناك شيء في ساحتنا .
فبكت بتروفتنا ، مادة اليه يدها وقد امسكت رأسها باليد الاخرى .
— آه يا إلهي ! انه على حق ، فانا اكذب . لقد مضيت لاحلب البقرة .
وشاهدت آثار اقدم تقود الى السور ، وقد تبعثر الثلج في بقعة واحدة . مما اثار
فضولي ، فتسلقت السور وتأملت من فوقه فرأيت ..
— م .. ن ؟

أتت هذه الصرخة طويلة ، لا معنى لها ..
وفجأة ، شرع الجميع يعدون ويتدافعون خارج المطبخ في اتجاه الساحة .
وهناك ، بين اكوام الثلج ، في الحفرة التي احدثها احتراق فرقة الفسيل ، كان
العم بيوتر ممدداً . وقد استند ظهره إلى جدار محترق ، وقد تدلى رأسه فوق
صدره .. أغلقت عيني خوفاً ورهبة ، فرأيت من خلال اهدابي ، مدينة العم
بيوتر التي كثيرأ ما شاهدته يقطع بها الجلود ، قد القيت على ركبتيه ، بينما
تراخت اصابع يده اليمنى ، اما يده اليسرى فقد دفنت في الثلج الذائب تحت

الجسد الصغير .. وقد تلوث الثلج عن يمينه بقع حمراء ، بينما بقي عن يساره
ابيض نقياً . وقد تدلى رأسه وارتاح فوق الصدر ، وقد ظهر من تحت لحيتيه
صليب نحاسي قد احاطته خيوط من الدم المتجمد .

ومن كثرة الجلبة والاصوات حولي ، شعرت بدوار يحتاجني .. فبتروفتنا
تصرخ من غير انقطاع ، والشرطي يصيح بفاالي ان يمضي الى مكان ما . وجدي
يصيح بكل ما أوتي من قوة :

- حاذروا أن تتلفوا الآثار !

بيد انه سرعان ما قطب وهو يتأمل الارض تحت قدميه يخاطب الشرطي
في صوت عالٍ بلهجة آمرة :

- لا جدوى من هذا الصراخ ايها الضابط ! تلك مشيئة الله . وانت تأتينا
بمهمتك الحقاء هذه اتباً لك !

فركن الجميع إلى الصمت ، وهم يطلقون الزفرات ويرسمون إشارة الصليب ،
ويتأملون الرجل الميت طويلاً .

واخذ آخرون يتقافزون من فوق السور ، يأتون من ناحية منزل بتروفتنا .
كانوا يتوقفون لحظة ثم يدمدمون بشيء غامض ، ثم يعدون عبر الساحة من غير
ان يأتوا ضجة تذكر ، فكان جدي يرمقهم بنظراته ، واخيراً صاح حانقاً :

- انتم تلتفون اشجار توت العليق ، ايها الجيران ألا تحجلون من انفسكم ؟
فامسكت جدي بيدي واصطحبتني الى المنزل .. سألتها !

- ماذا فعل ؟

فأجابت هامسة :

- اما شاهدت ؟

بقي اناس غرباء طيلة تلك الليلة . يملأون المطبخ والغرفة المجاورة له . بينما
يصدر الشرطي أوامره ، ورجل آخر يشبه الشماس يدون بعض الملاحظات في
دفتر صغير ، وليس في فيه غير سؤال واحد :

- ماذا ؟ ماذا ؟

احضرت جدتي الشاي وقدمته للجميع .. كان رجل مدور الجسم ، طويل
الساقين ، يجلس إلى طاولة المطبخ يقول في صوت متهدج :
- ليس من يعرف اسمه الحقيقي . الشيء الذي عرف عنه انه جاء من ايلانما
فقط . أما ذلك الابكم الاصم فلم يعد ابكم او اصم اكثر من اي واحد منا
لقد تكلم واعترف . وكذلك اعترف ثالثهم ، وقد كانوا ثلاثة مهمتهم مرقعة
الكنائس . وقد مارسوا هذه المهنة منذ امد طويل ..
فهتفت بازوفنا ، وقد احمر وجهها ، وتصيب منها العرق :
- يا إلهي !
استلقيت في سقيفة المطبخ ، ابصرهم من علي ، فبدوا لي قصاراً غلاظاً
تعلوم الشناعة ...



صباح يوم سبت ، مضيت باكراً إلى حديقة الجارة بتروفنا قاصداً اصطياد بعض الطيور ، بيد ان تلك الطيور منذ زمن طويل وهي تأبى ان تقترب من شراكي او تقع فيها . كانت تنباهي يحالها قاصدة اغاظني ، فتطير بعذوبة متناهية فوق الثلج اللضي ، وتمايل على الاغصان التي يتناثر الثلج منها عندما تحط عليها .. كل هذا اضفى على المنظر روعة وجمالاً يفوق اغتباطي في اصطياد تلك الطيور لذلك لم اشعر بخيبة امل ولم آسف على محاولاتي الفاشلة للامساك بها ، وكذلك فانني لست بالصياد المتحمس .. فكان منظر الطيور ومشاهدة اسلوب حياتها يبعث في نفسي نشوة اكثر من اصطيادها وامتلاكها .

جمعت شباكي واقفاصي ، عندما شعرت بالقشعريرة تحزمني العظم ، وتسلفت السور المؤدي إلى حديقة جدي ، ومضيت مسرعاً باتجاه الدار . كانت البوابة مفتوحة ، بيد ان قلبي وعلى حين غرة انقبض من غير سبب جلي عندما شاهدت مرجيك يقود خيوله المسرحية إلى مزلة كبيرة مقفلة . استوضحته !
- بمن أثيت إلينا ؟

فالتفت ، وحججني من خلف كتفه ، ثم قفز الى مقعده ، وصاح :
- لقد أثيت بالكاهن .

وصرخ الفلاح بالجياد ، وهو يحزن عنانها ويحشها على العدو ، فتنتثر في ارجاء الفضاء رنين اجراسها :

- هيا انطلقى ، ايها الكتناكيت !
بقيت واقفاً أتأمل العربية وهي تتوارى بعيداً ، ثم أغلقت البوابة ، ودلقت
الى الدار .. ولم اكذ ابلغ المطبخ ، حتى تنامى الى اسماعى صوت أمى العميق فى
الحجرة المجاورة :

- حسناً ! ماذا تنوي فعله الآن ؟ قد تود الاجهاز على ، اليس كذلك !
فألقيت بالاقفاص أرضاً ، وعدوت إلى الممر من غير ان انزع معطفي . بيد
ان جدى امسك بي عند العتبة ، ورمقني بنظرة حادة ، وابتلع بصعوبة شيئاً
ما كان قد علق فى حلقه ، ثم صاح بصوت جهوري :
- لقد عادت امك .. فاذهب اليها ! انتظر ! ..
وهزني بشدة حيث لم احمل نفسي إلاّ يجهد ، وقذف بي ناحية الباب وقال :
- أدخل ! أدخل !

ارتطممت بالباب ، فوقفت عنده لحظة حائراً ، ترتعد فرائصي برداً وانفعالاً ..
واخيراً عندما فتحت الباب وبقيت فى العتبة واقفاً مذهولاً ، وقد انعقد لساني
فهتفت أمى !

- آه ! ها هو ! يا للساء ! كم كبرت ! ألم تعرفني ؟ ماهذه الثياب التى
يلبسها ! .. تأملى اذنيه المتجمدتين برداً ..
وانتصبّت فى وسط الغرفة وقد انشنت فوقى ، تنتزع عني ثيابي وتجعلني
ادور أمامها كالخذروف ..

بدا لي وجهها اصغر من ذي قبل ، وقد ازداد بياضاً . اما عينساها فقد
اتسمتا وازدادتا غوراً . وقد التمع شعرها بهريق ذهبي اكثر من اى وقت آخر ..
كانت تلقي الثياب التى تنتزعها عني ناحية الباب .. وهي تتلفظ بلهجة كئيبة :
- حسناً لماذا لاتنيس بشيء ؟ الست مقتبطاً ؟ تقو ! يا له من قميص وسخ !
وتناهت الى سمعي اقوال جدتي ، معلقة على ملاحظات امى وهي تقول
بلهجة شاكية :

- لقد تخلص من كل رقابة . ولم يعد يخاف حتى من جده ! آه ، يا فاريا ،

انظر لحالها ، واغفر لها ، يا ابتاه ! فليس احد منا معصوماً عن الخطأ ..
فرمقها بنظرة ، وقد استند الى الجدار ، وهو يردد :
- آه ، اجل ، طبعاً ! لم لا ؟ انت على استعداد ان تساعني اي انسان ..
قفوا ! تباً لك ؟
ثم انثنى نحوها ، وامسكها من كتفها ، وشرع يمزها . وكلامه ينساب من
بين شفتيه هامساً :

- لكن ، ماذا تقولين عن الله ؟ انه لا يغفر كل شيء اليس كذلك ؟ ما قد
اصبحنا على حافة القبر . وما زال ينزل بنا العقاب . لقد ادركنا ايامنا الاخيرة
فاذا هي لا تهدأ ، خالية من الفرح ، والاستقرار .. سلموت متسولين ، تذكري
ذلك ، متسولين معدمين !
فامسكت جدتي بيده ، وقبعت بالقرب منه ، وضحكت بهدوء :

- وما الاهمية في ذلك ؟ لماذا أنت خائف من ان تكون متسولاً ؟ سنصبح
متسولين ، اذن ، استطيع ان اخرج انا لأستجدي ، وتبقي انت في البيت ...
وليس من احد يستطيع ان يمنع عنا العطاء ، ولن نعيش جائعين . كفافك تعذيب
نفسك بهذه الاهام .
وفجأة نفخ بمنخريه ورفع رأسه ، ثم لف ذراعه حول عنق جدتي ، وقد
النصق بها تماماً ، صغيراً ، بالياً ، رثاً ، وقال بلهجة شاكية :

- أيتها الحباء المباركة ! انت الانسان الوحيد الذي بقي لي على وجه
الارض . انت لا تأسفين على شيء في هذه الحياة لأنك بلهاء لا تدركين شيئاً .
تذكري ما فعلناه من اجل ابنائنا ! لقد ارتكبنا المعاصي في سبيلهم ! والآن ،
في النهاية ، لو أنهم يعملون الشيء اليسير مما عملناه من اجلهم ! ..
وعند هذا الحد لم اعد احتمل ، فقفزت عن الموقد والعرق يتصبب مني .
والدموع تنهمر من مقلتي ، وعدوت اليها ، وانا ابكي من الفرح بعودة أُمي ،

ولأنها قد تبادلا هذه المبارات الناعمة ، وبكيت حزناً لأنها ممعالي بمشاركتها
احزانها . فعانقاني ، واخرقاني في دموعها ثم همس جدي في اذني :

— انت هنا ، ايها الشيطان الصغير ! لن تكون بحاجة اليّ بعد الآن ، بعد
عودة امك ، انا جدك الشيطان المعجوز ، اليس كذلك ؟ حتى ولا جدتك ، هذه
الشمطاء الهرمة التي لا تعرف شيئاً سوى تدليلك . تقو ! تباً لك !
وبإشارة من يده ابعدها عنه ، ثم قفز واقفاً بعد ان تمالك نفسه .. صاح
مفتظاً :

— الجميع يتركونا ! وكل واحدٍ يمضي في طريقه الخاصة ، لا يعني الا
مصلحته فقط .. حسناً نادوها . بسرعة !
فتركت جدتي المطبخ ، بسرعة ، بينما انزوى جدي في زاوية من المطبخ ،
وهو يدمدم حاني الرأس :

— ايها الاله الرحيم ، هل ترى ماذا افعل ؟ اتراه ؟
وكال بقبضته ضربة على صدره ، دوى لها رنين لم يعجبني . كنت على اي
حال ، اكره الطريقة التي يخاطب بها الله .. وانت امي ، فملأت الغرفة بالتماع
ثوبها الاحمر . وقبعت الى الطاولة بين جدي وجدتي . وشرعت تحكي لهما برزانة
ووقار قصة ما ، وهما يرهفان اليها السمع في سكون وهدوء . كانا يبديوان
صغيرين بالنسبة اليها ، فكانها الأم وهما والداها !

كنت مضطجعاً في السقيفة ، منهك القوى من وقائع النهار ، فسرعان ما
استسلمت لسنة من النوم ...

تري جدي وجدتي ذلك المساء افخر ثيابهما ، وذهبا لحضور صلاة الغروب .
غمرتنا جدتي فرحة محاولة الفات انظاراً الى جدي الذي يتالق في بزة رئيس
نقابة الصباغين ، المؤلفة من سروال مخملي ومعطف من الجلد ، ثم همست في اذن
والدتي :

قالت وهي تسوي السجادة بقدمها :
- انك ستصبح شبيهاً بوالدك في يوم ما . هل كانت تحدثك جدتك عنه ؟

- اجل .
- لقد كانت تحب مكسيم كثيراً . كانت مولعة به ، وكان هو ايضاً يحبها كثيراً .
- اعلم ذلك .
- رمت الشمعة بنظرة عابسة . ثم نفخت على الشمعة الضئيلة فأطفأتها ...
قالت :

- هكذا أفضل .
كنت اجد الغرفة اكثر وداعة حين يخدم النور . وتحل محله اخيلة القمر الفضي الزرقاء ... بينما تأخذ شعاات ذهبية تراقص على زجاج النافذة .

- اين كنت تقطنين قبل رجوعك الى هنا ؟
فذكرت اسماء بلدان عديدة . كأنها تسترجع إلى ذاكرتها ماضياً سحيقاً غربت وقائعه عنها منذ أمد طويل ...
- من أين أتيت بهذا الرداء الجميل ؟

- لقد صنعتته بنفسي . فأنا أصنع كل شيء بنفسي .
كنت اغتبط كثيراً إذ أجدها تختلف عن الجميع كل الاختلاف . فلا شيء يوسفني منها غير قلة كلامها . فهي لا تتكلم إلا بحبيبة على سؤال ...

وقبعت مرة اخرى ، يحاني على الأريكة ، وقد شدتني اليها ، وبقينا كذلك مدة طويلة ، إلى أن عاد جدي وجدتي من الصلاة ، ورائحة البخور والشموع تقفوح منها وقد علا الهدوء ، والالطف ، والاكبار سيماهما ...

وفي المساء ، أقيم عشاء احتفالي ، يليق بجذث كبير الأهمية ، لم نتفوه خلاله بالكلام إلا فيما ندر . كأننا نخشى إيقاظ شخص عزيز من نومه الخفيف الذي حله

على اثره ...

وبعد مضي ايام قليلة اخذت امي على عاتقها مهمة تعليمي الثقافة «الحياتية» فاشترت لي بعض الكتب ، منها « مبادئ القراءة الروسية » الذي تعلمت فيه ، خلال عدة ايام حروف الأيجدية الواردة في غير الكتب الدينية . بيد أن امي ارادت مني ان احفظ الشعر عن ظهر قلب ، فكان ذلك شاقاً وبدء عذاب مشترك لـكـلـيـنـا .

وكانت هذه اولى المقطوعات الشعرية التي ينبغي عليّ حفظها :

« طريق تذر به الرياح
محبوب الفيا في ودور البشر
لم ينزل الفأس فيها صداح
لكن حوافر الخيل تمر »

وكنت عند قراءتها اقول « النباح » بدلاً من « الرياح » و « الكأس » عوضاً عن « الفأس » و « فرافر » بدلاً من « حوافر » .. فتصيح والدتي محتجة بقولها :

— فكر قليلاً كيف يمكن ان يذر « النباح » ايها الأبله ؟ « الرياح » هذا ما ينبغي قوله !

ادركت ذلك جيداً ، بيد انني بقيت اقول (النباح) أثناء تلاوة الدرس متعمداً ، فتغضب امي غضباً شديداً . وتلقبني بالعنيد الأبله . فأجد هذه الكلمات جارحة . فاحاول جاهداً الا اخطيء مرة ثانية ... فقد كنت ارددها في ذهني من غير ان اخطيء فيها أبداً . لكن ما ان اقلوها بصوت مرتفع حتى ابدأ بالخلط بين الكلمات من جديد . واخيراً شعرت بالكراهية نحو تلك السطور واخذت اتعمد تشويهها ، وذلك يجمع عدة كلمات من نعمة واحدة الى بعضها بعضاً ، وأسرف كثيراً حين تفقد تلك الأشعار كل معنى لها .

بيد ان تلك التسلية كلفتني غالباً ، فقد طلبت مني والدتي في نهاية الدروس

ذاكرتي ، وتزداد رغبتي في تحريف تلك السطور الابقاعية ، ويشدني الشوق الى
تبديل بعض الكلمات وتشويهها . وكنت ابلغ غايتي في ذلك من غير صعوبة ،
فتتدافق الكلمات الغريبة الى مخيلتي وتأخذ ، بكل بساطة ، موضع الكلمات
الاساسية ، وكانت ذاكرتي ترفض في بعض الاحيان استيعاب مقطوعة كاملة منها
حاولت من جهد ، وامثال هذه الاربعة الشاكية ، واعتقد انها من شعر الامير
فيازيمسكي التي كابدت من ورائها متاعب كثيرة :

« من الفجر حتى دنو الغسق
يمر ، في الشارع ، جمع يصيح !
يودون شيئاً باسم المسيح ...
فكان الشطر الرابع يغيب دائماً عن ذاكرتي :
يبنغون قوتاً يسد الرمق . »

وتغضب امي لضعف ذاكرتي فلتشتكي الى جدي ، الذي يحيبها قائلاً
في حدة :

- ماكر ، شيطان ، انه يأتي ذلك عمداً : انه يتقن جميع الصلوات افضل
مني فذاكرته صلبة ، اذا ما استوعبت الشيء فانه ينحفر فيها الى الابد ، ينبغي
ان تجلديه !

واتت جدتي تؤيد رأيه .

- انه يحفظ القصص والحرفات جيداً ، حتى الاغاني ، والاغاني شعر ، اليس
كذلك ؟

كان ذلك حقيقة لا مرأى فيها . احسست انني ملوم ، ومع ذلك كنت اذا
بدأت في حفظ مقطوعة جديدة ، تأخذ اسراب الكلمات الغريبة تتدافع الواحدة
تلو الاخرى في ابيات اقل او اكثر تناغماً :

« يدب الى بيتنا في الصباح
جمع غفير ينتظرون ..
يبتهلون .. ويبكون
ويكأوهم كصغير الرياح ! »

كنت اعيد على جدتي ، وقت النوم كل ما ترسخ في ذهني من دروس النهار
وما ابدعته تخيلتي ، فتبتسم احياناً ، واحياناً اخرى تؤنّبني بقولها :
- أرايت ؟ انك قادر على فعل ما تريد ساعة ثشاء ! لكن ، ينبغي عليك
ان لا تسخر من الفقراء لأن الله معهم .. لقد كان المسيح نفسه فقيراً ، وكذلك
سائر القديسين .

- « إني امقت التمساء
وكذلك امقت جدتي !
فسامحني ، يا رب ..
أأحلق في السماء
هارباً من ظلم جدتي
ام اقرارى في جب ؟ .. »

فصرخت محتدة :
- يجب ان يقطع لسانك من جذوره ، أيها العاق الشرير ، ماذا يجري لو سمع
جداك هذا ؟

- ليسمع ..
فتأخذ في رجائي بلطف :
- لماذا تغيض امك البائسة هكذا ؟ يكفي ما تعانيه من احزان ..
- وما هي احزانها ومشاغليها ؟
- إخرس . فانت لست بقادر على ادراك هذه الامور !
- انا اعلم ان حدي هو ...

رأني حتى صرخت بلهجه غاضبة :

- ارجع هذه الوسائد وباقي الاشياء إلى مكانها لقد قلت لك ألف مرة ان لا تتدخل بما لا يعنيك .. وذلك الشيطان العجوز ماذا جرى له حتى فقد عقله بهذا الشكل الوحشي ؟

وفجأة تفضن وجهها وندت عنها صرخة خافتة ونادتني وقد اكبت رأسها :

- انظر هنا ما الذي يؤلني بهذا الشكل ؟

فرفعت شعرها الكث مفتشاً حتى عثرت على دبوس قد غرز في فروة رأسها ، ثم وجدت دبوساً آخر .. وهنا احسست بالكلل يرهق جسدي فقلت :

- ينبغي ان اتادي والدتي ، انني خائف !

فصرخت ملوحة بيدها :

- ماذا تقول ؟ اتادي والدتي ؟ شكراً لله على انها لم تر ذلك او تسمعه ، وانت تود مناداتها ! امض من هنا !

وشرعت تبحث باصابع ماهرة عن الدبابيس الغارزة في شعرها الكث البديع ، وجمعت قواي وساعدتها على سحب دبوسين آخرين من جسدها .
- هل يؤلمك ذلك ؟

- قليلاً ! سأغتسل غداً ويزول الالم كله .

ثم شرعت في تقنيجي متملقة اياي بحنان :

- بيد اياك ان تعلم امك بما حدث لي ، ايها الكتكوت الصغير . يكفيها ما يجري بينها . انك لن تخبرها اليس كذلك ؟
- كلا !

- يجب ان لا تنسى وعدك والآن ، لنصلح سوية كل شيء .. هل تشاهد

الذي في وجهي ؟ لا . حسناً ! ان ما جرى سيبقى سرّاً بيننا .
وشرعت تمسح الارض . فقلت لها من صميم فؤادي :
- انت قديسة ، يضربونك ويعذبونك ولا تعيري اليهم بالآ .
- ما هذه السخرية ؟ قديسة ! يا له من مكان عظيم للبحث فيه عن قديسة !

كانت المرة الاولى التي يقسو فيها جدي لهذه الدرجة على جدتي ، على الاقل
في حضوري .. فرحت ابحت عن طريقة للانتقام منه على فعلته هذه .
وبعد مضي يومين ، ولجت غرفته في الطابق العلوي ، فوجدته متربماً على
الارض وقد اكب على صندوق مفتوح يعبث ببعض الاوراق . وعلى كرسي
بالقرب منه قد وضع التقويم الكنسي المؤلف من اثنتي عشرة رقعة وقد قسمت
الى مربعات بعدد ايام الشهر وقد كان جدي يحرص عليه كثيراً ويقدره ولا
يسمح لي بمشاهدته الا نادراً عندما يكون راضياً عليّ ..

وفي تلك اللحظة قررت ان امزق هذا التقويم ، فلبثت اترقب الفرصة السانحة
حتى اذا مضى جدي الى النافذة ليقرأ ورقة تزينها عدة رسوم ، اسرعت
واختطفته عدة ورقات من ذلك التقويم ، ثم عدوت حتى المطبخ حيث اخذت
المقص وقبعت في السقيفة اقصى رؤوس القديسين . ولم اكء ازيل اول صف
منهم حتى صعب عليّ قصهم على هذا النحو ، فأخذت اقصى الورق على موازاة
الخطوط التي تفصلها الى مربعات . وما ان انتهيت من قص السطر الثاني حتى
بان جدي على عتبة الباب وقال :

- من سمح لك ان تأخذ التقويم ؟
وعلى حين غرة ، ابصر بالمربعات الصغيرة المتناثرة على الارض فاخطفها
وتأملها طويلاً ، ثم القى بها وتناول غيرها حتى اذا فهم ما جرى اضطرب جسده
وتوالى تنفسه مسرعاً فرمى الاوراق في الفضاء .
واخيراً صرخ ، وهو يشدني من قدمي عن الموقد :

— ماذا فعلت ايها الشيطان ؟

بيد انني افلت منه ، وقفزت منطلقاً وارتميت بين ذراعي جدتي .. فصرخ .
وهو يكيل لنا الضربات :
— سأقتله .

وبدت أُمي فجأة ، فوجدت نفسي في الزاوية وقد وقفت امامي تحميني .
صرخت وهي تحاول ان تصد اللكمات المنهالة من قبضة جدي :
— كفى يا ابتاه ! ارجع الى صوابك !
فتهاوى جدي على نفسه قرب النافذة وهو ينتحب :
— لقد قتلتموني ، كلكم ضدي !
فأتى صوت أُمي الهزيل :
— الا تحجل من نفسك ؟ انت تسخر من الجميع بتمثيلك .

فشرع يصرخ ويرفس الارض بقدميه ، وقد اغمض عينيه بقوة ، ونفث لحيته
بشكل يبعث على السخرية ، وبدأ لي فعلاً انه خجل مما يؤتيه امام والدتي ،
وهذا ما دفعه الى اغماض عينيه ..
قالت أُمي وهي تجمع الاوراق المبعثرة :
— سألصق لك هذه الصور على قطعة من القماش .. فتغدو اكثر متانة وأجمل
مما كانت عليه . تأمل هذا التقويم لقد اهتمراً ولم يعد صالحاً .

كانت تكلمه بنفس اللهجة التي تحدثني بها اثناء الدرس عندما يصعب عليّ
فهمها . وفجأة نهض جدي ، واصلح من هندامه ، ثم سعل وقال :
— يجب عليك ان تلصقي هذه الاوراق اليوم وسأتيك بالبقية الباقية .
واتجه نحو الباب . بيد انه ما ان بلغ العتبة حتى استدار وقال ، هازلاً
اصبعه المعوج وهو يشير إليّ :
— اما هو فيجب ان اجلده !

فوافقت والدتي :
- اجل لا شك في ذلك .
ثم سألتني وهي تحنو عليّ .
- لماذا فعلت ذلك ؟
- لقد تعمدت ذلك . وان هو ضرب جدتي مرة اخرى لأنزعن له لحيته .
فهرزت جدتي رأسها ، وهي تنزع قميصها الممزق ..
قالت ، وهي تبصق محتدة :
- كان ينبغي ان تربط لسانك عن الكلام كما وعدت . يجب ان يلسع هذا
اللسان حتى يكف عن الثرثرة .
فتأملتني امي ، ثم التفتت اليّ قائلة :
- متى ضربها ؟
- ألا تحجلين يا فارفارا ، ان تطرحي مثل هذه الاسئلة على طفل صغير ؟
ذلك ليس من شأنك !

فصرخت امي ، وهي تعانقها بلهفة :
- آه ، اماء ، ايها الانسان المبارك !
- آه ، يا لها من ام عظيمة بالنسبة اليك ! هيا ، اتركييني امضي ..
وتطلعت الواحدة منها الى الاخرى يسكون لحظة ، ثم ذهبت كل منهما في
سبيلها .. وكنت ارهف السمع الى جدي يدب في الممشى في غدو ورواح لا
ينتهيان ..

لقد ارتبطت امي منذ اليوم الاول لحيثها ، باواصر الصداقة مع امرأة
الضابط اللطيفة ، واخذت تزورها كل مساء تقريبا . وهناك كانت تجتمع ببعض
افراد آل بيتلنغ ، جماعة من السيدات الجميلات ، وشلة من الضباط الشجعان .

بيد ان ذلك لم يعجب جدي ، فكان وقت العشاء يلوح بلمعته باتجاههم ،
ويغمغم :
— انهم يقيمون حفلة اخرى ، لعنة الله عليهم ! فهذه الليلة لن اجد سبيلا
للنوم .

وسرعان ما طلب من الجيران إخلاء مسكنهم ، وبعد رحيلهم اتى باثالث بالـ
وزعه مكانهم ، فكان يقول :
— لسنا بحاجة بعد اليوم الى اولئك المستأجرين ، وسأستقبل منذ اليوم
الضيوف بنفسى .

ومع قدوم نهار الاحد شرع الزوار يتوافدون علينا . ومن بينهم اخت
جدي ، ماتريونا إيفانوفنا ، كان برفقتها ولداها : فاسيلي . وهو رسام شاب ، حلو
المعشر ، رقيق القلب ، طويل الشعر . وفيكتور ، كبير الرأس وقد غطت بقع
النمش وجهه الضيق . وما ان بلغ الممر ، حتى أخذ في نزع معطفه ، وأخذ
يبلغ اذني صفيحه وترنيمه بهذه الكلمات :
— أندريه ، بابا .. أندريه ، بابا ..
فدهشت لذلك وارتعبت في الوقت نفسه ..

واتى الحال ياكوف يحمل قبثارته ، برفقة ساعاتي اصلع الرأس ، اعور ،
يلبس معطفاً طويلاً اسود يضيفي عليه مسحة الرهينة . وكان يقبع في الزاوية
متسماً .. قليل الكلام ، يردد دائماً نفس الجملة :
— ارجوك لا تجهد نفسك ، فالامر سيئان ..

وعندما تأملته للنظرة الاولى تذكرت فجأة الزمان الفابر (وكنا لم نزل
نقطن في شارع نوقايا) عندما تنامت اليّ اصوات الطبول وهي تقرع منذرة
بالشر والويل في الطرقات العامة . وشاهدت كذلك عربات سوداء مرتفعة ، وقد
التف الجنود حولها ، تتحرك من السجن باتجاه الساحة العامة ، وقد قبع فيها

رجل تحجب رأسه قبعة مستديرة وقد وضعت السلاسل الحديدية في يديه ترن
كلما تحرك في مكانه . وكانت تتدلى من عنقه لوحة سوداء ، قد كتب عليها شيء
ما باحرف بيضاء كبيرة ، انكيب رأس الرجل عليها كأنه يقرأ ما فيها ..
- هذا هو ولدي !

تلفظت امي بذلك وهي تقدمني إلى الساعاتي ، بيد انني عدت الى الورا
مذعوراً . وقد عقدت يدي وراء ظهري .. فأجاب هذا الأخير ، وقد انشقد
فمه حتى اذنه اليمنى بطريقة مخيفة :
- ارجوك ، لا تجهدى نفسك ...
وتشبث في من حزامي ، وشدني اليه وبرمني امامه بحركة ماهرة . ثم قال
وقد تركني :

- ان صحته جيدة انه لفق قوي !
واتخذت مكانا في مقعد يتسع للنوم ، وكان جدي يعتر ان ذلك المقعد كان
يخص الامير جروزينسكي فيما سلف من الايام ، وشرعت اراقب من تلك الزاوية
كيف يحاول الكبار ان يلها وكيف كانت تعابير وجه الساعاتي تتغير من غير
توقف ، الامر الذي اثار دهشتي وارتيابي ..

وتناول الضيوف الشاي الذي مزج بالروم ، واحتسوا الشراب الذي تهيه
جدتي .. واكلوا الكثير من معجناتها المشوية التي تنغمها « القشطة » ..
يشكرون جدتي على كرمها وما ان انتهوا حتى تهالكوا بترارخ في مقاعدهم وقد
توردت وجوههم وزهت الوانها ، بينما يفرق خالي ياكوف في اغانيه الشجية
بصوته القبيح ..

كان جدي مشغولاً في محادثة هامسة مع الساعاتي ، وهو يعد على اصابعه ..
وكان الساعاتي يرفع حاجبه ، ويرنو ناحية امي ، ويهز رأسه . بينما تفرق اساري
وجهه في اضطراب بادٍ خبيث . اما والدتي فكانت جالسة بين الاخوين

سيرجييف كعادتها ، تتكلم بصوت هامس رزين الى فاسيلي الذي كان يتنهد ويقول :

- آه ! ينبغي ان افكر في ذلك !

فيلتسم فيكتور ابتسامة خبيثة ويحمر قدميه على ارض الغرفة ، ثم يشرع في الانشاد فجأة بصوت حاد :

- اندريه ، يا با ... اندريه ، يا با ...

فيتوقف الجميع عن الكلام ، ويرنون بابصارهم إليه ...

قالت امه باعلاء :

- لقد حفظ ذلك عن « المسرح » إنهم ينشدون هكذا في المسرح .

امضينا ليلتين او ثلاثاً من هذه الامسيات ... وما زلت اذكر كم كنت احس بالملل والارهاق في هذه الامسيات . ثم أتى ذلك الساعاتي ، عند ظهيرة يوم احد ، بعد القداس الاخير قوياً . وكنت قابلاً في غرفة والدتي اساعدها في نزع اللآلئ من ثوب بالي عتيق . حين فتح الباب على مصراعيه ، وبان وجه جدتي المضطرب فترة قصيرة كانت تهمس اثناءها :

- فارفارا ، لقد اتى !

فلم تتفاجيء امي لذلك ، ولم تنتفض لها عضلة ، ثم فتح الباب ثانية وولج الغرفة جدي وهو يهتف بوقار زائد :

- إررتدي ثيابك وتعالى ، يا فارفارا !

فسألت والدتي من غير ان تتطلع الية أو تقف :

- إلى اين ؟

- تعالي يباركك الله ، وكفى جدالاً . انه رجل نزيه ، ماهر في عمله ،

وسيصبح اباً طيباً لألكسي .

كان جدي يتكلم باهتمام لم اعده به ، وهو ينقر على وركيه بيده من غير

انقطاع .. بينما اخذ مرفقاه يرتعشان . كأن يديه تودان الامتداد إلى الامام ،
وهو يحاول منعها من ذلك .. قالت امي بهدوء :
- لقد سبق وقلت لك ان ذلك لن يتم .

فدنى جدي اليها ، وهو يمد ذراعيه إلى الامام كرجل متسول ، وصاح
بصوت جهوري ، مرتعشاً من قمة رأسه حتى اخض قديميه :
- تعالي ، وإلا جررتك جرأ من رأسك !
- ستجرني ؟

طرحت امي هذا السؤال وهي تنهض مقطبة الوجه ، وقد غاصت عيناها
في وجهها وفيها وعيد خفيف .. وبسرعت تزعزعه عنها المعطف ، ثم تتورطها .
قالت ، وليس غير القميص يستر جسدها .
- حسناً ، جرني إذن !
فصر على اسنانه هازأ قبضته ، وصرخ :
- إلبسي ثيابك ، يا فارفارا !
قدفعته امي ، وامرعت نحو الباب وصاحت :

- حسناً ، هيا بنا ! ...
همس من رأس شفتيه :
- سألعنك .

- لست خائفة .. والآن ؟

وفتحت الباب . بيد ان جدي تشبث بها من طرف قميصها وتهاون على
ركبتيه منتحياً ، وهو يقول بصوت خافت لا يكاد يسمع :
- ستهلكين ، يا فارفارا ! اينها الشقية الماكرة لا تجلي علينا العار ..
ويبعث بأنين مؤلم ، كأن الام يعتصر قلبه :
- اماء ! اماء !

اثناء ذلك كانت جدتي قد سدت الطريق على امي واخذت تدفعها الى
الغرفة بمحركات من ذراعيها كما تفعل لفراخ الدجاج الصغيرة وهي تهمس :
- ايتها الحقاء فاركا ! عودي ، يا قليلة الحياء !
وعندما امست امي في وسط الحجرة ، اغلقت جدتي الباب بالمزلاج ، ثم
التفتت نحو جدي واقامته عن الارض بيد واحدة هازة اليد الاخرى في وجهه
منذرة :

- انت ايها الشيطان الهرم ، ايها المخلوق الاعوج !
واستندته على صرة من الثياب ، وهو حاني الرأس ، فاغر الفم هاتفة بوالدتي :
- ارتدى ثيابك ، يا فاركا !

فقالتي امي ، وهي تتناول ثيابها عن الارض :

- اني غير ذاهبة اليه ، أسمعان ؟

ودفعتني جدتي قائلة :

- امض وآت بوعاء من الماء ... هيا اسرع !
كانت تتكلم هامسة ، لكن بلهجة الأمر ... عدوت نحو الممر انفذ طلبها ،
ومن هناك ارفقت السمع إلى احدهم يسير ببطء ذهاباً وإياباً ، بخطوات ثقيلة في
الحجرة المقابلة . بينما بلغني صوت أمي تصيح في غرفتها .
- سأرحل غداً !

تابعت الى المطبخ ، حيث جلست الى النافذة كالحالم . كان جدي يتأوه ويئن
وجدتي تدمدم بشيء ما في نفسها . واغلق باب بشدة ، ثم نشر الصمت وشاحه
من جديد .. وفجأة تذكرت الغاية التي اتيت من اجلها ، فملأت وعاء بالماء
ومضيت الى الممر حيث شاهدت الساعاتي يسير حاني الرأس ويدغدغ قبعتيه
المصنوعة من الفرو ، ويتفوه بكلمات جافة ... وكانت جدتي تحب في أثره ،
مصالبة ذراعيها على صدرها ، وهي تنحني له من غير أن يشاهدها ، تقول

هامسة :

— انت تعلم ذلك جيداً ، فالحب امر لا يجبر عليه احد ! ..
وتعثر الساعاتي على عتبة الباب ، ثم مضى الى الساحة ، ووقفت جدتي
هناك ، وهي ترسم اشارة الصليب يرتجف كل عضو فيها ... ترى هل ترتجف
من الضحك أم البكاء ؟ لست ادري ! لانني في تلك اللحظة لم استطع ان اغوص
في اعماقها ...

انطلقت اليها سائلاً :

— ماذا جرى لك ؟

فانتشلت الوعاء من يدي بشدة ، حتى اسالت بعض الماء على قدمي ،
وقالت :

— من اين ذهبت لاحضار الماء ؟ اقفل الباب !

وقفلت عائدة الى غرفة والدتي ، بينما ذهبت انا الى المطبخ ، ومن هناك
اخذت استمع الى تأوهاتهما وتنهداتهما المستمرة من غير توقف ...

كان الجو رائعاً ، والشمس ترسل اشعتها الذهبية التي تخترق زجاج النافذة .
وكانت المائدة قد أعدت للغداء ، فانعكست اشعة الشمس في الصحون النحاسية
وفي الوسط تربعت زجاجتان من الشراب .. وشدت الطيور الجبسة في اقفاصها
وتقنت باشعة الشمس ، المتسلقة على حفاف النافذة . بيد ان هذا الشدو وهذه
الروعة المتألقة في وضوح النهار ، لم يبعثا فيّ شيئاً من الغبطة أبداً . كان الهـم
يفيض في قلبي . فاعزف عن التمتع بجمال ذلك النهار البديع وعن أي شيء
آخر في الحياة . واحسست بشيء يشدني الى إطلاق سراح الطيور لكي تنعم
بالحرية والانطلاق . وما ان وضعت يدي على الاقفاص حتى قناهي الى أسعاعي
صوت جدتي في المطبخ وهي تصيح . وتلطم خديها وتصرخ وهي تعدو الى
الموقد :

- لعنكم الله جميعاً • واخذكم الشيطان ! آه • يا لك من عجوز بلهاء ، يا أكلينا !

وأخرجت من الفرن فطيرة كبيرة • ونقرتها بإصبعها على القشرة المحترقة • ثم بصقت على الأرض :

- لقد احترقت حتى أصبحت رماداً ! وقد اردت تسخينها ! تفو ، ايها الشياطين هلا ذهبتم جميعاً !

وأخذت تنتحب وهي تقلب الفطيرة من جهة الى اخرى ، وتدس القشرة المحترقة • وتبئله بدموعها السخية ...

وولج جدي ووالدتي الى المطبخ • فالقت جدتي بتلك الفطيرة المشوهة على الطاولة ، فتراقصت الصحون وعلا ضجيج صاحب ...

- هل رأيتما ما جرى • كل ذلك بسبيكما • اخذكما الشيطان !
فالقت امي بنفسها عليها ، واخذت تعانقها بعد ان استعادت مرحها وهدوءها
ورجتها ان تنسى ما جرى ... بينا اخذ جدي يتطلع حوله منهكاً متفضن الوجه ، وهو ياخذ مكانه الى المائدة ويربط منديله حول عنقه ، ويتأمل مشمئزاً
بعينين منتفختين من الشمس ويدمدم :

- حسناً لننس ذلك • فقد اكلنا من قبل فطائر لذيذة • إن الله مقتر بعض الشيء ، مقابل دقائق من السعادة ياخذ سنووات من الشقاء ولا يعترف بالفائدة ...
اجلسي يا فاركا ... وانسي ما جرى !

كان يبدو كأن مساً من الهوس قد انتابه ... بقي يتكلم طوال الغداء عن الله ، وعن آهاب « الكافر » وعن المصائب الشداد التي يتحملها الأب • فقاطعته جدتي محتدة :

- هيا تناول طعامك • ولا تتكلم كثيراً !

فضحككت امي وعلت البسمة بحياها ...

واخذت تربت على كتفي وهي تسألني :
- حسناً . هل آسفت كثيراً على ما وقع منذ لحظة ؟
- كلام آسف ! بيد انني احسن الآن بالضيق والقلق . ولا استطيع إدراك
ما وقع ...

لقد اطالوا في جلستهم الى طاولة الطعام . كما جرت العادة أيام الاحاد
والأعياد ، حتى شعرت بالملل بضنيي ... ولم استطع ان اتصور ان هؤلاء
الجماعة هم أنفسهم الذين كانوا لساعة مضت يصرخون في وجوه بعضهم يستشيطنون
غضباً . وهم على استعداد للقتال في أي لحظة ... ولم استطع أن أصدق انهم
كانوا يذهبون الى حد الفعل الجدي في اقوالهم وان كلهم ذلك بعض التعب ...
لقد اصبحت معتاداً على صراخهم ، ونحيبهم ، وذلك الشجار الذي لا يفتأ أن
يتكرر ، كي يعود فيختفي بسرعة فائقة ، حتى اصبحت غير مبالٍ بما يحدث
ويقع لهم .

لقد فهمت بعد فترة طويلة ، ان الروسيين الذين اجبرتهم الحياة على العيش
فقراء كانوا يبحثون عن شيء يتلهون به حتى وان كان الحزن بعينه ، فيلمنون
به كالأطفال ، ولا يشعرون بالحجل من بلائهم إلا " فيما ندر ...
وعندما تكون الحياة رتيبة ، يصبح الألم نفسه عيداً يرحب به ، حتى ان
الحريق يصبح تسلية لذينة . حتى ان الجراح البسيطة ، في الوجه الخالي من أي
معنى يمسي زينة جميلة رائعة ...



بعد ذلك الحادث ، أمست أُمي قوية ، وعماداً للبيت كله ، بينما استسلم جدي الى صمت عميق ، وقواضع زائد ، حتى غدا غير ذلك الشخص الذي اعلمه ...

كان يقبع طوال النهار في الطابق العلوي يطالع كتاباً غامضاً يدعى « مذكرات ابي » ، ولم يعد يترك البيت مطلقاً ... كان يحتفظ بذلك الكتاب في صندوقه الضخم .. وكثيراً ما شاهدته يفسل يديه قبل تناوله من موضعه . كان الكتاب من القياس الصغير الحجم ذا سماكة كبيرة ، وكان غلافه من الجلد اصفر اللون ، وقد دون على صفحته الزرقاء الاولى هذه العبارة بحبر شاحب اللون : « الى النبيل فاسيلي كاشيرين مع اخلاص التحيات وأصدق الشكر ... » وكان يذيل هذه العبارة اسم غريب ينتهي بصورة جميلة تمثل عصفوراً يطير ... كان جدي يبذل عناية فائقة وهو يقلب الغلاف الجلدي السميك ، ويلبس نظارتيه الفضيتين ، ويتطلع مدة طويلة الى تلك العبارة ، وهو يلامس انفه محاولاً من إصلاح وضع نظارتيه . وقد سأله عدة مرات عن ماهية ذلك الكتاب . كان يجيب بشكل مثير :

— ليس من داعٍ لك لمعرفة الآن . تمهل قليلاً ، وعندما اموت ، سأتركه لك مع معطفي كذالك .

وغدا يقتضب في حديثه مع والدتي ، ولا يحادثها الا بصوت عذب لطيف ، ويرهف السمع اذا ما تحدثت إليه ، وهو يدمدم بصوت مبهم مشيراً بيده ، غامزاً بعينه كما كان يفعل العم بيوتر تماماً ..

كانت صناديقه تعج بالثياب الغريبة : قمصان حريرية مزركشة ، واثواب من البروكار طويلة من غير اكمام قد طرزت بالفضة ، وصدار من الفرو والساتان ، وقبعات مزدانة بالؤلؤ ، وعقود من الاحجار الكريمة مغلطة الالوان . وكان يحمل ذلك الصندوق الى حجرة والدتي ، ويلقي به على الطاولة ويقول ، عندما يشاهد اندهاش والدتي بالحلى :

— لقد كانت الثياب اثنى واجل في ايام صباي منها اليوم ! اما الناس فكانوا يمشون ببساطة متناهية ويسودهم الحب والوثام اكثر منهم في هذه الايام . واعتقد ان ذلك الزمن ولى الى غير رجعة ، فجبرني هذه الاشياء ، وانتهى ما يعجبك منها ..

وذات مرة ، نزلت امي عند رغبته ، وذهبت الى الغرفة المجاورة وارتدت ثوباً طويلاً ضارباً الى السواد ، وقد زخرف بخيوط من الذهب ، واعتمرت غطاء مزيناً بالآلىء .. قالت وهي تتحنن لجدي :

— ايعجبك هذا ، يا صاحب السعادة ؟

فاشرق وجه جدي وهو يلهث ، واخذ يدور حولها هازأً بذراعيه ، يدمدم بارتباك كمن يحلم :

— آه ، فارفارا ! لو كنت غنية ، وكان هناك ائناس اشراف فيما حولنا !

كانت والدتي تشغل غرفتين اماميتين في المنزل ، حيث انها كانت تستقبل العديد من الزوار . وكان اكثر الزوار تردداً علينا الاخوان مكسيموف . كان احدهما يدعى بيوتر ، ضابط قومي البنية ، بهي الطلعة ، ذو لحية عريضة شقراء وعينين زرقاوين ، وقد جلدني جدي مرة بحضوره يوم بصقت على رأس ذلك الأصلع . اما الآخر فيدعى يفجيني ، شاب طويل القامة فارغها ، صاحب الوجه

وله ساقين طويلتين ، ولحية سوداء ، وكان دائماً يرتدي بذلة خضراء ذهبية
الازرار ، ومن عادته ان يلقي بشعره الطويل من فوق جبهته العالية الى الوراء ،
وهو يبتسم بتواضع مكشوف ، ثم يأخذ يروي حديثاً ما بصوت خافت « مبجوح »
يفتتحه دائماً بهذه العبارة :

— أنت ترين ، يخيل إليّ ان ..

فترهف والدتي سمعها الى حديثه ، وقد اغلقت عينيها نصف اغلاقاً ، وكانت
غالباً ما تقاطعه ضاحكة :

— انت ما زلت طفلاً يا يفجيبي فاسيليفيتش ، وارجو ان تغفر لي
قولي هذا ..

فيثني الضابط على قولها ، ضارباً على ركبته زيادة في التأكيد :

— اجل ! طفل ! إنه لكذلك !

انقضت عطلة الميلاد في حفل صاحب ، فكان الضيوف يجتمعون عندنا كل
ليلة وقد تزوا بازهي الثياب ، كانت ثياب امي اجملها ، ثم ينطلقون من الدار
للقيام ببعض الزيارات ..

كان المنزل ، كلما تدافع ذلك الجمع النشوان من البوابة ، يبدو كأنه يغوص
في الارض ، ويسبح في لجة من الكآبة والسآمة . ويفرق في صمت عميق خائق ..
وبعدها كانت جدتي تجوب الغرف معيدة كل شيء الى سابق ترتيبه ، بينما يقبع
جدي مديراً ظهره الى قرميد الموقد يتدفأ وهو يدمدم بينه وبين نفسه :
... حسناً ، سريّ إلام يستقودها هذه الطريق التي تسلكها الآن .

وما ان انتهت فترة عيد الميلاد حتى قادتني والدتي مع ساشا ، ابن الحال
ميخائيل إلى المدرسة .. وكان هذا الاخير قد تزوج للمرة الثانية ، وما ان مضى
على زواجه عدة ايام حتى اخذ ساشا ينال عذاباً مرّاً من خالته التي كرمته
بسرعة فائقة ، ونزولاً عند رغبة جدتي ، اقترح جدي ان يتكفل بتربيته .
وداومنا مدة شهر واحد على حضور الدروس . ولست اذكر ، من كل ما تلقنته

خلال تلك الفترة ، إلا شيئاً واحداً ، وهو انه لا يكفي عندما أسأل عن اسمي ان اجيب « بشكوف » .. بل ينبغي أن أقول : « إسمي هو بشكوف » .
وكذلك انني لا استطيع ان اخاطب المعلم هكذا : « لا تصرخ في وجهي على هذا النحو ، يا استاذ . فانا لا ارهبك ! .. »

وسرعان ما كرهت المدرسة .. بينما ازداد بها ابن خالي شغفاً ، ورافق عدداً لا بأس به من الطلاب . بيد انه ذات يوم غفا اثناء الدرس وشرع يصرخ في نومه : « كلا لا أريد .. » .. وعندما استيقظ استأذن بمغادرة الصف ، بيد ان الطلاب قد هزأوا منه بقسوة .. ونحن في طريقنا الى المدرسة صباح اليوم التالي توقف عن المسير ، بعد ان تجاوزنا ساحة سينابا ، وقال لي :
— ستكمل الطريق من دوني ، فاني لست بذهاب هذا اليوم إلى المدرسة ،
انني افضل القيام بنزهة ..

وجلس القرفصاء ، ووارى كتبه في الثلج ، وانطلق .. كنا في كانون الثاني والشمس مشرقة ، وقد التمعت الارض بما اضفت عليها اشعتها وضياءها .. وانتابني شعور بالغيرة من ابن خالي ، بيد انني صررت على اسناني واكملت طريقي باتجاه المدرسة حباً بأمي .. وكان ان سرقت كتب ساشا المدفونة في الثلج ، فاتخذتها ذريعة لعدم ذهابه الى المدرسة في اليوم التالي .. وفي اليوم الثالث ، اكتشف جدي تصرفات ساشا وسلوكه الغريب .

وقدّم كلانا للتحقيق : فقد جلس جدي وجدتي وامي خلف الطاولة في المطبخ يتولون التحقيق . وما زلت اذكر ، حتى الآن ، اجوبة ساشا السخيفة على اسئلة جدي :

— لماذا تمكنت من الذهاب إلى المدرسة ؟

— لقد نسيت مكانها .

— نسيت ؟

- أجل ، وبقيت ابحت عنها وقتاً طويلاً ..
- كان ينبغي ان ترافق الكسي . فهو يعرف الطريق .
- لقد افقدت الكسي .
- افقدت الكسي ؟
- أجل .

- وكيف يعقل ذلك ؟
 غرق ساشا لحظة في التفكير ، ثم قال متنهداً :
 - لقد حدثت عاصفة ثلجية فلم أعد اقدر على رؤية شيء مطلقاً .
 فقهقه الجميع . لان الطقس كان بديعاً صافياً مشمساً ذلك اليوم . حتى ان
 ساشا لم يستطع ان يجيب عن ثغره ابتسامة خفيفة . بيد ان جدي صرّ على
 أسنانه وقال بمكر :

- الم تستطع الامساك بيده أو حزامه ؟
 - لقد فعلت ، بيد ان الرياح عصفت بي وافقدتني اياه ..
 كان يتكلم بلهجة فاقد الامل . فكرهت ذلك الكذب الذي لا فائدة منه ،
 ولم أستطع أن أفهم معنى لعناده .

وبعد ان اخذنا نصيبنا من الجلد ، استأجروا لنا أحد عمال المطافىء ، وهو
 شيخ ذو ساعدين ملتويتين ، ليرافقنا الى المدرسة . وقد اوكلت اليه مهمة
 مرافقتنا الى المدرسة والحذر من ان يضل ساشا الطريق او يحميد عنها . لكن
 عبثاً ، فما ان بلغ خندق الساحة في اليوم التالي حتى نزع ابن خالي احد حذائي
 والقى به عن يساره . ثم نزع الحذاء الثاني والقى به عن يمينه ، واخذ يخب في
 الساحة يبحر به .. وعدا الشيخ محاولاً جمع الحذاءين ، ثم قفل عائداً بي إلى الدار
 وقد ارتجفت منه الاوصال وبدا الرعب عليه ..
 بقيت جدتي وامي . طوال ذلك النهار ، تبعثان في البلدة عن الهارب حتى

عثرنا عليه . قبيل المساء . في حانة شيركوف بالقرب من الدير ، يسرّي عن الجمهور برقصاته .. ورجعنا به إلى الدار . بيد انها لم ينزلا به عقاباً لشدة القلق والاضطراب اللذين اثارهما فيها صمته العنيد . وتعدد بالقرب مني في السقيفة . يضرب بقدمه الفضاء وهو يقول بهدوء :

- خالتي لا تحبني . وجدي كذلك ، فلما بقائي هنا ؟ سأتعرف إلى مكان اللصوص من جدتي ، واهرب اليهم .. وعندئذٍ ستعلمون كل شيء .. لنفرض معاً ، ما رأيك ؟

كان الهرب بالنسبة اليّ مستحيلاً ، فقد كنت ارمي هدفاً في ذلك الحين ، وارنو إلى غاية اخرى في الحياة . وهي ان اصبح ضابطاً ذا لحية كبيرة شقراء . الامر الذي يجبرني على متابعة دروسي ، والمواظبة على المدرسة . وعندما شرحت لابن خالي المشروع ، غرق في تأمل عميق ، ثم اجاب وقد رأى فكرتي عين الصواب :

- حسناً ! فعندما تصبح ضابطاً اكون انا قد اصبحت زعيماً للصوص ، وينبغي عليك ان تمسك بي .. وسيضطر احدنا إلى قتل الآخر . او اخذه اسيراً ، وانا لن اقتلك مطلقاً مهما كلف الامر ..
- ولا انا كذلك .
وعلى هذا تم قرارنا .

* * *

في الغداة عندما استيقظت وجدت جسمي قد امتلا لطخاً حمراء صغيرة .. إنه الجدري ! ..

نقلت إلى غرفة في الطابق العلوي منفردة ، حيث قُبعت هناك زمناً طويلاً مضطجماً في سرير وقد قيدت اليه ذراعاي وساقاي بربطات عريضة ، لا اعني ما يجري حولي . وكانت جدتي الانسان الوحيد الذي يموطني ، تناولني الطعام

بالمعلقة كأنني طفل صغير . وتحكي لي أقاصيص وخرافات لا تنضب .. وذات يوم ، وقد تحسنت حالتي وامسيت في طريق الشفاء ، فقد فكت اللفائف والرباطات عن ساقي وذراعي ، وان بقيت اكمام سترتي مربوطة بشكل يمنعني من حرك وجهي باصابعي ، تأخرت جدتي عن زيارتي كعادتها ، فتضايقت لذلك وتصورت أشياء عدة .. وفجأة تصورتها ممددة على ارض الحجرة التي يلاها الغبار . وقد دس رأسها في التراب ، وتباعد ذراعاها . وحز عنقها من الوريد إلى الوريد تقريباً كمنق العم بيوتر ، وعيناها الكبيرتان الخضراوان تدوران في محجريها من غير توقف .

قفزت من السرير ، وهشمت زجاج النافذة بقدمي وكتفي . ورميت بنفسي على الثلج تحت النافذة .. في ذلك المساء كانت امي تستقبل بعض الزوار ، مما حجب عن اسماع أي إنسان صوت تحطم الزجاج .. وبقيت مدة طويلة ممدداً على الثلج من غير ان يعلم احد بأمرى ، ولم يكسر أي عظم ، وان وهن عظم كتفي ، في حين نالني الزجاج في مواضع كثيرة من جسدي بجروح . كما أصبحت عاجزاً عن تحريك ساقي ، بقيت على اثر هذا الحادث مضطجعا في غرفتي مدة ثلاثة اشهر من غير ان آتي حركة . أرفف السمع إلى اصطخاب الحياة في الدار ، وإلى صوت الابواب تصطقق من غير انقطاع ، وغدو الناس ورواحهم .

كانت الرياح تزجر ، وعواصف الثلج تهب عاتية فوق السطوح ثائرة امام باب الطابق العلوي ، تعصف بالنوافذ بشدة ، تخترق المدخنة صارخة حزينة . وفي النهار كنت استمع إلى نغيب الغريان ، اما في الليالي الهادئة فكانت اصوات الذئاب المرعبة تتناهى الي عبر الحقول البعيدة ، ونفسي تنضح بتلك الموسيقى المرعبة ..

ومن بعدها اتى الربيع ، خجولاً هادئاً ، وطرق نافذتي ببشر وفرح ، واخذت الهرقوء على السور وتلمب ، وانغام ربيعية حاوة تنساب عبر النافذة ،

من تكسير الجليد ، وقد حرج الثلوج على السطوح ، إلى رنين أجرام المربات
التي ازدادت بنزوح الشتاء ..

ولن تتوانى جدتي عن زيارتي لحظة واحدة .. واخذت في المدة الاخيرة
تكثرت من شرب الفودكا ، حتى انها اخذت في حمل ابريق الشاي معها مخفية
اياها تحت سريري ، وهي تحذرنني بقولها :

- إياك ان تعلم جدك الشيطان بهذا ، ايها العصفور الصغير !
- لماذا تشربين الخمر ؟

- صه ، ستعرف ذلك عندما تكبر ..

وبعدها تأخذ جرعة من الابريق . ثم تمسح فمها بكم قميصها ، وتلتفت
نحوي مبتسمة :

- حسناً ايها الفتى اللطيف ، عن كنا نتحدث البارحة ؟
- عن والدي .

- واين توقفنا عن الكلام ؟

وعندما اخبرها ، يأخذ حديثها الموزون ينساب طوال ساعات ..
فقد كانت البادئة في الحديث عن والدي من غير ان اسألها ، فذات يوم
كانت منهوكة القوى ، هادئة ، حزينة :

- شاهدت في أحلامي ليلة البارحة اباك . لقد كان يلبعث من فمه صفير
لطيف . وهو يحوب الحقل ، وقد حمل في يده عصاً من شجر الجوز ، يعدو
خلفه كلب مفصوم الجسم وقد تدلى لسانه الوردي حتى بلغ الارض .. إن
مكسّم سافاتييفيتش ما زال يعودني كثيراً في هذه الايام في أحلامي . وأنا جاهلة
سبب ذلك .. أعتقد ان روحه متألّة هائمة ..

وبقيت خلال أسابيع متتالية تحدثني عن والدي فتحكي لي عنه أفاصيل ،
تبلغ في أهميتها ، باقي قصصها الاخرى . كان أبي إنناً لجندي ترفع إلى رتبة

ضابط بعد خدمة طويلة ، لكنه بتعسفه لمرؤوسيه نفى إلى سيبريا . وهناك في
مجاهل سيبريا ولد أبي ، فعاش حياه عسيرة شاقة .. واخذ ، ولم يزل طفلاً ، في
محاولة الهرب من المنزل .. وذات يوم أفلت والده كلباً من كلاب الصيد ، وطفق
يبحث عنه في الغابات كأنه أرنب هارب .. وعندما وجدته ضربه ضرباً مبرحاً
حتى أتى الجيران واختطفوه منه وخبأوه في منزلهم .. فسألت :

— هل يجلدون الصغار دائماً ؟

فأجابت بسكينة :

— دائماً !

ولم يتجاوز أبي التاسعة حتى توفي والده وكانت والدته قد توفيت وهو لم
يزل طفلاً .. فتبناه عرابه الذي كان يعمل نجاراً ، والحقه بمعمله في مدينة برم
واخذ يعلمه مهنة النجارة ، بيد ان والدي سرعان ما لاذ بالهرب . شرع في
باديء الامر ، يجر العميان في الطرقات ، حتى وفد اخيراً إلى نيجني نوفجورود ،
وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، وأخذ يعمل ، عند متعهد للمراكب
يدعى كولشين ، نجاراً . وما أن بلغ العشرين حتى أصبح مشهوراً في صنع
الغرف الخشبية وتنجيد المفروشات .. وكان المصنع الذي يعمل فيه نجاراً يجاور
منزل جدي « والد أمي » في شارع كوفاليكا ..
فقهقهت جدتي وهي تقول :

-- سور منخفض ، وساقان رشيقان .. وهكذا فقد كناءنا وفاريا ، نغطف
توت العليق في الحديقة . عندما تطلعت إلى السور وشاهدت والدك يقفز من
فوقه بشكل أفقدني صوابي . واتي في اتجاهنا يتخايل في مشيته بين أشجار
التفاح ، فتى مارداً يرتدي قميصاً ابيض اللون ، وسروالاً مقلماً ، حافي القدمين
عاري الرأس ، يربط شعره الطويل إلى الخلف بربطة من الجلد . وماذا تعتقده
اتي يفعل ؟ أتى يطلب يد أمك ! وكنت قد رأيته مرات عدة من قبل يتخطر

تحت النافذة . فأقول في نفسي كلما شاهدته : « ما ابدع هذا الفتى ! » وهكذا يمت نحوه عندما يجاءني ، وقلت : « لماذا اخطأت السراط المستقيم ، يا عزيزي ؟ » . فقال ، وقد ركع على ركبتيه : « اكونينا إيفانوفنا ، هأنذا ، وها هي ذي نفسي بكليتها تجثو عند قدميك ، وها هي فاريا ، محبة بالمسيح ، ساعدتنا على الزواج ! » . فعلاً ، فهذا ليس بالامر السهل ! فبغت^٤ ، ولم اعد قادرة على الكلام .

« تلفت^٥ ، فشاهدت أمك الماكرة متوارية خلف شجرة تفاح ، وقد تورد وجهها ، وهي تشير بيديها . وقد طفحت عينها بالدموع . قلت لها : « آه ، أيتها القمية ! أيها العصفوران ما هذا الذي ألتيتاه ؟ هل فقدت إحساسك يا فارفارا ؟ وأنت أيها الشاب ، هل فكرت فيما تفعل ؟ أفلمست تزنو إلى اكثر ما في استطاعتك مناله ؟ » . كان جدك غنياً في تلك الايام ، إذ أنت امواله لم تكن قد قسمت بعد بين اولاده ، كان يملك اربعة منازل . وقدراً من المال لا يحصى . وكان أتباعه يكنون له قدراً عظيماً من الاحترام ، علاوة على ذلك فقد منحوه ، بزة وقبعة مزخرفتين بالقصب إحتفالاً بالعام التاسع لترأسه المعمل . بيد أنه كان متمجعراً عظيماً الكبرياء ، في تلك الآونة ! وهكذا فقد قلت ما ينبغي قوله ، وكنت مضطربة طوال الوقت ، والحسرة تمزق قلبي أمسى عليها . فقد بدا اليأس على محياهما قاتلاً . وعند ذلك نهض والدك وقال : « انني عالم أن فاسيلي فاسيليفيتش لن يزوجني فاريا بارادته ، لأجل ذلك لا بد لي من أن اخطفها إذن ، وها نحن في أمس الحاجة إلى مساعدتك » . . مساعدتي تصور ذلك ! لقد طردته ، ورفعت يدي قاصدة ضربه ، بيد انه لم يتحرك من مكانه . قال : « تستطيعين رمي بالحجارة إن أردت ، بيد انه ينبغي أن تساعدني ! فأنا لست براجع عن رأيي ! » وعندئذ تقدمت فارفارا نحوه ، واضعة يدها على كتفه ، وقالت : « لقد أصبحنا زوجاً وامرأة منذ زمن طويل ، منذ شهر ايار . . وكل

ما نحن بحاجة اليه هو الاكليل فقط .. عند ذلك تهاويت على الارض كأنني
تلقيت ضربة قاضية ! آه ، يا الهي ..
وتبايل جسد جدتي من الضحك ، ومسحت الدموع من مقلتيها ، واردفت
وهي تلتهد بسعادة :

— لم تول صغيراً بعد لتدرك الفرق بين معاشرة رجل وامرأة اعتبارية وبين
الزواج . انما يجب ان تعلم أنه امر فضيع ان تلد فتاة من غير زواج . ينبغي ان
تتذكر ذلك عندما تصبح شاباً فلا تزجر الفتيات في مثل هذه الامور ، تلك
خطيئة لا تفتقر ، وتصبح مسؤولاً عنها ، لانك ستسبب التعاسة والشقاء للفتاة ،
ويصبح الطفل من غير اب شرعي ، ينبغي ان لا تنسى ذلك مطلقاً ! ينبغي
ان ترحم تلك المرأة ، وان تحبها من كل جوارحك ، ليس لمجرد المتعة . وهذا
درس كبير إياك أن تنساه .

وسرحت لحظة في تأملاتها قبل ان تتمالك نفسها . وتتابع قصتها من جديد :
— إذن ماذا ينبغي ان افعله في مثل هذه الحال ؟ ضربت مكسم على رأسه
وجررت قاريا من جدائلها . بيد ان والدك افضى اليّ بشيء عظيم على جانبي
كبير من الحس السليم ! « ان الضرب لا يصلح المسألة ! » . وازافت والدتك :
« ينبغي ان توجدني لنا مخرجاً لهذه المشكلة ، ثم تضربيننا ، فقلت له : « هل عندك
شيء من المال ؟ » . فأجاب : « عندي الشيء القليل منه . بيد انني قد ابتعت
به خاتماً لفاريا » . فسألته : « هل يساوي ثلاثة روبلات ؟ » . فأجاب : « كلا
بل مائة روبل تقريباً » .. وكانت الاشياء في تلك الآونة بخسة جداً ، المال
يكلف غالياً . تأملت والدك ووالدتك وهما يقفان امامي ، انها صبيان صغيران
لا اكثر ، وابلهان كذلك . قالت امك : « لقد دسست الخاتم تحت احد الالواح
حتى لا ترينه . والآن نقدر ان نبيعه » . إنها طفلان ، اليس كذلك ؟ حسناً ،
لقد قررنا ان يتم الزواج خلال اسبوع ، وكان عليّ ان اتفق مع الكاهن على ذلك

آه لكم بكيت آنذاك . وانفطر قلبي وارتحف خوفاً من جدك ، بيد انه كان يحب فاريا ويمطف عليها ..

« كان هناك عدو واحد لأبيك ، رجل حقوق شرير من رؤساء العمال . بقي مدة طويلة يراقبها فاستطاع تخمين كل شيء . ففي ذات يوم ألبست ابنتي الوحيدة أبهى ما عندي من ثياب ، وانطلقت بها من البوابة . وخلف احد المنعطفات ، كانت ترويكاً تنتظر مركبتها ، وبعث مكسيم بصفير خافت من بين شفثيه .. وها هما يذهبان .. رجعت أدراجي إلى المنزل ، وقد انسابت دموعي على خدي .. واذا بذلك الوغد اللئيم يدنو مني بمكر قائلاً : « انني رجل طيب القلب ، ولا ابغي تهديم سعادتهما . انما اطلب منك اعطائي خمسين روبلا فقط يا اكوлина إيفانوفنا ! » . كنت لا املك شيئاً ، فانا اكره المال ولا ادخر منه شيئاً ، وأجبت به بلاهة : « انني لا املك شيئاً من المال ، ولن أعطيك شيئاً ! » فأجاب : « إذن عديني بان تدفعين لي » . فصرخت : « أعدك ؟ ومن اين آتي بالمال ان وعدتك ؟ » . فأجاب : « أيصعب عليك أن تحتلبيه من زوج ثري بنص به ؟ » . يا لي من غبية ! كان ينبغي ان اجره إلى نقاش طويل واحتيال عليه ، بيد انني بدلاً من ذلك بصقت في وجهه ، ومضيت في حال سيئلي . فتبعني حتى الساحة ، وبألفضيحة التي أثارها !

واغمضت عينيها ، بينما علت شفثيها ابتسامة شاحبة :
« وحتى هذا اليوم ، انني كلما تذكرت ما تلا ذلك حماقة ولؤم ، ترتعد فرائصي .. اخذ جدك يهدر كوحش مفارس كاسر . فقد كانت صفقة بالنسبة إليه . فقد كان يرنو إلى فارفارا ويفتخر بأنه سيزوجها من سيد نبيل ، واليكن النبيل الذي انتقته ؟ بيد ان العذراء الطاهرة تعلم اكثر منا من هم الاشخاص الذين يفهمون بعضهم بعضاً .. وشرع جدك يركض في الساحة وكأن النيران تلتهم جسده . ينادي يا كوف ، وميخائيل ، والسائس كلهم ، ورئيس العمال

اللئيم ، الذي شاهده يحمّل عصاة .. في حين تناول ميخائيل بندقيته .. كانت خيولنا جسورة ، والعربة خفيفة سريعة ، فقلت في نفسي : « سوف يلحقون بهما من غير شك ! » .

« بيد ان ملاك فارفارا الحارس الهمني فجأة ، فأخذت مكينا وحزرت به الجبل .. وتوقعت أن ينقطع في الطريق . وهكذا كان .. فقد خارت مقاومة الجبل . وكاد يقضي على جدك وميخائيل وكليم . واضطروا إلى التوقف بعض الوقت لاصلاح ما حدث . وما أن بلغوا الكنيسة اخيراً حتى كانت فاريا ومكسيم واقفين أمام بابها ، وقد تم زواجهما .. شكراً لله !

عند ذلك القى رجالنا بأنفسهم على مكسيم ، بيد إنه كان مقداماً قوي البنية ، وقلائل من الرجال يتمتعون بالقوة التي يتمتع بها مكسيم .. وهكذا فقد أطاح بميخائيل والقاه أرضاً وأصابه برضوض في ذراعه ، وأتبع كليم به سريعاً ، لذلك وجل منه جدك وياكوف ورئيس العمال ، ولم يحدوا الشجاعة الكافية على الدنو منه . وبقي مكسيم متالكاً أعصابه ، على الرغم من آجام غضبه .. فتوجه إلى جدك قائلاً : « التقى بهذه العصاة هناك ! فأنا رجل احب السلام ، وما حصلت عليه كان نعمة من الله ، وليس لأي إنسان حق في أخذه مني وهذا هو ما أطلبه منكم ! »

ورجع رجالنا أدراجهم .. جلس جدك مكتئباً وصرخ : « وداعاً يا فارفارا ! فأنت لست ابنتي بعد الآن . وليس لي رغبة في رؤيتك بمعد الآن . فسيان عندي رؤيتك حية أم ميتة » وعاد إلى المنزل حيث أمطرتني بوابل من السباب والضرب . بيد انني ركنت إلى الصمت ولم أقل اية كلمة . « كنت أعلم ان كل ذلك يمضي سريعاً ، وان ما ينبغي أن يكون سيكون . قال لي « إسمعي يا أكوлина ، يجب أن تعلمي أن ابنتك ذهبت إلى الابد ، كأنه لم يكن لك ابنة مطلقاً ، أتفهمين ؟ » . أما انا فكنت دائماً أفكر بيني وبين نفسي :

« أيتها الاحمر الرأس ، إغرق في الكذب ! لا بأس عليك ، إنك الآن في ثوب
نفسية من الغضب ، لكن ذلك لن يطول .. فالغضب كالجليد ، لا تلمحه الشمس
إلا ويذوي ! .. »

كنت أصغي اليها لاهث الانفاس .. فقد كان في روايتها أشياء عدة تروعي ،
لان جدي قد روى لي قصة زواج أمي بصورة مختلفة جداً عن رواية جديتي ..
لقد عارض الزواج فعلاً حسب ادعائه ، ولم يسمح لأمي أن تأتي المنزل بعد
ذلك ، لكن هذا الزواج كما قال لي ، لم يكن سرياً مطلقاً ، بل حضره بنفسه
وترددت وأنا احاول إيضاح ذلك من جدتي ، لكنني فضلت حكايتها التي كانت
أكثر روعة وخيالاً ..

وأخذت تهتز في مقعدها ، وهي تتحدث وتبالغ في تمثيل المشهد بحركات
مثيرة عندما تبلغ مشهداً مخزناً أو مرعباً من حكاياتها .. وفي اغلب الاحيان
كانت تغمض عينيها ، ويرتجف حاجبها ، بينما تعلو بحياها إبتسامة فرحة ،
وكنت أرتي لتلك الطريقة الاعتبارية التي تعفو فيها عن كل شيء ..

« لقد بقيت مدة اسبوعين أو ما يزيد لا اعلم شيئاً عن فاريا ومكسيم ومحل
إقامتهما . ولكنها أرسلت إليّ بطفل صغير يعلمني مكان إقامتهما . وعندما خرجت
نهار السبت التالي بحجة الذهاب إلى الكنيسة لحضور قداس الغروب ، مضيت
اليها بدلاً من الذهاب إلى الكنيسة .. وفي جناح صغير من دار سيوتينسكي
يقطنه عدد من العمال ، كانوا يقيمون .. كانت القذارة تملأ الدار ، تعج بالحركة
والضوضاء بيد انهما لم يعبرا بالأ لذلك ، وبقيتا يلوان ويمرحان كهryn سعيدين .
وابتعت لهما بعض الحوائج من سكر ، وقمح وطحين وشاي وبعض المال سرقته
من جدك ، بيد ان والدك أبى أن يأخذه ، وقال شاكياً : « نحن متسولان ؟ » .
واخذت فارارا تلحن نفس النغم : « لماذا احضرت هذه الاشياء يا أماء ؟ » .
فقلت مغتاضة بلهجة موبخة : « إنني ام بعثها الله إليك أيها الابسه ! أما انت

ايتها المجنونة فاني املك الحقيقة ! هل سمعت ان شخصاً يستطيع إهانة امه ؟
فاذا اهانها على الارض مرة ، جمل ام الله في السماء تبكي .. ، عند ذلك حملني
مكسب بين ذراعيه واخذ يلف بي في ارجاء الغرفة فقد كانت قوياً كالوحش ،
واخذت قارياً تزهو مفتخرة باعتزاز عن « دراهما » ، وكأنها مربية هرمة ..

« وهكذا جرت الامور مدة طويلة .. حتى اصبحت انت على وشك ان
تطل على الوجود ، وجدك لم يزل معتصماً بالصمت انه انسان شرير ، ولم اتوان
عن زيارتهما الامر الذي لم يخف عنه ، وان تظاهر بالجهل .. بيد انني كنت
ادرك ان قلب الاب لن يبقى اصماً .. واتي الوقت المناسب .. كان مساء ليل
عاصف ، والرياح تضرب النوافذ وتدوي بوحشية ، وقد كنت الى جانب جدك
والنوم لا يرود اجفائنا .. وفجأة نهضت .. وقلت له : « في هذه الليالي العاصفة
يرقد الفقراء بتعاسة بينما الاثرياء الذين ترهق الخطيئة ضمائرهم هم اكثر تعاسة » ..
ومن غير انتظار قال جدك : « كيف حالهما ؟ » فقلت : « لا بأس ، ليست سيئة ! » .
فسألني : « عن معتقدين انني اسأل ؟ » . قلت : « عن ابلتنا فارفارا ،
ومكسيم ! » . فصرخ : « وكيف اعتقدت ذلك ؟ » . فقلت له : « يكفيننا
مهزلة ! لقد اتى الوقت الذي يجب ان نكف عن ذلك الهراء فهو لا يجلب
السعادة لاحد ! » . فتنهد طويلاً ثم قال : « ما اخبار ذلك الغشيم المجنون ؟
— يقصد والدك — لقد تزوجت بابل ، اليس كذلك ؟ » . قلت له : « ابله ! ان
الابله هو الذي لا يعمل ويعيش عالة على الآخرين ، لو القيت نظرة تأملية على
ولديك ياكوف وميخائيل لوجدتهما وحدهما الابلهان المجنونان ! من يأتي بالمال
والاشياء لهذه الدار ؟ انت وحدك فهل يساعدانك في العمل » . وعند ذلك
امطرتني بوابل من الشتائم يعلم الله وحده عددها ، وبقيت ساكنة حتى قال اخيراً :
« كيف خدعت بانسان اجهله ، ولا يدري احد من أين اتى ؟ » . وبقيت
لائذة بالصمت حتى تعب من حديثه ، عندئذ قلت : « من الافضل ان تذهب
وتشاهد بنفسك الحياة التي يعيشانها هنا حلوة رائعة ! » . فقال : « ذلك شرف

لا يستحقانه ، فليجيئا هما إلى هنا ا . . وعند ذلك طفت ابكي من الفرح والغبطة حين تلفظ بذلك ، فيما راح هو يحل ضفائر شعري وهو يدمدم :
« كفاك نجيباً ، ابتها المعجوز الحقاء ا اتمعدين انني بدون قلب ؟ » . .

وهكذا أتيا لزيارتنا ، والدك والدتك ، في عيد الفصح . . كنا جيلين جداً وانيقين . ووقف مكسيم تجاه جدك فلم يبلغ هذا الاخير اكثر من كتفه . قال له مكسيم : « لاتظن ، يا فاسيلي فاسيليفيتش ، أنني اتيت مطالباً بالمهر . لا أبداً ا بل اتيت اقدم احتراماتي الحارة لوالد زوجتي فقط » . فاغضب جدك لذلك ، وقال : « ايها الوحش الكبير ا كفانا هزاراً فقد حان الوقت لتأتي الى دارنا وتقطن معنا » فعقد مكسيم ما بين حاجبيه وقال : « هذا يتعلق بفاريا ، وسأعمل على اسعادها فكل شيء يرضيها يرضيني » .

لقد سكنا في الجناح المطل على الحديقة ، وهناك ولدت انت ، عند الهجير . . وعندما عاد والدك لتناول طعام الغداء ، واذا بك تطل عليه فكاد يفقد صوابه من السعادة والفرح ا وكاد يقتل والدتك بداعباته . . ثم حملني على كتفه ، وانطلق بي عبر الساحة لأخبر جدك بمجيء حفيد آخر له . . ففرق جدك بالضحك ، وقال : « يا لك من شيطان يا مكسيم ؟ » .

« وقد كره خالاك مكسيم كثيراً لأنه كان فظناً ، سليط اللسان ، ماهراً في اكتشاف الإلعيب والحيل . . وفي يوم عاصف بينما كان مكسيم وخاليك عائدون من بعض الزيارات ، أقنعوا والدك بالذهاب الى بحيرة دو كوف بحجة انهم يريدون التزلج هناك ، ولكنهم ما ان بلغوا البحيرة حتى القوبه فيها . . » .
— ما الذي يجعل خالي شريرين بهذا الشكل ؟

فجأبت جدتي بلهجة صامته هادئة .

— انها ليسا بشريرين ، انها بكل بساطة ابلهان . . لقد القيا به في الحفرة اذن بيد انه طفا على وجه الماء وتمسك باطراف الجليد ، عند ذلك شرعا

يدوسان على اصابع يديه بأحذيتيهما ومن حسن حظه انه كان صاحياً بينما كانا
ثملين .. وبعون الله تدبر امره وبقي في وسط البركة لا يطفو غير رأسه كي يتنفس
بينما شرعا هما يرميانه بالجليد من غير ان يصيباه ، واخيراً تركاه ومضيا ظناً
منهما بأنسه سيفرق . ونجا اخيراً من البركة وانطلق الى مركز الشرطة وكان
رئيسها يعرفه كما يعرف افراد الاسرة جميعاً فسأله عما جرى له .. فلم يخبره بما
حدث فعلاً بل قال له : « لقد ذهبت الى البحيرة ثلاً حيث سقطت هناك من
خلال الحفرة » . بيد ان رئيس الشرطة ادرك أنه يكذب فهو يعرف تماماً أنه
لا يشرب .. ودلكوا له جسمه بالفودكا هناك في الحفر ودفنوه باغطية جافة ثم
اقوا به الى المنزل .. ولم يكن ياكوف او ميخائيل قد رجعا بعد الى الدار ..
كان ازرق اللون . مهشم الاصابع ، والدم يسيل منها ، وقد شاب شعره وغدا
ابيض اللون .. فصرخت فارفارا .

— ما الذي فعلاه بك ، يا مكسيم ؟

وشرع رئيس المركز يطرح عليه الاسئلة التي لا تنضب .. بينما رحمت
اساول ان اعرف منه الحقيقة بعد ما اوكلت امر المفتش الى فارفارا قال
هامساً : « امضي واجثي عن ياكوف وميخائيل واعليهما بن يقولنا اننا افترقنا
عند شارع يامسكاي ، ونبيهما من ان يخلطا الامور ، والا وقعنا في متاعب مع
الشرطة » .

« قمضيت الى جدك واخبرته بالحقيقة فارتدى ثيابه وهو يرتعد خوفاً ..
وانجبه جدك الى مكسيم وقال له : « شكراً لك يا بني ، لو كانت غيرك في
مكانك لتصرف بطريقة اخرى . اني ادرك ذلك تماماً . وشكراً لك يا ابنتي اذ
اتيتني برجل كهذا الى داري ! » .

« وبقي والدك بعد ذلك مدة ثلاثة اسابيع وهو يهذي ويقول : « لنرحل
الى مدينة اخرى ، يا اماه ، انني اكاد اختنق هنا » . وسرعان ما رحل بعد

ذلك الى استراخان حيث كانوا ينتظرون زيارة القصير فطلبوا من والدك ان يشيد لهم قوس نصر . واهجرا على اول مركب بخاري .. كانت الكأبة تخيم يوم الفراق فقد كان فراقاً اليماً قاسياً بالنسبة اليّ وحاول ابوك ان يقنعني بمرافقتهم ..

كان جدي يدخل الغرفة على حين غرة ويفاجئنا اثناء الحديث فيرو الى جدتي ، وينصت لحظة ويدمدم :
- اكذبي ، اكذبي ..
وفجأة كان يسألني :
- أكانت تخنسي الحفرة هنا يا الكسي ؟
- كلا !

- انت تكذب ، انني لاحظ ذلك من عينيك !
ويترك الغرفة والشك يخامرهم .. فتغمرني جدتي بعينها باتجاه جدك الذي يعتمد وتردد دائماً !
- رافقتك السلامة ، لكن لا ترعبنا
وذاث يوم وقف في وسط الغرفة ، وقد ركز عينيه في ارض الغرفة وقال :
- اماء ! ..

... ماذا بك ؟
- اعملين كيف تجري الامور ؟
- اجل اعرف ،
- وماذا تعتقدين في ذلك ؟
- إنه القضاء يا ابتاه ! الا تذكر ما قلته لك عن ذلك اله بد البديع ؟
- ام ... م ؟
- حسناً ، يظهر انك على حق .

- بيد انه صعلوك .
- ذلك شيء يخصها وحدها .
وانطلقت جدي . وقد شعرت بمصيبة جديدة :
- عمّ تتكلمان ؟

فقال متأففة وهي تمسك ساقي وتقول :
- انك تود ان تعرف كل شيء اليس كذلك ؟ واذا عرفت كل شيء وانت
صغير ماذا يبقى لتعرفه وانت كبير ؟ الحقيقة ان جدك فقد كل شيء .. فقد
استلف منه احد النبلاء ، مبلغاً كبيراً من المال يبلغ الآلاف ، وقد افلس ذلك
النبيل ..
ثم لاذت في صمت عميق مدة طويلة واعتلت كآبة قاتمة ثغرها المشرق ..
سألته :

- بماذا تفكرين ؟
- كنت افكر فيما اقص عليك ..
ونادراً ما كانت تأتي والدتي لزيارتي في الطابق العلوي فاذا فعلت كانت
تنفوه بكلمات مضطربة عجيلى .. ثم تسرع بالرحيل ..

وفي اغلب الليالي كنت اضطجع في سريري احاول الرقاد بيد ان النوم يأبى
ان يزورني ، فأسرح ناظري اراقب السماء والنجوم .. كنت اذهب في خيالي
بعيداً فأختلق اقاصيص كثيفة واجمل والدي بطلا لها . كان ابي فيها وحيداً ،
يحمل في يده عصاة ، ويمدو في اثره كلب صغير مشعث الشعر ..

* * *



أنا زالموف الانموزج الحي لشخصية الام
(نيلوفنا) في كتاب (الأم) .

ذات مساء وبعد كبوة قصيرة نهضت وقد شعرت ان ساقى قد تحرر كتما.. فالتقيت
بهما على حافة السرير .. فاذا بالجمود يعود اليهما مرة ثانية ، ولكن ثقتي بأنني
سأتمكن من السير على قدمي ، ولدت في نفسي غبطة عظيمة مما جعلني أهتف
عالياً.. حاولت الضغط على قدمي عندما وضعتهما على الارض فحاولت النهوض
بيد انني تعثرت وسقطت ، فأخذت اجر نفسي حتى بلغت الباب حيث هبطت
السلم زحفاً ، وانا اتخيل المفاجئة التي ستدهش الجميع حين يشاهدونني ..

ولم اعد اذكر كيف عثرت على نفسي في أحضان جدتي في حجرة والدتي .
حيث التفت حولي انا غريباء بينهم امرأة هرمة ، نحيلة القوام ، مخضرة
اللون .. تفرمت هذه المرأة بصوت رهيب سيطر على الجو :
— أعطه بعضاً من مربى توت العليق مع الشاي الساخن ، دثريه جيداً
بالاغطية ، من رأسه حتى اخمص قدميه ..

فسألت مرتبكاً :

— من تكون هذه ؟

فأجاب جدي بلهجة حادة .

— ستصبح لك جدة اخرى !

فعلا ضحك والدتي ، ودفعت بفجيني مكسيموف نحوي وهي تقول :

— وهذا سيكون أباً لك !

واردفت ببعض كلمات سريعة مبهمه ، بينما ضيق مكسيموف من فتحة عيليه ، وانثنى قائلاً :

— سأقدم لك بعض ألوان التصوير .

كانت الأنوار تسطع في الغرفة بشكل شديد ، وعلى طاولة في إحدى الزوايا يركن شمعدان فضي تذكوي فيه شمعات خمس .. كانت وجوه مستديرة كالكمك تطل من خلال النوافذ السوداء . واخذ كل ما يلف بي يوج بشكل غريب بينما اخذت المرأة المخضرة تجس بأصبعها الباردة ما وراء أذني ، وهي تتمم !

— على كل حال : على كل حال ..

فقلت جدتي :

— لقد غفا ..

وبعد ذلك حملتني نحو الباب ..

والواقع أنني لم اغف ، بل اطبقت عيني بكل بساطة ..

قلت لها ، وهي تصعد بي السلم :

— لماذا لم تعلميني ؟

— حسناً ! لا تتكلم الآن ، هل تسمع ؟

— دجالون كلكم .

وعندما مددتني في سريري ، وضعت رأسها تحت الوسائد ، وسبحت في بحر من الدموع ، بينما اخذ جسدها يتشنج بفعل لحبيها وهي ما زالت تقول لي :

— هيا ابك ! إياك قايلًا !

لكن لم يكن لي رغبة في البكاء .. كان الجو في الطابق العلوي بارداً يخيم عليه الظلام ، ومن شدة اضطرابي اخذ السرير يهتز ، وخيال تلك المرأة المخضراء يأبى أن يزول من أمامي .. فتظاهرت بالنوم ، فذهبت جدتي وخلفتني وحيداً ..

مرت الايام التالية رتيبة ممة .. أما والدتي فقد تركتنا بعد ان تكلمت ،
فخيم السكون الرهيب على منزلنا .

وفي صباح يوم ، اتى جدي وقد حمل في يده ازميلا ، وشرع يتزع المعجون
من حول النافذة المزدوجة ، ثم انت جدتي في إثره وهي تحمل وعاء من الماء وبعض
التياب المهترئة .. سأل في صوت هامس :
- حسناً إيتها المعجوز !
- ماذا بك ؟

- هل انت سعيدة ؟
فاجابته كما اجابتي ونحن على السلم
- حسناً ، لا تحدثني الآن هل تسمع ؟
كان لهذه الكلمات معنى خاص ، فهي تشار شيئاً بغيضاً عظيماً يعلمه الجميع ،
ويتناسونه .. فتحت جدتي النافذة المطلة على الحديقة ، فشلت بناظري عبر
الحقول .. كانت العصافير تغرد اجمل الالحان ، وتناهى إلى الغرفة رائحة زكية ،
رائحة التربة المتصاعدة من الارض بعد ذوبان الجليد ، فنهضت محاولاً النزول
إلى الارض ، بيد ان جدتي نهتني قائلة
- اياك ان تمشي حافياً !
- انني قاصد إلى الحديقة .

- تريث حتى تزول الرطوبة .
لكنني لم اجد رغبة في الاستماع اليها ..
كانت براعم الزهر تتفتق في اغصان الاشجار ، وانبلجت بعض الاعشاب
من الطلح من باطن الارض وغطت سطح منزل بتروفنا ، واخذت العصافير
تمرح متنقلة بين الاغصان تشدو اجمل الالحان ورائحة ذكية تعبق في جميع
الارجاء تبعث في نفسي نشوة فائقة .. وبدأ لي المكان الذي ذبح فيه العم بيوتر

قد ازدان بمشرب بني اللون يوشحه الثلج من كل جانب ، فلم تكن هذه البقعة تنسجم مع إنشراح الربيع بل أصبحت هذه الحفرة عديمة النفع .. واجتاحني فجأة رغبة عارمة في نزع تلك الاعشاب ، وازالت كل ما يدنس الحفرة ثم اشيد مكانها كوخاً استطيع أن امضي فيه فصل الصيف بعيداً عن سائر الناس ..

كانت جدتي وامي تستوضحان دائماً :

— لماذا انت عابس هكذا ؟

كان هذا السؤال يزعجني كثيراً .. فانا لست بحاقد عليها .. كل ما هنالك ان كل شيء يمت إلى البيت بصلة اصبح غريباً عليّ .. وغالباً ما كانت تلك المرأة الخضراء تشاركنا الغداء او العشاء او الشاي ، فتقتعد هناك كأنها كتلة بالية عفنة ، قد شدت عينها إلى وجهها بخيوط غير مرئية ، تتفحصان كل شيء وتدوران بشكل غريب .. كانت تمسك شوكة الطعام بشكل يبعث على السخرية .. كانت وابنها مبالغين في النظافة حتى لا يجرأ امرىء على الاقتراب منها .. ولقد حاولت مرات عدة ، في الايام الاولى لتعارفنا ، حملي على تقبيل يدها الميتة ، التي تفوح منها رائحة البخور والصابون . فكنت أزوغ من طريقها .. ولا تزال تقول لابنها :

— ان هذا الولد بحاجة إلى تربية .. أتدرك هذا ، يا يفجيني ؟

فلا يجب يفجيني سوى الاطراق برأسه طائماً ، وقد قطب وجهه وفي الواقع كان الجميع يقطبون وجوههم عندما تحضر تلك المرأة الخضراء .. لقد كرهت تلك المعجوز وكرهت كذلك ابنها كرهاً عظيماً كلفني الكثير من الجلد .. وذات يوم بينما كنا نتناول الطعام ، شرعت تمجدجني بنظرها وهي تقول :

— يا عزيزي ألكسي ، لماذا تلتهم الطعام بهذه الشراهة ؟ ولماذا تجعل حجيم

اللقة كبيراً هكذا ؟ سوف تحتنق !

فقدفت اللقة من فمي غارزاً فيها الشوكة ! وقدمتها لها قائلاً :

— هيا ، تناوليها ان كنت آسفة عليها !
فاختطففتني والدتي من على الطاولة وطردتني بشكل مخزٍ إلى الطابق
العلوي . وبعد ذلك لحقت بي جدتي ، ووضعت يدها على فمها وهي تنفجر
ضاحكة :

— آه ، يا إلهي كم انت وحش صغير ، اخذك الشيطان .

لم يعجبني وضعها يدها على فمها ، فزفت منها ، وصعدت سطح المنزل ،
وقبعت هناك خلف المدخنة مدة طويلة .. اجل ، انني احس برغبة لا تقاوم في
اعمال (الشيطنة) وفي اهانتهم جميعاً .. فذات يوم احضرت غراء وطلبت به
مقعدي زوج امي وجدتي الحديثة ، وما أن جلسا حتى تشبث كل منهما بمقعده
بصورة تبعث على السخرية والضحك ، وبعد ان جلدني جدي ، اسرعت امي
اليّ في الطابق العلوي وشدتني اليها واضعة اياي بين ركبتيها ، ثم قالت :
— لماذا تفعل هذ الاعمال الشيطانية ؟ لو تعلم كم يحز ذلك في نفسي ! .

واغرورقت عينها بالدموع ، وقد شدت رأسي إلى خدها الناعم ، واحسست
بضيق كبير فلو جلدتني لكان ذلك اخف وطأة علي ، حلقت بعد ذلك الّا
اتعرض لآل مكسيموف بشر . شرط أن تكف عن البكاء .. قالت بلطافة :
— حسناً .. ينبغي الا تكون ما كرراً ! سوف نتزوج عما قريب ، ثم نرحل
إلى موسكو في رحلة قصيرة ، وعندما نرجع ستعيش معنا .. إن يفجيني
فاسيليفيتش رجل طيب ، وانا اعلم انك ستكون سعيداً معنا . سيرسلك إلى
المدرسة لمتابعة دروسك حتى تصبح مثله وعند ذلك تصبح الرجل الذي تحب أن
تصبحه لان الرجل المثقف قادر على فعل ما يريد .. امض الآن وأهـو ..

كنت اشعر أن هاتين الكلمتين (الآن) و (عند ذلك) اللتين تتكرران
أبداً ، هما سلم منحدر يؤدي بي إلى الاسفل بعيداً عنها حيث اغرق في الظلمة
والوحدة . وان هذا السلم لم يكن يبعث في نفسي الفرحة أبداً ، فتشدني رغبة

في أن أقول لها :

- لا تتزوجي . سأعيلك ، أنا وحدي ..

بيد انني لم أقل ذلك .. كانت والدتي تبعت في " احساساً وعواطف رقيقة
لم اكن اجد الشجاعة للانفصال عنها .

كلت اعمل في الحديقة بنجاح يوماً بعد يوم .. فقد ازلت الاعشاب ومهدت
الارض بقطع من الآجر ، ثم بنيت من قطع اخرى مقعداً مريحاً واسماً استطيع
أن اتمد فيه كما يحلو لي . ثم جمعت قطعاً من الزجاج الملون والصعاف المكسورة
ووزعتها في الطين بين الآجر فكانت ترسل وميضاً برّاقاً كلما زارتها الشمس في
الصباح .

وفي ذات يوم بينما كان جدي يتأمل علي هذا قال :

- ان عملك هذا بديع ! بيد ان الاعشاب ستتموت ثانية وتفسد كل شيء فقد
تركت في جوف الارض جذور الاعشاب ، هيا ناولي معولاً لاتزع لك هذه
الجذور .

وعندما اتيت بالمعول ثقث في يده ، ثم غرس المعول في اعماق الارض وهو
يهمهم قسائلاً :

- إلتق بالجذور بعيداً ، سأزرع لك هذه الزاوية بالجنيزي ودوار الشمس
سيكون ذلك بديعاً ، بديعاً جداً !

وعلى حين غرة انثني على المعول من غير حراك وبقي مدة لا ينبس بكلمة
واحدة .. فتأملت جيداً ، فشاهدت الدموع تذرف من عينيه الصغيرتين ..
سألته :

- ماذا بك ؟

فاضطرب ومسح وجهه بيده ، وتأملتني ثم قال :

- آه ، ان العرق يفسلني .. تأمل ما اكثر هذا الدود ، واخذ يحفر الارض

مرة ثانية ، وقال فجأة :

- من العيب العمل هنا . سأبيع البيت بأمرع ما يمكن .. في الحريف على الأرجح .. انني بحاجة إلى المال مهرأ لوالدتك . يجب أن تعيش بصورة لائقة .. وسيكون الله معها ! ..

والقى بالمعول جانباً ، ومضى قاصداً زاوية من الحديقة حيث يحتفظ ببعض ادواته .. فشرعت احفر الارض حتى قطعت ايهامي بحد المعول .. مما جعلني غير قادر على حضور عرس والدتي ، وقد رافقتها بعناء حتى البوابة حيث اخذت أناملها وهي تجتاز الشارع مع مكسيموف الذي أمسك بذراعها ، كانت مطرقة الرأس تمشي بعناية فائقة بين الاعشاب المنبجسة من بين شقوق الرصيف القرميدي وكانت تمشي على مسامير مسننة ..

كان العرس هادئاً .. فقد تناولنا الشاي بعد الاحتفال ، من غير بهجة .. ثم اسرعت والدتي إلى حجرة نومها ، واخذت في حزم امتعتها ، بينما جلس زوجها يحاني وقال !

- لقد صممت ان اهديك بعضاً من الالوان . بيد ان الانواع الموجودة هنا مسن الصنف الرديء الذي لا يصلح للرسم . ولا يستطيع ان اهديك الواني الخاصة . لاجل ذلك سأبعث لك بهديتي من موسكو ..
- وماذا افعل بها ؟

- الاتحب الرسم ؟

- لست ادري كيف اقوم بذلك !

- إذن سأبعث بشيء آخر .

وفجأة دخلت امي .. قالت :

- لن تتأخر سنعود قريباً .. بعد أن ينتهي والدك من دراسته وامتحانه . كنت اشعر بغبطة عظيمة وهما يتحدثان اليّ كأنني واحد من الرجال ، بيد

انني عجبت أن يكون رجل ذو لحية في طور الدراسة . فسألت :

— ماذا تدرس ؟

— تخطيط الاراضي .

ولن اود ان اسأل معنى ذلك .. كان يخيم على البيت سكون عميق ، وصوت
خفيف الاوراق ، فتشوقت لهبوط الليل .. وقبض جدي وقد استند بظهره إلى
الموقد ، يتأمل بعينين نصف مغلقتين المشهد من النافذة .. بينما اخذت المرأة
الخضراء تساعد امي في حزم امتعتها ..

وتركتنا امي في غداة اليوم التالي .. فعانقتني مودعة ثم رفعتني عن الارض
بكل بساطة ثم تأملتني بنظرة غريبة لم اشاهد مثلها من قبل ..

قالت وهي تعانقني :

— حسناً ، الوداع !

فقال جدي بلمحة كئيبة ، وقد تعلق عيناها في لازوردية السماء :

— سليه أن يطيع أوامري .

فتقدمت نحو ي راسمة اشارة الصليب فوقي :

— ينبغي أن تسمع اقوال جسدك .

كنت انتظر أن اسمع شيئاً آخر ، فغضبت على جدي لمقاطعته اياه عن
الحديث .. صعدت ومكسيموف إلى العربة ؛ بيد ان ثوبها تعلق بشيء ما ،
فبقيت مدة طويلة تحاول في غضب شديد على افلاته ..

قال جدي موجهاً الحديث إليّ :

— ساعدها في تحرير ثوبها ، الا ترى ؟

كنت هائماً في هاوية من التفكير اليأس لا اقدر على فعل شيء .. ومد
مكسيموف ساقيه الطويلتين اللتين قد التفتا بسر وال ازرق اللون ، فيما حاولته
جدي بعض الصرر التي تكدست فوق ركبتيه ، فشدها عليها بذقنه ، ثم رفع

حاجبه المضطرب وقال :

- يكفي !

وصعدت المرأة الخضراء اللون ابنها الاكبر ، الضابط ، في عربة اخرى .
جلست باستقامة كجسم شمع ، بينما شرع ابنها يحك لحيته بقبضة سيفه ..

سأله جدي :

- إذن ، فأنت ماضٍ إلى الحرب ؟

- بدون ريب .

- هذا بديع ! ينبغي قهر اولئك الاثراك .

وتحركت العربتان .. فيما التفتت امي مرات عدة نحوها وهي تلوح ببنديلها ،
واخذت جدتي تلتحج بجانب حائط الدار لماوحة بدورها ببنديلها ، اما جدي
فقد انسابت الدموع من عينيه ، وهو يدمدم بصوت متقطع :

- لن يكون شيء نافع .. شيء جيد .. من هذا .. مطلقاً !

جلست إلى مقعد صغير اأامل العربتين تتواريان شيئاً فشيئاً وراء احد
المنعطفات ، فاحسست بشيء يختلج في صدري ..

كان الوقت لم يزل باكراً في الصباح ، والشوارع خالية ، والنوافذ ما زالت
مغلقة . فلم أرَ ابداً من قبل مثل هذا السكون الخيف .. ومن البعيد ، من
الاماكن النائية ، تنامت إلى اسماعي الحان راعٍ يعزف على نايه . فامسكني
جدي من كتفي وقال :

- تعال لتناول الفطور ، يبدو ان الله قد شاء لك ان تعيش معي ابداً ،

وتلازمي حتى النهاية .

كنا نعمل في الحديقة ، انا وجدي ، من الغدوة حتى هبوط الظلام والصمت
ينشر اشعرته بيننا ، هو يحفر التربة ويشذب اغصان الاشجار ويقتلع بعض
الاعشاب الشجرة . ويقتل الدود الذي يحده متدثراً ببعض الاوراق ، بينما اغرق

انا في توضيب زاويتي من غير كلل .. انسج مظلة من الاعشاب اليابسة أقي بها منزلي من حر الشمس وقطر الندى حتى غدت زاوية رائعة .. وعندما اقتلع جدي آخر الكتل الخشبية ووضع مكانها جدع مستقيم ثبتته في الارض لكي اعلق به اقفاص عصافيري .. قال :

- انه لعمل رائع أن تتعلم تنسيق امورك الخاصة بنفسك .
كنت اعتر بملاحظاته العظيمة في الحياة .. وفي بعض الاحيان كان يفترض مقعدي الذي غطيته بالعشب ، ويكلمني بهدوء ، فأتصور أن الكلمات تسحب من فيه بصعوبة فائقة !

- انك الآن قطعة فصلت عن والدتك ! وسوف تلد امك أطفالاً آخرين يكونون بحاجة إلى امهم اكثر منك ، اما جدتك فقد اصبحت كما تعلم تتعاطي شرب الخمر .

ثم ينصت فترة طويلة ، كأنه يحاول الاستماع إل شيء ما ، ثم يعود إلى متابعة حديثه معتصراً الكلمات في فمه :

- انها المرة الثانية التي تتعاطي فيها الخمر ، كانت المرة الاولى عندما طلب ميخائيل إلى الجندي الاجبارية ، ولكنها اقنعتني اخيراً ان اتقدم إلى السلطة وادفع التعويض ، يا لها من معنوية ، من يدري لو انه خدم في الجيش لكان اصبح شيئاً آخر .. اما انا ، فعما قريب سأموت وهذا يعني انك ستصبح وحيداً . هل انت فاهم ؟ ستبقى وحيداً تتدبر امورك بنفسك .. بيد اياك ان تتحني للغير ! عش حياتك هادئاً ، مسالماً ، لكن يجب ان تكون عنيداً ، وسر في طريقك الخاص من غير خوف أو وجل .. واستمع للجميع ، لكن إفعل ما يلميه عليك ضميرك وما تراه مناسباً ..

أمضيت الصيف بأكمله في الحديقة ، ما عدا الايام الماطرة . فقد كنت اقضي الليالي الدافئة فيه ، فقد خصصت لي جدتي قطعة من اللباد صنعت منها

بريراً . واغلب الليالي كانت جدتي تضيئها وهي تقص علي روايات عديدة
كنت أصغي اليها بانتباه ..

وتقبل الشمس نحو المغيب ، وترسل أشعتها وهي تذوي في الشفق تاركة
ورامها الحداثق وقد اكتست برداء لازوردي ممرأ فوق الاغصان . وبعد ذلك
تزور الظلمة الكون فتذوي اشعة الشمس من على الاغصان ويحني العشب رأسه
أسفاً على دفء الشمس .. وتنبت من البعيد موسيقى ملائكية تستقبل الهدوء
كأنها ترانيم ام حنون ..

وتتمدد جدتي بالقرب مني ساعات طويلة وقد اسلمت رأسها إلى ذراعها . وما
تزال تروي بعض الاقاصيص بانفعال سلس ، غير مبالية ان كنت اصغي لها أم
لا .. وكانت بمكانة عظيمة إذ تعرف كيف تضيئ على سكون الليل وهدوئه
باقاصيصها المناسبة فيزداد روعة وجمالاً ..

كنت استسلم إلى نوم عميق وأنا أصغي إلى حديثها الموزون ، وما استيقظ
إلا والشمس تغسل بنورها وجهي وتملأ العصافير أسماعي الحاناً شجية . ويب
نسيم الصباح يدغدغ وجهي بلطف . وتلتنع حبيبات الندى على غصون
الاشجار ، وينتفض العشب مستقبلاً نور الشمس البهي ..

لقد كانت تلك المراحل اكثر سكينه وتأملاً في حياتي ، ففي ذلك الصيف
ازداد شعوري بثقتي بنفسي وتأصل . وأصبحت اتجنب الناس ، فلا تدفعني
الرغبة ، عندما اسمع صراخ الاطفال إلى الاستماع اليهم او الانضمام اليهم .
واصبحت عندما يأتون لزيارتي أخاف من أن يعبتوا بمحديقتي ، بدلاً من الابتهاج
والغبطة ، وهي أول شيء صنعتة يداي في حياتي ..

وكذلك لم تمد احاديث جدي تثير في نفسي ادنى اهتمام ، بعد ان اصبحت
اكثر جفافاً ومدى .. وازدادت مشاجرات جدي وجدتي ، واصبح يطردها
من البيت ، فتقصد إلى منزل الخال ياكوف او الخال ميخائيل . واحياناً كانت

تتوارى عن البيت اياماً عديدة . فيضطر جدي إلى تهيئة طعامه بنفسه ، وهو يكيل الشنائم ، ويحرق اصابعه ، ويكسر الصحون ، وتتأصل الشراسة فيه يوماً بعد يوم .

وعندما كان يزورني في حديقتي ، كان يعتمد في مجلس مريح بين الاعشاب . ويأخذ في تأمل مدة طويلة من غير أن ينطق بكلمة واحدة .. ثم يسألني فجأة :

— لماذا لا تتفوه بكلمة ؟

— لست ادري .

فيشرح عند ذلك بالحديث كأنه استاذاً يلقي محاضرة :

— اننا من غير طبقة النبلاء ، كما تعرف .. وليس من احد قد علمنا شيئاً ، فينبغي أن نأخذ العلم بانفسنا ، ان الكتب قد وجدت لغيرنا ، والمدارس قد اشيدت ليس لنا بل لسوا .. فالواجب علينا بالتالي أن نحصل كل شيء مـن تلقاء انفسنا ..

ثم يفرق في صمت عميق ويبقى صامتاً حتى يبعث الرعب في نفس المتأمل فيه ..

ثم باع المنزل في ذلك الحريف ..

وقبل ان يبيع جدي الدار ، قال ، بينما كنا نجلس إلى طاولة الطعام لتناول الافطار ، بلهجة حازمة حزينة :

— حسناً يا اماء ، لقد اطعمتك مدة طويلة فيما مضى ومن الآن وصاعداً حاولي أن تكسي قوتك بنفسك .

اصغت جدتي اليه سمعها في هدوء عميق ، كأنها كانت تنتظر منه هذا الكلام منذ زمن طويل .. فاجابت .

— حسناً ، كما تشاء .. يجب أن نتدبر أمرنا على اكمل وجه

واستأجر جدي منزلاً مؤلفاً من غرفتين صغيرتين مطليتين في قبو عتيق
يؤدي إليه عبر طريق ضيقة .. وعندما كنّا نحزم امتعتنا ، اخذت جدتي
حذاءً قديماً ورمته تحت الموقد ، ثم جلست القرفصاء وشرعت تنادي عفریت
البيت الحارس :

- تعال ايها العفریت ، تعال واركب هذا الحذاء وامض معنا إلى المنزل
الجديد حاملاً معك الحظ السعيد لنا ..

وأطل جدي من الساحة عبر النافذة وصرخ :
- انك تناديه لآخذه معك ، اليس كذلك ؟ سوف ادق عنقك ، ايتهيا
الجاحدة لسوف تجملين مني مهزلة في اعين الناس !
فتنبهته قائلة :

- ماذا ! يا ابتاه احذر جيداً لما تقول .. أن ذلك يعني حظاً تيسراً لنا ..
بيد ان احتداد جدي كان يفوق التصور . فمنعها من مرافقة العفریت لنا إلى
المنزل الجديد .

وخلال فترة ثلاثة أيام بقي يبيع الاثاث لبعض التترين ، وهو يساومهم
ويكيل لهم السباب من غير حساب . بينما كانت جدتي تراقبهم من النافذة ،
تضحك تارة وتنتحب اخرى ، وهي تصرخ في صوت خافت :
- هيا خذوا كل شيء كسروا كل شيء ، ولا تتركوا شيئاً .

كانت الدموع تترقرق في مقلتي كلما فكرت في زاويتي التي اقمته في الحديقة ،
واقت عربتان لنقلنا إلى المنزل الجديد ، فاخذت العربة التي اعتليناها تتأرجح
كأنها تود أن تقذف بي خارجاً من فوق أكداس الأمتعة والصناديق ..
وبقيت مدة سنتين أعيش واحساس يطغى عليّ بأن شيئاً خفياً يحاول
انتزاعي والقذف بي ، حتى توفيت والدتي .. وبعد انتقالنا إلى القبو اقت أمي
لزيارتنا .. كانت شاحبة اللون ، نحيلة القوام ... كانت تتأمل كل شيء بانتباه

فائق ، وكأنها تشاهدني مع والديها للمرة الاولى في حياتها .. اخذت تتأملنا في صمت ، بينما بقي زوجها يحوب الغرفة ذهاباً وإياباً ، مطلقاً صغيره الخافت ، وقد وضع يديه خلف ظهره ..

قالت أمي وهي تدغدغ وجنتي بين راحتي يديها :
- يا للسما كم كبرت !

كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً بشعاً ، ينفتح فوق بطنها ، بني اللون ، قال زوجها ، وهو يمد لي يده :

- مرحباً كيف الاحوال معك ؟
ونفت بمنخريه ودمدم :
- إن الرطوبة لازائدة هنا !

كان التعب بادياً على محياهما ، كأنها كانا يعدوان منذ أمد طويل .. وليس في سباتهما سوى الطلب للراحة .. ثم اخذنا الشاي بصمت تام ، بينما قبع جدي يتأمل المطر طوال الوقت ، واخيراً استوضح قائلاً :

- إذن فقدتما كل شيء بسبب النار ؟
فاجاب زوج والدتي بلهجة صارمة كثيبة :
- كل شيء . ولم ننقذ أنفسنا إلا بصعوبة كبيرة .

- آه ! إن النار ليست في الحقية هزاز .
ودنت والدتي من جدتي وأسرت اليها بشيء في اذنها فضيقت جدتي من دائرتي عينيها وقد ازداد الوجوم شدة ..
وعلى حين غرة قال جدي بلهجة مقتاظة :

- لقد تناهى إلى اسماعي يا يفجيني فاسيليفيتش ، بعض الاشاعات التي تقول أنه لم يكن هناك من نار أبداً . بل أنك فقدت كل شيء في لعب الورق .
فخيم صمت عميق ، لا يسمع خلاله سوى بعض قطرات من المطر التي تنقر

على النوافذ ..
قالت أمي .
- ابتاه ...
فزعل جدي :

- ابتاه ! حسناً ، ماذا ايضاً ؟ الم افهمك أنه من الهوس أن يتزوج الجيل الثالث من الجيل الثاني ؟ .. اليك ما غدوت ، إنه نموذج بديع لقد جعل منك نبيلة ما كيف ترين ذلك ، يا ابنتي ؟
وعند ذلك تعالى صراخ الجميع وكان صراخ زوج أمي يفوقهم جميعاً . مضيت إلى المشى حيث جلست على رزمة من الحطب مندهشاً . هذه المرأة لا يعقل ان تكون والدتي ، إنها مختلفة كل الاختلاف عن أمي .. وانا الآن في الظلة استطيع أن اذكر وجهها تماماً كيف كان قبلاً ..

وبعد ذلك اجدني من غير أن اذكر كيف جرى ذلك ، في سورموفو ، في منزل جديد بنيت جدرانها من الحشب .. وقد تركت شقوق صغيرة بين قطع الحشب قد حشيت بنبات القنب ، قد اكتنزت بعدد كبير من الصراير . كانت أمي وزوجها يقطنان في حجرين في مواجهة الشارع ، بينما سكنت وجدتي في المطبخ الذي له نافذة واحدة تطل على السطح . وفي البعيد خلف السطح كانت المداخن تنتصب يتصاعد منها الدخان محلقاً في السماء ..

كانت جدتي تقوم بجميع أعمال البيت اليومية ، فهي مشغولة منذ الصباح حتى المساء في إعداد الطعام ، وتنظيف الارض ، وجلب الحطب ، وإحضار الماء ، وما أن يأتي المساء حتى تتهاوى متعبة منهوكة القوى ، وفي بعض الاحيان بعد إعداد طعام الغداء كانت ترتدي معطفاً قصيراً وترفع اكمام قميصها ، ثم تمضي إلى البلدة وهي تقول :
- سأذهب لمشاهدة ذلك المعجوز وكيف يتدبر امور حياته ..

— خذيني معك ..

— سوف تتجمد حتى الموت . ألا ترى هذه الرياح الهائجة !
كانت جدتي تقطع مسافات طويلة حتى تبلغ البلدة ، في حقول من الثلج ،
بينما تقبع والدتي الحامل في الدار ، وقد التفت بشال بالرمادي اللون ينتهي
بزركشة طويلة .. كنت أكره ذلك الشال البالي فاود تمزيقه نتفاً . وقد كرهت
البيت وسائر تلك الضاحية . كانت والدتي تجوب الغرفة وهي منتعلة حذاء
مهترى .. كانت بين الحين والآخر تتأمل الشارع مدة طويلة ..

سألتها :

— لماذا نقطن في هذا المكان ؟

فاجابت .

— آه ، لا تسأل :

وغدت تقتضب في حديثها معي ، فلا تحدثني إلا إذا أرادت أن تصدر
أمراً ، أو تطلب مني عملاً :

— آت لي بهذا ، تناول ذلك . إمض إلى المخزن .

ولم تكن تسمح لي بالخروج إلى الشارع للهو ، لأنني كنت أرجع دائماً وقد أشبعني
أقراي ضرباً ولكما .. كانت المشاجرة اللذة الوحيدة التي بقيت لي من الماضي .
فكنت أستسلم إليها بكل طبعي ، وكان جزائي العقاب الاليم الذي لا يزيدني
إلا شغفاً بها ، فاقاقتل في اليوم التالي بوحشية ، فتضاعف ألمي بدورها العقاب ..
وذات يوم أنذرتها بانني ساعض لها يدها وأتوارى في الحقول إن عادت إلى
معاقبتي ..

قالت وهي تلهث تعباً :

— يا لك من وغد حقير !

كان زوج أُمي شديد القسوة عليّ يقتضب في حديثه مع والدتي ، كان دائماً

يرسل صغيره الناعم ، ويتوقف قبالة المرأة يطرق اسنانه العوجاء . وغدت مشاجرته مع والدتي كثيرة ، فقد كانت هذه المشاجرات تثير في نفسي نقمة يائسة . فكلما تشاجرا كان يوصد باب المطبخ حتى لا يتناهى إلى أسماعي حديثه معها ، بيد أن اصداء صوته الاجش كانت تصلني رغما عنه ..

كان يضرب الارض بقدمه ويصيح :

— أنني غير قادر على دعوة أحد إلى المنزل بسبب بطنك اللعين ، ابتها البقرة الشمطاء !

كان عدد كبير من العمال يأتوننا نهار السبت ليبيعون بطاقات طعامهم ، إلى زوج أمي ، التي تكون الشركة قد وزعتها عليهم لابتياح حاجياتهم من مخزنها .. فقد كان العمل يوزع هذه البطاقات بدلا من الاجور فيشترها زوج أمي بنصف ثمنها .. لاجل ذلك كان يستقبل العديد من العمال في المطبخ ، فيجلس إلى الطاولة وعلى وجهه مسحة من الرزانة ، ويأخذ يتأمل البطاقات وهو مقطب الحاجبين :

— روبل ونصف .

— يفجيني فاسيليفيتش ، عجة بالسيد المسيح ..

— روبل ونصف .

لم تمتد بي هذه الحياة التعميسة المضطربة ، فقد ارسلوا بطلي قبل أن تضع أمي طفلها ، لاعيش مع جدي .. كان يسكن منزلا جيدا مؤلفا من طابقين في شارع بيستاناينا في كونافينو ، يطل على مقبرة كنيسة نابولنايا . وقد وضع في الغرفة التي يقطنها مؤقد ضخمة ، وفيها نافذتين تطلان على الساحة ..

أخذ جدي يضحك حين لمحي ، وشرع يرسل صراخا حادا متقطعا :
— حسنا ! يقول المثل (خير رفيق لك هو أمك ..) لكنه يظهر ان
افضل رفاقك هو جدك ، الشيطان الهرم ! تقو ، تبا لهم من قوم !

وما ان تعرفت على البيت الجديد حتى جاءت امي وجدتي بالمولود الجديد .
بينما فقد زوج امي عمله في المعمل لاحتماله على العمال . بيد انه استنجد باصدقائه
الذين سرعان ما اوجدوا له عملاً كمحاسب في محطة للسكك الحديدية ..
ومضت الايام طويلة قبل ان اذهب ، مرة ثانية ، لاقطن مع والدتي في
قبو منزل حجري .. لقد ارسلني امي ترواً إلى المدرسة ، بيد انني كرهتها لتوي
منذ اليوم الاول ..

كان الاستاذ اصلع الرأس ، مصفر الوجه ، يلج غرفة الدرس وقد حشا منخريه
بالقطن ، ثم يجلس إلى الطاولة ، وي طرح علينا الاسئلة في صوت (غنخن) ثم
يتوقف في منتصف الكلمة يسحب القطن من انفه ويتأمل هازأ رأسه .. كانت
وجهه مسطحاً ، لحاسي اللون ، تبدو فيه بقع زرقاء .. اما عيناه الصغيرتان ،
وهما اشنع ما في وجهه حيث لا مكان لهما مطلقاً ، وتبقيان عالقتين في وجهي
فامسح وجهي بيدي لازالتها عن وجهي ..

قبع في الايام الاولى في المقعد الامامي . ترواً تحت انف الاستاذ ، حتى انني
اتصوره لا يشاهد احداً غيري ، ولا يبرح يقول من بين أسنانه :
... بشكو .. و .. ف ! غيتر قميصك ! بشكو .. و .. ف ! يكفي احتيالا !
بشكو .. وف ! لقد ترك هذاؤك مرة ثانية بعض الوحل على الارض !

لقد كان ذلك فوق ما اقدر على احتماله .. بيد انني كنت اخترع الالاعيب
القاسية انتقاماً لنفسي .. ففي ذات يوم ، احضرت بطيخة نصف متجسدة ،
ونزعت محتوياتها ، وبعد ذلك ربطها بمقبض الباب في الممشى المعتم ، فعندما فتح
الباب ، صعدت البطيخة في الهواء وما أن أوصده الاستاذ حتى سقطت على رأسه
الاصلع .. فرافقني الحارس الليلى إلى منزلنا وقد حمل معه ورقة من الاستاذ ،
فكان جزائي كبيراً على تلك الفعلة ..

ومرة ثانية وضعت مسحوق الفلفل في درجه وما أن فتحه حتى اجتاحت

لوبة قوية من العطاس اضطرته على الاثر إلى مغادرة الصف حيث أرسل صهره الضابط كي يراقب مكانه .. وأمرنا الضابط بإنشاد (انقذ الله القيصر) و (آه يا حريتي المباركة) عدة مرات .. وعندما كان أحدنا يغلط في اللحن يضربه على قمة رأسه بمسطرة حديدية تتعالى منها ضجة تبعث على الضحك . وان كانت لا تؤلم مطلقاً .

وكان استاذ الدين كاهنا في عز الشباب ، كثيف الشعر وقد كرهني لانني لا أقتني نسخة من (قصص مقدسة من العهدين القديم والحديث) ولانني بالتالي اقلد اسلوبه في الحديث ..

وبعد أن يدخل قاعة الدرس كانت يقول لتوه :

— بشكوف ، هل أبتعت الكتاب أم لا ، أجل ، الكتاب !

— كلا لم افعل . أجل .

— وماذا تقصد بأجل ؟

— كلا !

— هيا إلى البيت ! أجل إلى البيت ! لانني لا ارغب في تعليمك ، أجل لا

ارغب مطلقاً !

لم أكن أبدي أي اعتراض على مغادرتي الصف فكلت اسرح في ساحات الضاحية وأدور في ازقتها القذرة ، أراقب الحياة الصاخبة من حولي حتى يأتي موعد انصرافي من المدرسة .

كان وجه الكاهن بديعاً كوجه السيد المسيح ، وعيناه جيلتان كعيون النساء . ويداه لطيفتان صغيرتان .. كان قليل العطف على الاطفال وبالرغم من ذلك كانوا شغوفين به .. وبالرغم من أن علاماتي كانت حسنة للغاية ، فقد حذرت بانني ساطرد من المدرسة بسبب سلوكي ، مما جعلني اضطرر ، لان النهاية ستكون محزنة قاسية لان والدتي أصبحت تزداد حدة يوماً بعد يوم

وغدت تضاعف من جلدي ..

بيد أنني نجوت من تلك المصيبة عندما زار ، على حين غرة الاسقف
كريستانس مدرستنا ، وكان على ما أذكر محدودب الظهر .. وغصت غرفة الصف
بجو من الحرارة والانطلاق غير مهود عندما ولج ذلك الرجل الصغير وقد
ارتدى ثوباً واسعاً اسود اللون ، واخذ مكانه إلى الطاولة ..

قال ، وهو يخرج يديه من كفيه الراستين :

— حسناً ! هلا تحدثنا قليلاً ، يا اولادي ؟

واتى دوري للشول أمامه في نهاية الجدول تقريباً .. سألتني :

— كم عندك من العمر ؟ حقاً ؟ يا الهي ! يا لك من فتى طويلاً بالنسبة إلى

عمرك ! لا شك انك قبعت طويلاً تحت المطر !

فوضع إحدى يديه فوق الطاولة ، بينما أمسك في الاخرى لحيتة الصغيرة ،

وحدثني بلطف :

— هل لك أن تحكي لنا قصة من التاريخ الديني تحبها .

وعندما اجبته بانني لا املك كتاباً دينياً حتى احفظ التاريخ الديني ،

سأني من وضع قلنسوته وقال :

— كيف ذلك ؟ ينبغي ان تحفظ هذه الاشياء . لكنني أعتقد انك تحفظ

منها شيئاً من كتاب آخر . ألم تستمع إلى بعض الاقاصيص في مكان ما ؟ هل

تعرف المزامير ؟ لملك تعرف حياة بعض القديسين يظهر انك فتى مثقف !

وولج كاهننا الاحمر الوجه وهو يلهث .. وبعد أن باركه الاسقف شرع

يحدثه عني .. فقال الاسقف مقاطعاً اياه بحركة من يده :

— أنتظر لحظة !

ثم التفت اليّ ثانية :

هل أخبرتنا شيئاً عن رجل الله الكسي ..

وعندما توقفت عن قراءة الشعر لأنني نسيت منه سطرًا قال :
- شعر بديع ، اليس كذلك يا ولدي ؟ عليك تعلم شيئًا عن الملك داوود ؟
بديع ! سوف اكون مغتبطًا بالاستماع اليك ..
واستشفيت من سبب وجهه انه فعلا مغتبطًا ، وانه يحب الشعر وترك لي مجالًا
لتلاوة بعض الاشعار قبل أن يقاطعني :

- هل تعلمت احرف الهجاء من المزامير ؟ من لقنك اياها ؟ جدك ؟ جدك
الطيب ؟ جدك (الشرير) ؟ انك لا تقصد ذلك ابدأ . بيد انهم اعلموني انك
تسبب بعض الشغب ..
فعلت الحمرة الوردية وجنتي ، ثم اعترفت بذلك ، وأصدق هذه الحقيقة الكاهن
والاستاذ إلى درجة كبيرة . ثم قال اخيراً وهو يتنهد :

- هل سمعت ما يقولون عنك ؟ تعال إلى هنا !
ووضع يدي التي تفوج منها رائحة البخور على رأسي ، ثم قال :
- ما الذي يدفعك إلى هذه الشقاوة ؟
- ان المدرسة تبعث في الضجر .
- تبعث فيك الضجر ، ان في ذلك بعض الخطأ ! لانك ان وجدت المدرسة
تبعث فيك الضجر لاصبحت تليدًا سيئًا ، بيد ان علاماتك تدل على عكس
ذلك . اعتقد أن هناك شيئًا آخر يضايقك .

وأخرج من ثوبه كتاباً صغيراً ودون :
- بشكوف ، الكسي ! يحذر بك أن تعدل عن شقاوتك ، يا ولدي !
شيء قليل من الشغب لا بأس به ، لان الناس غير قادرين على تحمل الكثير منه ،
كما تعرف الست محققاً ، ايها الصغار ؟
فاحابته مجموعة من الاصوات :
- اجل ! انك على حق !

— وماذا عنكم ؟ أعتقد انكم لا تأتون الا القليل منه ، اليس كذلك ؟ .

فعلا ضحك الاطفال :

— آه ! ابل الكثير .

فقال بنعمة مندهشة ، دوت لها عاصفت من الضحك اشترك فيها الكاهن
والاستاذ كذلك !

— ما اغرب ذلك ! لقد كنت بدوري مشاغباً كبيراً عندما كنت في مثل
سنكم ، ما الذي يدفعنا إلى ذلك في رأيكم ؟

فتعالى ضحك الاولاد ، وهو يطرحهم باستلته فيوقعهم في شراكه الشيء الذي
زاد من فرحتي واخيراً نهض قائلاً :

— انه لمن المؤسف أن اترككم ، ايها الماكرين بيد أن ساعة مغادرتي قد
حانت .

ورفع يده ، دافعاً كفه العريض إلى الخلف ، ثم رسم اشارة الصليب فوق
الصف بأكمله :

— ليطل الله في حياتكم ، ويهديكم سواء السبيل ، باسم الآب والابن والروح
القدس . الوداع !

فصاح الاولاد :

— الوداع ، يا صاحب الغبطة ! ارجع الينا باكراً !

فاجاب وهو يسوّي قلنسوته :

— سأرجع سأرجع باكراً ! وسأتي لكم ببعض الكتب .

ثم التفت إلى الاستاذ :

— ليذهبوا الآن إلى بيوتهم .

واوقفني في المشى ، وهمس في صوت خافت :

— عدني بان لا تأتي بعض المتاعب في المستقبل ، هل تعدني ؟ آه انا افهم لماذا

تفعل ذلك ، حسنًا إلى اللقاء !

كان الانفعال يسيطر عليّ وقد احسست بشعور غريب يعتلج في صدري ،
حق انني وجدت نفسي أصغي اليه بانتباه فائق ، ووجدت نفسي كذلك أصغي
إلى الاستاذ بكل طيبة خاطر ، الذي طلب مني ان ابقى بعد انتهاء الدروس
واخذ يفهمني ان اكون كالحمل وداعة ولطافة .
وكلمني الكاهن قائلاً وهو يرتدي معطفه :

— ينبغي من الآن وصاعداً ان تحضر دروسي . اجل ، هذا ما ينبغي فعله ..
لكن ابقى هادئاً . اجل ، هادئاً !

وسارت الامور في المدرسة بصورة حسنة ، بيد ان حادثاً قد وقع لي بعث
في الاشمزاز والنفور في البيت .. اذ انني قد سرقت روبلا من امي ، من غير
ان اتعمد ذلك أو أقصده ..

ففي ذات مساء خرجت والدتي ، وخلفني وحيداً مع الطفل الرضيع ،
فتناولت كتاباً من كتب أمي (ملاحظات طبيب) مؤلفه دوماس الكبير ،
وقد تناولته لاني لم اجد شيئاً افعله افضل من ذلك . وقد عثرت بين صفحات
الكتاب على ورقة من فئة الروبل الواحد ، وثانية من فئة العشرة روبلات
فاطبقت الكتاب وما ان اردت ارجاعه إلى مكانه حق راودتني فكرة بأنني
استطيع بذلك الروبل ان ابتاع ليس (تاريخ الدين) فعسب ، بل و (روبنسون
كروزو) كذلك ، الذي علمت به حين كنت أقص على الاولاد في يوم بارد احدي
روايات الجان فقاطعتني أحدهم باحتقار ! (ان روايات الجان لا تتفع بشيء اما
أما روبنسون كروزو ، فانها قصة واقعية) .

كان عدد كبير من الاولاد قد قرأوا روبنسون كروزو ، وشرع الجميع بمدح
الكتاب . وقد تأملت كثيراً لسخريتهم من قصة جدتي ، وقررت ان اقول ،
بعد قراءته انه سيء لا يساوي شيئاً .

وفي الغداة اتيت المدرسة وأنا احمل كتاب (تاريخ الدين) وكتاب صغيرين من روايات هانس اندرسون الخرافية ، وتزودت بثلاثة اوقيات من الخبز الابيض ، وأوقية واحدة من اللحم ، وفي زاوية مظلمة عثرت في مكتبة فلاديمير على نسخة من روبنسون كروزو ، كان كتاباً صغيراً اصفر اللون وما أن فتحت اول صفحة منه حتى وجدت صورة رجل له لحية قد وضع قبعة من الفرو على رأسه ، وعلى كتفيه قد القى معطفاً من جلد النمر . لكنني لم ارتح لمنظره بل فضلت عليه روايات الجان التي تأخذ بشغاف قلبي ، على الرغم من مظهرها الخارجي الذي لم يكن مزخرفاً ..

وإثناء الفرصة اقتسمت الخبز واللحم مع الاولاد واخذنا نقرأ معاً قصة (العندليب) الساحرة التي اخذت بشغاف قلوبنا منذ الصفحة الاولى :

(ان غالب الناس في الصين صينيون ، وكذلك الامبراطور نفسه صيني) .. وما زلت اذكر كم اسرتني هذه الجملة بمضمونها البسيط ، وموسيقاها الشجية ولست ادري إن شيئاً آخر فيها كان اكثر عمقا بصورة بديعة .. ولم يكن لدي الوقت الكافي لانهي قراءة (العندليب) في المدرسة ، وعندما رجعت إلى البيت سألتني والدتي بصوت متهدج ، وهي تقلي البيض :
- أخذت روبلا ؟

- أجل وما هي الكتب ..

فقاطعتني بضربة قاسية من المقلاة . وخطفت الكتب الخرافية مني ، ووارتها عني إلى الابد .. فكان هذا الجزء اشد ايلاماً من الجلد ..

وتخلفت اياماً عدة عن المدرسة .. لان زوج والدتي قد اخبر الناس في المعمل على فعلي ، وقد نقلوها بدرهم إلى أطفالهم الذين اتوا بالقصة إلى باحة المدرسة حيث رقبوا لي استقبالا عندما عدت إلى المدرسة واطلقوا علي لقب (اللص) .. كان اللقب مختصراً ، جلياً ، بيد انه خاطيء .. ولم احاول أن اخفي حقيقة

سرقني للروبل .. وعندما حاولت أن اوضح ذلك لم يصدقني احد .. وهكذا عدت إلى البيت واطلعت والدتي بما حدث واخبرتها بانني لن اعود إلى المدرسة مطلقاً ..

كانت قابعة إلى النافذة تناول اخي الصغير ساشا طعامه فالتفتت نحوني وتأملتني بعينين مذعورتين يبدو فيها البؤس ، وفغرت فاهها كالسمكة ..

قالت بصوت خافت :

– إنك تكذب إذ لا يعقل أن يدري إنسان بانك سرقت الروبل .

– يجب عليك أن تستوضحني إذن .

– لا شك بانك انت الذي اطلعتهم على الحقيقة ! قل لي الحقيقة ألم تخبرهم ؟ ولكن لا تكذب ، لانني سأذهب غداً إلى المدرسة لأستوضح الحقيقة . فاعلمتها باسم التلميذ ، فاذا بوجهها يتغضن ، والدموع تترقرق من مقلتيها بفزارة ..

قصدت المطبخ ، ثم اضطجعت على الفراش خلف الموقد الذي كان خاصتي .. وقد تناهى إلى أسماعي صوت أمي وهي تنتحب في الغرفة المجاورة وتصدت تأوهات :
آه يا إلهي ! يا إلهي !

ولم أعد أحتمل رائحة الاسماك التي ترسلها الحرارة ، فمضيت إلى الساحة . ندهتني والدتي :

– إلى أين انت ذاهب ؟ تعال إلى هنا !

افترشنا الارض سوية ، وقد جلس ساشا على ركبتها يشد بازرار ثوبها .. فالتصقت بوالدتي فطوقتني بذراعها ، قالت :

– اننا فقراء معدمون .. كل كوبيك واحد ...

ثم شدتني بذراعها ، غير قادرة على التصريح بما تود قوله ..

وفجأة زجرت ، وهي تعيد كلمة سمعتها تتفوه بها كثيراً من قبل :
- آه يا للوحش ، يا للوحش !
فقلدها ساشا قائلاً :
- وش !

كان طفلاً عجيباً ، كبير الرأس ، حذى الطباع ، ذا عينيّن زرقاوين تتوجها
الابتسامة دائماً ، ولقد شرع يتكلم في سن مبكرة .. ولم يكن يبكي مطلقاً
بل يبقى دائماً في حالة فرحة .. كان يغتبط كثيراً عندما يشاهدني ، فيمد يديه
إليّ ويأخذ في مداعبة أذني بإصبعه الندية التي تنضوي منها رائحة ، لست أدري
لأي سبب ، البنفسج . وقد مات فجأة من غير أن يصاب بمرض . كان مسروراً
كل السرور في الصباح كعهده دائماً .. بيد أنه عندما أتى المساء ، وشرعت
اجراس الكنائس تدق داعية الناس إلى الصلاة ، كان يتمدد على الطاولة من غير
حركه . وقد وقع ذلك بعد ولادة الطفل الثاني نيقولا في بدة وجيزة ..

وقد برت والدتي بوعدها بترتيب الامور في المدرسة ، فرجعت إلى متابعة
دروسي كالعادة. بيد أنني عدت اعيش من جديد مع جدتي بعد اسبوع كامل ..
و ذات يوم بينما كنت ادخل إلى المطبخ تناهى إلى ممعي صوت أمي تصبح
بلهجة يائسة :

- يفجيني ، يفجيني ، لا تمض ، اقوسل اليك !
فاجابها زوجها :
- سخافة !

- انني اعلم جيداً بانك ماضٍ اليها !
- حسناً . وماذا يضير في ذلك ؟
وركن كل منها إلى صمت عميق فترة . ثم قالت أمي بين نوبتين من السعال :
- يا لك من وغد سافل تافه !

وسمعته يضربها ، فركضت إلى داخل الغرفة كي اشاهدها وقد جثت على ركبتيها ، وتستند إلى أحد المقاعد بظهرها وقد تدلى رأسها إلى الوراء . وشع من عينها بريق لم أعده من قبل بينما انتصب مكسيموف أمامها ، وقد ارتدى بذلة جديدة ، يركلها بساقه الطويلة على صدرها .. فتناولت سكيناً ماضياً ووجهتها نحو خاصرته بكل ما اتيت من قوة .

ومن حسن حظه أن أمي قد دفعته عنها في الوقت المناسب ، فقطعت السكين المعطف ، وثالت الجلد يجرح طفيف . فاطلق صراخاً عالياً . ومضى من الغرفة وهو يعدو ماسكاً بخاصرته . فشدتني والدتي وقد صدرت عنها صيحة عظيمة ، ثم القتني أرضاً . بيد أن زوج والدتي عندما رجع من الساحة اختطفني منها ..

وعندما خرج زوج والدتي ، رغم كل شيء ، في ساعة متأخرة من الليل ، ألتقي والدتي خلف الموقد ، وعانقتني بجملة قائلة :
— سامحي ، يا عزيزي . لقد قسوت عليك . لكن كيف يعقل أن تفعل ذلك ؟ بسكين !

فاقسمت وأنا مدرك معنى كلماتي ، أنني سأقتل زوج أمي ثم اقتل نفسي بعد ذلك .. ولقد حاولت ذلك . واني ما زلت اذكر حتى اليوم تلك القدم البغيضة تتأرجع في الفضاء ، وتهوي على صدر امرأة ضعيفة ..

وعندما آتيت ، في بعض الاحيان ، على وصف شاعات تلك الحياة الروسية الوحشية ، اتساءل ان كانت تستحق أن يتكلم المرء عنها .. وقد اقتنعت بعد تفكير طويل أن من الواجب عرضها ، لأنها تكون الحياة الشريرة التي لم تستأصل بأكملها حتى اليوم .. انها تمثل واقعاً يجب معرفته حتى أعمق جذوره ، كي نزيلها بعد ذلك من حياتنا الكثيبة الملوثة بالعار . فننتزعها من صميم الانسان ونحبلته ..

بيد أن هنالك سبب آخر ، أكثر موضوعية ، يدفعني الى وصف هذه الافعال
الهمجية . اذ بالرغم من شناعتهما وما تشوه من نفوس يمكن أن تكون نفوساً
بديعة طيبة ، فان الروسي يملك من الشجاعة وسلامة التفكير ما يدفعه الى اعادة
مثل هذه الاشياء وانه لفاعل ذلك بكل تأكيد . .

ان حياتنا بديعة ، ليس لانها تأصلت في تربة خصبة من الهمجية وحسب ،
بل لما ينضج وراها من قوى فعالة وخلافة . وان الخير سوف يزداد ، وان
شعبنا سوف يفتح على حياة ملأى بالجمال ، تنضج بالانسانية .

* * *

واجدي مرة اخرى مع جدي ..
 القى علي السلام وهو ينقر بجدة على الطاولة :
 - حسناً ايها الخبيث ! انني لن أقيتُكَ بعد الآن دع جدتك تتكفل بهذه
 المشكلة .

فقالت جدي :
 - سأندبر ذلك ، بيد أن هذا الامر صعب !
 فصرخ :
 - حسناً خذيه في عهدتك إذن .
 ثم اوضح لي الامور بهدوء كبير :
 - ان كل شيء يتركنا الآن وينفصل ، كل واحد يهتم بأمره لوحده ..

وقبعت جدي الى النافذة قطرز ، فأخذت بكرات خيطانها تتدحرج بنشوة
 على الوسادة التي غلاها الدبابيس النحاسية التي تلتصق في اشعة شمس الربيع . كانت
 جدي تبدو وكأنها إناء من البرونز لم يتغير فيها شيئاً ابداً . لكن جدي أمسى
 أكثر هزالاً وأشد تغضناً وقد تساقط شعره ، وتحول هدوءه الى عصبية محتدمة
 واصبحت عيناه تشككان في كل شيء . واخذت جدي تخبرني عن اقتسامها
 الاملاك مع جدي ، فقد اعطاها جميع اللعب ، والاواني ، والاحواض ، وقال :

- كل هذا لك ، وإياك ان تطلي شيئاً آخر ا

وبعد ذلك جمع ثيابها العتيقة وما تملكه يداها ، وباعها لقاء سبعمائة روبل .
وضعها بالفائدة ليهودي قد اعتنق المسيحية وهو تاجر فواكه . وقد أصبح طماعاً
حتى وقع في المرض من طمعه .. فقد كان يزور بعض اصدقائه القدماء ويسألهم
إعطائه بعض المال مدعياً أن ولده قد قاده الى الخراب ، فكانوا يقدمون له
منعاً سخية تقديراً لمركزه السابق ، فيرجع الى البيت مألوحاً ببعض الاوراق
تحت انف جدتي هازئاً منها كطفل صغير :

- أتشاهدن هذه ، ابتها العجوز البلهاء ؟ ليس هنالك من يدفع لك عشر
هذا المبلغ .

ثم وضع جدي هذا المال بالفائدة عند رجل تعرف عليه حديثاً يعمل تاجر
فراء ، طويل القامة ، اصلع الرأس ، يلعب بـ (السوط) ..

كان جدي وجدتي يقتسمان كل شيء بصورة مضبوطة ، ففي اليوم الذي
تهيء فيه جدتي طعام الغداء من مالها الخاص في اليوم التالي يشتري جدي
الخبز والطعام وعندما يأتي دور جدي يكون الطعام رديئاً . بينما كانت جدتي
تشتري لحماً مقدداً كان جدي يشتري رئة خروف أو أمعاء . حتى أن كل
منها كان يحتفظ بشايه الخاص وسكره ، بيد انها يغليانه في ابريق واحد ، ويقول
جدي مضطرباً :

- مهلاً دعيني اشاهد .. كم وضعت فيه ؟

ويأخذ اوراق الشاي في يده ، ويشرع في عدّها بدقة :

- ان الشاي الذي تشتريه له اوراق رقيقة بينما الشاي الذي ابتاعه انا اكثر
كثافة لذلك اصبح من الواجب أن تضعي عدداً اكبر من اوراقك .

ويراقب جدتي ، وهي تسكب الشاي ، حتى يشاهد اذا كانت حصته
تساوي حصتها .. كانا يرشّان دائماً عدداً متساوياً من الاكواب .

وكانت جدتي قبل أن تسكب الكوب الاخير تسأله :

— هل تشرب الكوب الاخير ؟

وبعد أن يلقي بنظرة الى جوف الابريق يوافق :

— حسناً ، انه الكوب الاخير في الحقيقة !

حتى اصبحا يتناغان كل بدوره الزيت اللازم للتعديل ، وذلك بعد مضي خمسين سنة من الحياة المشتركة .

كنت لاحظ أن أفعال جدي مسلية تدعو الى الاشمئزاز ، أما أفعال جدتي فقد كانت مسلية فقط . كانت تقول لي :

— تناسى ذلك ! ماذا ينتج عنه ؟ لقد هرم كثيراً حتى غدا شاذ الطباع . لقد تجاوز الثمانين ، تأمل هذا العدد الكبير من السنين ! ليصبح شاذ الطباع ، ماذا يضير في ذلك .. بينا انا وانت ، فكن على ثقة تامة بانني سأجد بعض الخير لكلينا دائماً ..

حتى انني اصبحت بدوري اكسب بعض المال ، فما أن يطل نهار الاحد حتى احمل كيساً على ظهري واجوب الطرقات بحثاً عن العظام والخرق البالية والمسامير والاوراق .. كان جامعو هذه الاشياء يدفعون لي عشرين كوبيكاً لقاء كل حزمة من الخرق والاوراق والقطع المعدنية ، وثمانية أو عشرة كوبيكات لقاء كل رزمة من العظام . حتى انني اخذت في جمع هذه الاشياء بعد خروجي من المدرسة خلال الاسبوع ، فأجني كل نهار سبت من اربعين الى خمسين كوبيكاً أو حتى كان هذا الربح يزيد اذا كنت قد توفقت في جمعها ..

وعندما اعود بالمال كانت جدتي تأخذه مني سريعاً ، وتودعه في جيب فستانها ، وتغمز بعينها وهي تشكرني :

— شكراً ، ايها الكتكوت الصغير ! لن نجوع بعد الآن .. أليس كذلك ؟ بيد انني وجدت أن ربحي بمتاجرة الخروق اقل مما اكسبه من سرقة الالواح

الخشبية من فبركة تقع على ضفاف نهر الاوكا أو في جزيرة (الرمال) حيث يقام سوق سنوي للتجارة بالمعادن تحت كشكات مصنوعة من الاخشاب . وكانت تلك الكشكات تبقى مكانها عندما ينتهي السوق فتفك وتكدس فوق بعضها .. وكان ارباب البيوت يدفعون لنا عشرة كوبيكات ثمن كل لوح جيد من الخشب وكنا نستطيع سرقة لوحين أو ثلاثة في النهار .. بيد أن عملية سرقة الألواح كان ينبغي أن تجري في الايام الماطرة أو التي يسودها الضباب وعندما يكون الحراس داخل المخافر ..

وكانت العصابة التي اعمل فيها شلة من الفتيان الطيبين . منهم سانكا فياخير الملقب بالحمامة ، فتى في العاشرة من عمره ، رزين ، مرج الطباع ، وكان هناك كذلك اليتيم كوستروما واسع العينين شديد النحول وقد شقق نفسه فيما بعد عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره ، في اصلاحية للاحداث لانه سرق زوج حمام .. وكذلك غابي الملقب بشمشون فتى في الثانية عشرة من عمره وقد جمع الى جانب قواه الجسدية نفساً طيبة ساذجة .. و (ياز) صاحب الانف الافطس في الثامنة من عمره لا يأتي حركة ويبقى ساكناً وقد اصابه (الداء الاسود) ، وفي النهاية كبير عصابتنا ، وهو شخص عاقل ، يوجه للكلمات بخفة ، يدعى ريشكا شوركا .. وكنا جميعنا نقطن في نفس الشارع ..

لم تكن السرقة جريمة في نظر سكان حيننا ، بل كانت الطريقة الوحيدة تقريباً ، التي يستطيع معظم الاناس الذين يتضورون جوعاً أن يحصلوا بواسطتها على لقمة العيش ..

كان الاولاد يعتمدون الى سرقة المطارق من النجارين وحدوات الاحصنة والحمير من اصحاب العربات ، بيد ان عصابتنا لم تكن تأتي مثل هذه الاعمال مطلقاً ..

قال شوركا ذات يوم .

- انني لن اعمد الى السرقة بعد الآن ، فامي لن تسمح لي بذلك .
واضاف غايي .

- وانا لا تعجبني اتيان هذه الاعمال .
وفي بعض الاحيان كان يقع بيننا الخصام .. بيد انني لا اذكر ابداً اننا
تشاجرتا مرة واحدة ..

كان الحماسة يقوم بدور القاضي بيننا فهو قادر على ايجاد الكلمات التي تحد
من اهوائنا . كلمات في غاية البساطة كانت تعجبنا وتجعلنا نخجل من انفسنا .
حقى هو نفسه كان يندهش حين يتلفظ بها . ولم يكن يستاء مطلقاً من الاعيب
ياز الدنيئة ، بل يتجاهل بهدوء تام كل ما يحدث منها على اعتبارها عديمة
الجدوى . كان يسأل :

- لماذا فعلت هذا الشيء ؟
فندرك جميعنا ان ذلك العمل لم يكن له معنى في الحقيقة ..
كان يطلق على امه لقب ('مردافيتي ') فكان يفرق في الضحك وعيناه
المدورتان تشعان ضياءً .. بيد ان احداً منا لم يحد في ذلك ما يضحك ..
كان يحدثنا عنها ويقول :

- في الليلة الفاتئة رجعت مرادفيتي الى المنزل وقد شربت الخمر حتى ابتلت
فتعثرت على عتبة الباب وتعددت هناك ، يالها من دجاجة شمطاء ! حتى انها
استغرقت هناك في النوم ، والرياح تعصف بحرية تامة في ارجاء الغرفة ، وانا
ارتعد من البرد لانني غير قادر على جر جسدها الى الدار . وقد سألتها هذا
الصباح : (ماذا تبغين من هذا السكر ؟) . فأجابت : (لا بأس عليك .
ينبغي عليك ان تتحمل ذلك بعض الوقت ، فاني لا بد مائة قريباً !) .
فاكد شوركا بخطورة :

- بكل تأكيد ! سوف لن تعمر طويلاً ؟ هلا شاهدت كيف انتفخت ؟

سألت بدوري
- هل ستأسف لذلك ؟

فأجاب الحمامة وقد بدت عليه الدهشة :
- طبعاً ! انها كانت أما طيبة لي .

وبالرغم من اننا كنا نعلم المعاملة التي تعامل بها ولدها ، فقد كنا ندرك انها من أصل طيب .. وقد كان شوركا في بعض الايام التي يزداد فيها رجحنا يقترح :
- لينقد كل منا كوبياً واحداً للحمامة حتى يشتري الفودكا لأمه ، وإلا جلدته .

كنت انا وشوركا الوحيدين اللذين يلان بالقراءة والكتابة ، وكان الحمامة يحسدنا على هذا ، فيهدل دائماً اذنيه الشبيهتين بأذني فأرة قائلا :

- عندما تموت موردافيتي سأركض إلى المدرسة . واجثو عند قدم الاستاذ مستغفراً كي يقبلني تلميذاً . وعندما انتهت من الدراسة سأصبح بستانياً عند الاسقف وربما عند القيصر نفسه .

وفي ربيع ذلك العام ، ماتت الموردافية مع عجوز كانا يجمعان التبرعات لبناء كنيسة جديدة ، عندما هوت فوقها كومة من الاخشاب . ونقلت إلى المستشفى ، فقال شوركا للحمامة :

- تعال واقظن معنا . سوف تعلمك والديتي القراءة .
وبعد مدة من ذلك . توقف الحمامة امام مخزن ذات يوم ، ورفع رأسه بافتخار وشرع يقرأ :

- « بلافية » ...
فقال له شوركا مصححاً :
- بقالية ايها الفاطن !

— اعلم ذلك ، بيد ان مراجع الكلام تختلط علي
— مخارج !

— ان الاحرف تنتقل من لقاء نفسها كأنها سعيدة لأن الناس تقرأها .
وقد كان شغفه بالاشجار يسري عن انفسنا ... وعندما كان احداً يفترش
الاعشاب ، كان الحمامة يؤنبنا مفتاضاً :
— انكم تفسدون الاعشاب ؟ ألا تستطيعون الجلوس على الرمل ؟ ذلك بيان
عندكم .

وفي حضوره كنا لا نستطيع ان نقتطع غصناً من البيلسان المزهر أو مسن
الصفصاف المنتشر على صفاف الأوكا . كان يخاطبنا عند ذلك . هازأً بكتفيه
مندهشاً :

— لماذا دائماً تفسدون الاشياء ، ايها المفاريت ؟
وكان ذلك الاستغراب ينجعلنا ...

وطوال الاسبوع ، كنا لجمع الاحذية البالية من الساحات استعداداً لرياضة
ايام السبت ، فكنا نختبئ وراء زاوية في الشارع ننتظر ان يغادر التتاريون
الذين يعملون في العتالة الرصيف السيبري كي نرشقهم بالاحذية . كانوا في بادئ
الامر يفتناظون فيطاردوننا ثم سرعان ما تلذهم التسلية ، فكانوا يتسلحون بدورهم
بالاحذية العتيقة استعداداً للمعركة ، حتى انهم كانوا يسرقون اشياءنا بعد ان
عرفوا مكانها . بيد اننا اعترضنا على ذلك :

— هذا ليس لعباً .

كانت المعركة تستمر حتى هبوط الظلام . وكان بعض الاطفال البورجوازيين
يراقبوننا وقد استأثروا وراء احد المنعطفات . محتجين على إزعاج الناس ... حتى
ان احداً كان يتلقى صفة قوية سرعان ما تزول ذكرها بلذة القتال .
وبعد ان ينتهي القتال كان التتاريون يرافقوننا حتى بيوتهم مقدمين لنا بعضاً
من لحوم الخيل والخضار المطبوخة وبعد ذلك كانوا يقدمون لنا الشاي الكثيف .

فقد كانت معاملتهم لنا لطيفة ..

كانوا يضحكون ضحكاً مبرحاً .. حتى تسيل الدموع على وجناتهم .

وكان احدهم « موجيك من كاسيموف ، افطس الانف ، خارق القوة ،
فقد حمل ذات يوم جرس الكنيسة ، وهو يزن قنطارين ، من احد المراكب حتى
ضفاف النهر ، يده وهو يضحك ولا ينفك يصرخ :
- او .. و .. و .. او .. و .. و .. ! إن الكلمة عصفور . ان سمعت
الكلمة امسكت العصفور ، عصفور ذهبي .

وذات يوم حمل الحمامة في يده ورفعته في الهواء قائلاً

- إمض وعش هناك في السماء !

كنا نجتمع في الايام الماطرة في بيت صغير في المقبرة حيث يعيش ياز مع
أبيه . وقد ابتعنا شيئاً من الشاي وبعض السكر والحبز وقليلاً من الفودكا
لوالد ياز ... كان شوركا يعطي الاوامر قائلاً :

- اشعل القناديل ، ايها الموجيك الخبيث !

وعند ذلك يتعالى ضحك الموجيك ويطيع الاوامر ، بينما نأخذ نحن بانتظار
غليان الماء نكسار في شؤوننا الخاصة وهو يطرنا بالنصائح :
- احذروا جيداً وافتحوا أعينكم . ستقام في دار آل تروسوف وليمة
احتفالية بعد غد احتفاء بذكرى احد المتوفين . وسيكون هناك عدد كبير من
العظام .

فيزيد شوركا ، وعنده الخبر اليقين دائماً :

- إن طبخة آل تروسوف تحتفظ بالعظام لنفسها دائماً .

فيتطلع الحمامة عبر النافذة إلى المقبرة ويقول متأملاً :

- سيصبح الطقس بديعاً ، وعند ذلك نستطيع الذهاب إلى الغابات .

كان والد ياز يمد الطعام فيضع على المائدة اكواباً عديدة مختلفة ويسكب
لنا الشاي بينما يحتسي هو شيئاً من الفودكا ، ويعتلي الموقد حيث يشاهد من

علـ بعينين كعيني اليوم ، مدمدمًا :

— لتحل عليكم اللعنة ! هل انتم كائنات بشرية ، ام ماذا ؟ تفو ! جماعة من اللصوص ، ليحفظنا الله من الليالي المظلمة التي لا تنتهي .
— بيد اننا لسنا بلصوص .

— اذن لصوص صفار !

وعندما يرهق والد ياز أعصابنا ، كان شوركا يصرخ بشدة في وجهه :

— إخرس ، ايها الموجيك اللثيم !

كنت وشوركا والحمامة لا نطيقه ولا نحب الاستماع اليه وهو يحصي مرضى الحلي ، ويسأل نفسه من سيموت قبل الآخرين ... وعندما يحسد ان رواياته تضايقنا يأخذ في السخرية منا :

— انكم تخافون ايها الصعاليك الصغيرة ! هناك رجل كبير سيموت عما قريب . ولن يمتد الزمن به طويلا .

فنحاول ان نجبره على السكوت بيد انه يستمر قائلاً:

— وسوف يأتي دوركم . فلا تنتظروا ان تعمروا طويلا فوق هذه الاكداس النتنـة حيث تعيشون .

فيقول الحمامة

— سوف نموت ونصبح ملائكة .

فيقول والد ياز بلهجة مندهشة :

— انتم ؟ ملائكة ؟

ثم ينفجر ضاحكًا ، ليعود الى رواياته البشعة عن الجثث . وفي بعض الاحيات يأتي على ذكر اشياء غريبة في صوت خافت :

— انتبهوا ، ايها الفتيان ، بالأمس قد دفنوا سيدة ذات قصة غريبة . ولقد

علمت كل شيء عنها ، ما رأيكم في ذلك ؟

كنا نصغي اليه بانتباه فائق وهو يقص بصورة مضطربة فيتوقف عن كلامه

طارحا علينا اسئلة عديدة . بيد ان ما يقوله كان يترك في ذاكرتنا بقايا
مثيرة .

— لقد سألوها : « من اشعل النار ؟ » . فقالت : « انا اشعلتها » .
فقالوا : « كيف ذلك ايتها المجنونة ؟ فقد كنت تلك الليلة في المستشفى » .
فأجابت : « انا اشعلتها » . والآن ، ما الذي يدفعها إلى التصريح بهذه
الاشياء ؟ ليحفظنا الله من الليالي السيئة !
بيد ان شوركا كان ينهض واقفا قبل هبوط الظلام قائلا :
— انني ماض الى المنزل ، سوف تفلتي والدي ، من يصاحبني ؟

فذهب بصحبته جميعا ... ويرافقنا ياز حتى سور المقبرة ، حيث يقفل
البوابة ضاغطا على قضبانها الحديدية وهو يودعنا .
فنزد عليه التحية قلقين من تركنا إياه في المقبرة . وذات مساء التفت
كوستروما إلى وراء قائلا :

— سوف تنهض ذات صباح بديع فنجده قد فارق الحياة .
وفي اغلب الاحيان كان شوركا يقول ان ياز يحس حياة اسوأ منا جميعا ،
فيعترض الحمامة قائلا :

— نحن لا نحيا بشكل سيء مطلقاً .

فكنت اثنى على كلامه . كنت اجد اللذة في حياة الشوارع كما أجدها مع
رفاقي ، حتى انني أشعر برفقتهم برغبة عظيمة في مساعدتهم جميعا ...
وعدت إلى المدرسة لأجد المتاعب ، فقد شرع التلاميذ ينادوني بالمتسول
وجامع الاسمال ، ثم نقلوا إلى الاستاذ ، بعد مشاجرة عنيفة وقعت بيننا ، ان
رائحة غريبة تفوح مني ، حتى ليستحيل الجلوس يجاني . وما برحت اذكر كم
آلمني ذلك الادعاء . وكما وجدت من الصعب علي أن ارجع بعد ذلك إلى المدرسة
كان الادعاء افتراء دنيئا لأنني كنت على الدوام اغتسل جيدا كل صباح ، ولا
أعود إلى المدرسة بذات الشباب التي ارتديها عندما اجمع الاسمال .

وفي النهاية اجتزت امتحانات الصف الثالث بنجاح عظيم ، كوفئت عليه بشهادة شرفية وهدية مؤلفة من كتاب التوراة ، وكتاب خرافات كريلوف ، وكتاب آخر يحمل عنوانا مبهما « فانا مورجانا » . وعندما عدت إلى الدار حاملا معي هذه الهدايا ، اغتبط بها جدي كثيرا ، وانتابه سرور عظيم معلنا انه من الواجب الاحتفاظ بالكتب بمكان امين ، ولذلك سيحتفظ بها في دولابه . وقد ألم مرض يجدي جعلها تلازم الفراش منذ عدة ايام ...

وحملت الكتب إلى أحد الباعة ، فاشتراها مني بخمسة وعشرين كوبىكا رجعت بها الى جدي . وأفسدت الشهادة الشرفية بان « خرطشت » عليها ثم اعطيتها الى جدي الذي وضعها في دولابه بعناية فائقة من غير ان يكتبه إلى ما فعلته بها .

وما ان انتهيت من المدرسة ، حتى رجعت إلى حياة الشوارع التي أصبحت مع قدوم الربيع أكثر روعة وسحرا ... وأمسينا نكسب الآن كمية أوفر من المال ، حتى اننا اصبحنا في ايام الاحاد نجوب الحقول والغابات ثم نعود في المساء إلى المنزل منهكي القوى ورغما من كل ذلك فالغبطة تملأ اساريرنا ، فتأصلت روابط الصداقة فيما بيننا .

بيد ان هذه الحياة لم تدم طويلا ، فما لبث زوج أمي ان فقد عمله فتركنا إلى مكان ما ، فأنت أمي واخي الصغير نيقولاى ليسكننا مع جدي . وبما ان جدي قد مضت للإقامة في منزل تاجر غني لكي تطرز له غطاء السيد المسيح ، كان من واجبي أن أسهر على تمرير اخي الصغير .

كانت أمي الناحلة الصامتة ، تكاد لا تقوى على رفع قدمها عن الارض ، وكان اخي الصغير مصابا بقروح في يديه ، يذوي من الضعف ، حتى يكاد ان يعجز عن البكاء . فاذا جاع اخذ يثن بصوت يقطع نياط القلب واذا غفا أخذ يصعد زفرات قوية كالحمر .

وذات يوم بعد ان تفحص جدي الرضيع قال :

— ان ما يحتاجه هو الغذاء الجيد ، لكن من اين لي ان اطعمكم جميعا ؟

فتنهدت امي واجابته بصوت خافت :

- انه ليس بحاجة إلى شيء كثير .
- هذا صغير .. وذاك صغير ... والجميع كثرة ...

وطوح بيده بشبه قرف ووجه إلى الكلام قائلاً :
- ان نيقولاي بحاجة إلى اشعة الشمس . فامض به إلى الرمال ...

اخذت كيساً من الرمل التنظيف الجاف ، وجمعتها في بقعة تطالها اشعة الشمس تحت النافذة ، وقد وارت فيها اخي حتى العنق كما أمرني جدي ، فأسر لذلك ... كنت احبه حباً جما .. فأظن انه يدرك كل أفكارني فأتمده إلى جانبه ساعات طوال تحت النافذة .. كان نيقولاي يخلص ذراعيه ويمدهما نحووي هازأ برأسه الشاحب اللون ... وعندما يأتي الهجير كان جدي يمد راسه من خلال النافذة ويقول : « الغداء » .

وفي بعض الاحيان كان يأخذ اخي ويضعه على ركبتيه ويطعمه الغداء ، فكان يمضغ له الأكل المؤلف من الخبز والبطاطا قبل ان يدسه بين شفتيه .. وبعد ان يتناول الرضيع كمية من الطعام يأخذ جدي في رفع قميصه ويتحسس معدته قائلاً :

- لست ادري ان كان هذا يكفي ، اعتقد انه يلزمه كمية اخرى صفري ! فتجيب امي القابعة في الزاوية حيث تضطجع :
- الا تراه يمد يديه نحو الخبز ؟
- ان الطفل لا يدري ان كان قد اكتفى أم لا .
- فكان يلقمه كمية ثانية قائلاً في النهاية
- امض به إلى والدته .

فكنت عندما آخذه بين ذراعي ، كان اثيته يتعالى ماداً ذراعيه نحو المائدة وكانت أمي الهزيلة كشجرة عارية ، تقوّم نفسها مادة ذراعيها الهزيلتين اللتين قد ذوى منها اللحم . كنت اشعر انها مشرفة على الموت .. وكان جدي

يؤكد ذلك في حديثه عن الموت.. كان سرير جدي قائماً في الزاوية . فكانت عندما ينام يسرح نظريه عبر النافذة . وقبل ان يفرق في نومه يدمدم بينه وبين نفسه :

— لقد آن وأوان الموت . وسوف نقابل الله .. ماذا عسانا أن نقول؟ لقد عملت طوال حياتي وهذا ما حصدنا !

كنت اضطجع بين النافذة والموقد في مسافة تقصرني جداً . فادفع بقدمي تحت الموقد حيث لا تنفك الصراير تدغدغ قدمي .. كان جدي عندما يعد الطعام على الدوام ، يكسر الزجاج النافذة بطرف الملقط ووجدت انه من المضحك أن رجلاً مثله لا يحاول قطع الطرف الذي يلامس الزجاج لينتهي من ضربه . وذات يوم ، بينما كان شيئاً ما يغلي على الفرن ، اخذ الملقط ودفعه بشدة حتى تحطم الزجاج ومصراع النافذة وتهاوى الوعاء . فكانت تلك مصيبة كبرى اقعدت المعجوز على الارض حيث شرع في البكاء . كان يرول :

« آه يا إلهي ، آه يا إلهي ! » .

وعندما مضى خارج البيت ، اخذت سكين الخبز وقطعت به طرف الملقط . وعندما عاد جدي إلى البيت وشاهد ما فعلت ، صرخ :
— ايها الشيطان ، كان ينبغي ان تنشره ، هل انت سامع ؟ تنشره بالمنشار ! كان باستطاعتنا ان نصنع منه قطعاً من الدبابيس ونبيعها ، أف لهذه العشرة البلهاء .

وعندما خرج مسرعاً ، قالت لي والدتي :

— من المستحسن أن لا تقدم يدك إلى مطلق شيء .

وفي ظهيرة يوم الاحد من شهر آب توفيت . كان زوجها قد رجع مجدداً من سفره حيث وجد عملاً ، حيث استأجر جناحاً نظيفاً صغيراً واخذ معه جدتي ونيقولا ، وكانوا سينقلون والدتي اليه بعد ايام قلائل ...
وفي صباح اليوم الذي توفيت فيه ، قالت لي بصوت خافت واضح :

— إمضِ واخبر يفجيني فاسيليفيتش بانني أود مشاهدته .
ونهضت مستندة إلى الحائط ...
اردفت ، وهي ترمي ثانية على الوسائد .

— أعدو سريعاً !
لاحظت ان نوراً يسطع من عينيها وابتسامة تراود شفيتها ... كانت زوج
والدتي في الكنيسة ، فأرسلت بي جدتي إلى اليهودية كي ابتاع لها بعض
« العطوس » . ولم يكن لدى هذه الأخيرة شيء جاهز منه ، مما ينبغي أن
أنتظرها حتى تجهزه .
وفي النهاية عندما رجعت الى المنزل ، رأيت امي جالسة وقد ارتدت ثوباً
جديلاً ليموني اللون ، وقد سرحت شعرها ، متكبرة مزهوة كما كانت في
الماضي .

سألها بلهجة خجلة ، من غير ان اعلم سبب ذلك :
— هل انت احسن حالاً ؟
فحدجنتي بنظرة مرعبة وقالت :
— اقرب مني ، اين كنت تلهو ؟
وقبل ان اجيبها ، اخذتني من شعري وتناولت من على المائدة موساً طويلاً
ولطمتني بسطحه حتى سقط من يدها . قالت :
— تناوله ، هاته !

فأخذت الموسى واضعاً إياه على المائدة ، ومضيت لأجلس إلى الموقد وأنا
أتأمل والدتي بعينين فزعتين .
نهضت وسارت ببطء نحو الزاوية حيث تهاوت على الفراش واخذت تمسح
العرق الذي يبلل وجهها . كانت يدها تتحرك مذعورة وقد تهاوت على الوسادة
مرتين اثنتين والمزيد يرتجف بين اناملها .
— قليلاً من الماء ...

ملأت قدحاً من الماء وناولتها إياه فرفعت رأسها بصعوبة وارتشفت جرعة منه . ودفعني بيد باردة وهي تصعد زفرة عميقة . تأملت في الزاوية ، ثم حرك شفتيها كأنها تبسم ، ثم أرخت جفنيها الطويلين بثقل على عينيها .. بينما أفقر فيها في دعر ولم يصدر عنه أي صوت وتوقف التنفس .

بقيت هناك مدة خلتها أجيالاً طويلة والقدرح في يدي أتأمل وجه امي وه يتفطن مكتسباً اللون الرمادي .

دخل جدي ، فقلت له :

— لقد توفيت امي .

فألقي نظرة عجلى على السرير وقال :

— لماذا تكذب ؟

ثم توجه إلى الفرن حيث شرع يحرك الفطير مثيراً ضجيجاً عالياً . تأملت وأنا أدرك ان امي قد توفيت وانتظرت ان يتحقق من ذلك .

وولج زوج والدتي ، تناول يهدوء تام كرسيها وحملها إلى جانب السرير ؛ وفجأة وقعت الكرسي من يده وصرخ بصوت مرعب :

— لقد ماتت ! هل ترى !

فاندفع جدي نحو السرير ، والملقط في يده ، وكادت عيناه ان تبرزا من محجريها ..

عندما اخذوا يهاون الرمل على نعش امي ، شرعت جدتي تثقل بين القبور على غير هدى .. فارتطمت بأحد الصليبان ، وارتمت على الارض وقد تضرر وجهها . فحملها والد ياز إلى منزله . وبينما كانت تغسل جرحها همس في أذني بصوت خافت بكلمات معزية :

— ليحفظنا الله من الليالي الشئمة ، ماذا جرى لك ؟ ينبغي ان لا تشغل نفسك بهذا الامر ، ألسنت على صواب ، ابتها الجدة ؟

ورنا عبر النافذة ، وفجأة عدا خارج المنزل .. ليرجع بعد قليل جاراً معه

الحمامة .. قال الرجل الهرم ماوحا بمهاز محطم في يده .
- تأملوا هذا تأملوا ما وجدنا . اننا انا والحمامة نقدمه هدية لكما . هل
تشاهدون هذا الدولار الصغير ؟ لقد سقط من حذاء أحد القواف . كنت
أنوي أن أشتريه من الحمامة فقد عرضت عليه كوبيكين ...
فقدمم الحمامة مفتاظا :

- ما الذي يحرك على الكذب ؟
واخذ والد ياز يقفز امامي غامزاً بعينه :
- ما قولكم به .. ان الحمامة يقدمه هدية لكما ، إنه ...
عندما انتهت جدتي من غسل وجهها لفته بمندبل وتادني لمرافقتها إلى المنزل
بيد انني رفضت .. فقد كنت ادرك انهم سيتشاجرون حتما في الوليمة التي تتلوا
المأتم . فقد تناهى إلى سمعي ، عندما كنا في الكنيسة صوت الحال ميخائيل
يقول للجال يا كوف :

- سوف نأخذ قدحا لذيذاً هذا النهار ، ما رأيك ؟
فحاول الحمامة ان يخفف عني ... فقد علق المهاز بذقنه وجرب ان يتوصل
اليه بلسانه ، وشرع والد ياز يفرق في ضحك واضح المعالم انه يبالغ فيه ، وهو
يصرخ :

- ارأيتم ما يفعله ، انظروا .
بيد انه عندما وجد ان ذلك قد فشل في محاولة تسليقي ، قطب جادا فقال :
- يكفي ، يكفي ! ان كل انسان مائت حتى العصافير ، اسمع سوف أضع
بعض الاعشاب حول قبر والدتك ، هل تحب ذلك ؟ سوف نطوف البراري
ونجمع ذلك العشب جميعنا ، انا والحمامة وانت وولدي ياز كذلك . سوف نحضر
العشب ونضعه حول القبر بشكل جميل حتى لا يكون هنالك من قبر يضاهيه
روعة وجبالاً .

لقد راقتني هذه الفكرة ، فمضينا جميعا إلى البراري ...

★★

وبعد فترة وجيزة من وفاة والدتي قال لي جدي :
— حسنا يا الكسي ! انني في الواقع لا استطيع أن أجعل منك مدالية فضية
تتدلى حول عنقي ! فلم يعد يوجد لك مكان هنا بعد اليوم . فقد حان الوقت
حتى تخرج إلى الحياة وترى الناس ..
وهكذا خرجت منطلقا في الحياة إلى ما بين الناس

•

... لقد أصبحت الآن بين الناس انني « شغيل » في مخزن لصنع الاحذية
كائن في الشارع الرئيسي من المدينة .

أما صاحب العمل فقصير القامة مربوعها .. تضرب اسنانه الى الخضرة ، أما
عيناه فتتميل إلى لون الماء العكر . ظننته كيف البصر ، فأخذت أقطب في
وجهه لكي اؤكد ظني .

قال لي بلهجة حازمة خافتة :

— لا تكشر هكذا !

فلم اصدق ان تكون عيناه تستطيعان الرؤية فقد كرهت ذلك كثيراً .
وظننت أن رب عملي قد خن ما أقيته ليس إلا .

لكنه أصر بعناد اكبر ، يكاد ان لا يحرك شفتيه :

— لقد قلت لك أن لا تكشر هكذا !

فأتاني صوته الحفيض كأنه يلاحقني :

— ولا تحك يديك . يجب أن تعلم انك تعمل في مخزن من الدرجة الاولى يقع
في وسط المدينة . يجب ان يقف الشغيل عند الباب جامدا كالتمثال لا يأتي
حركة .

لم اكن على علم بماهية التمثال . كما انني لم اجد سبيلا إلى عدم حك ذراعي
الملطخة ببقع حمراء لا ترحم .

سألني وهو يختلس نظرة إلى يدي :

— ماذا كنت تعمل في البيت ؟

وعندما اخبرته بعلمي هز رأسه المستدير . الذي يلتصق فيه الشعر الأشيب
في طبقات ، قال غاضبا :

— جمع الاسمال البالية ... هذا اسوأ من الشحادة ، حتى من السرقة .

فصرخت بلهجة لا تخلو من الاعتزاز :

— ولقد سرقت كذلك .

عند ذلك استند إلى مرفقيه ، وحدجني بنظرة مندهشة ، وصفر وهو
جالس إلى مكتبه :

— ما .. ذا ؟ هل قلت انك سرقت ؟

فأوضحت له الامر ولماذا فعلت ذلك ...

— حسنا لننس ما حدث .. لكن إياك ان تسرق درايمي أو احذيق فسوف

أذك بك في السجن حتى تبلغ سن الرشد .

قال ذلك بلهجة هادئة . الامر الذي ذعرت له وضاعف من كراهيتي له .

كان في المخزن مساعدان لرب العمل : ابن خالي ساشا (ابن الخال ياكوف)
ومساعد كبير ، وهو شاب ماهر . نحيف القوام ، مرح النفس . وكان ابن
الخال ياكوف عظيم الاعتزاز بنفسه حتى انه كان يتجاهل وجودي ويتنكر
لي .

فعندما أتى بي جدي إلى صاحب المخزن وطلب من ساشا ان يساعدني في

تعلم اسرار المهنة ، قطب ساشا ما بين حاجبيه بخطورة وقال :

— يجب عليه أولاً ان يعرف كيف يطيعني .

فدغدغ جدي رأسي بيده وقال :

- أطلعته ، فهو أكبر منك سنًا ومركزاً .
 وعند ذلك حدث ساشا بنظرة ذات معنى وقال :
 - يجب أن نذكر كلمات جدك !
 وطفق يستغل تقدمه في السن عليّ منذ أول يوم .
 نبيه صاحب العمل قائلاً :
 - كفائك حلقة يا كاشيرين !
 فحنى ساشا رأسه واجابه :
 - انا ، اني لم اخلق أبداً .
 ويكون صاحب العمل لم يفته بعد من توجيه الارشادات اليه ..
 - لا تشد بذقنك هكذا ... قد يحسبك الزبائن تيساً .
 فضحك المساعد الأكبر بلهجة متحبة .. أما ساشا فتوارى تحت المكتب
 وقد علا الاحمرار وجنتيه من الحجل .
 لقد سمعت هذه الكلمات : فهؤلاء الناس يستعملون كلمات غريبة حتى اظنهم
 في بعض الاحيان انهم يتكلمون لغة اجنبية .
 وغالباً ما كان المعلم يذهب إلى غرفة صغيرة كائنة في آخر المخزن وينادي
 ساشا ، ويترك مساعده الأكبر مع بعض الزبائن . وما زلت أذكر انه في ذات
 مرة قد مس ظهر قدم سيدة شقراء سمينة ، ثم جمع رؤوس ائامله إلى بعضها
 وطبع عليها قبلة .
 قالت المرأة بغنج :
 - آه ! ... يا لك من خبيث
 فانفجرت عند ذلك ضاحكاً بصورة مجنونة ، وقد تمسكت بقبضة الباب
 حتى لا يقع فانفرج الباب واصطدم رأسي بزجاج فهشمه وسقطت ارضاً ...
 فرفسني المساعد الأكبر ، في حين أن صاحب العمل قد دك رأسي بخناقه العظيم .
 وحاول ساشا أن يشد اذني . ونبهني بلهجة حازمة ونحن في طريق عودتنا إلى
 المنزل قائلاً :

- في المرة القادمة سيكون مصيرك الطرد.. ما الذي اضحكك بهذه الصورة؟
كنت اجد حياتي الآتية باعثة على الضجر والملل . بعد ان اعتدت حياة
اللهو والحقول والحرية والطواف على طول ضفتي نهر الاوكا ، أو في شوارع
كوتافينو الرملية . وكنت أشتاق إلى اصدقائي وجدتي .. فلا أجد انساناً
اتكلم اليه ، ما عدا الجانب الخداع من الحياة الذي كان يثير غضبي وحنقي .
فقالبا ما كانت السيدات يغادرن المخزن من غير ان يبتعن شيئاً ، وعند
ذلك يثور غضب صاحب المخزن وقد ألم به الفشل ، فيأمرني وقد توارت عن
شفتيه تلك الابتسامة المريبة :

- كاشرين . ارجع الاحذية إلى أماكنها :

ثم يشرع في كبل السباب والشتائم من غير حساب :

- ائت تلك الخنزيرة تلوك بخرطومها هنا ، لقد كنت من الجلوس في البيت ،
فأنت تنفس عن نفسك بالتجوال في المخازن . آه لو كانت زوجتي لأريتها نجوم
الظهيرة ...

وبعد الغداء تمدد صاحب المخزن في الغرفة الصغيرة .. فنزعت غطاء ساعته
الذهبية وسكبت بعض الخل في آلاتها . وكم كان سروري عظيماً عندما شاهدته
يدخل المخزن بعد أن أفاق من نومه وقد امسك بالساعة في يده ، وهو
يتمدم :

- ما قولكما في هذا الامر ؟ لقد عرقت ساعتي من غير انتظار . لأنه لم

يحدث من قبل أن عرقت . تأملا ذلك ! هذا بشير شوم !

وذاث يوم ، بينما كنت افرغ صندوقاً جديداً في الساحة من البضاعة ، دنس
مني حارس الكنيسة ، رجل هرم مشوه الكتفين ، نحيل الجسم بالـ
كالأسمال .

سألني :

- هلا سُرقت لي حذاء يا صغيري ؟

لم اجبه ، بيد انه جلس على صندوق فارغ ، وهو يتشاهب ثم رسم إشارة

على شفتيه ، مكرراً سؤاله :

– هلاّ فعلت ذلك ؟

فأجبتني :

– ان السرقة أمر باطل .

فقال :

– لكنّها تقع ، هيا يا عزيزي ، وقم بذلك احتراماً لشيخوختي .
كان يبدو لي مختلفاً عن الآخرين . بشكل يبعث الطمأنينة ، وبقي يلح عليّ
حتى قبلت أخيراً أن ألقي إليه بالحذاء عبر النافذة .

قال بلهجة هادئة ، ولكن بصورة غير مرضية :
– حسناً ! انت لن تعشني ، اليس كذلك ؟ لا بأس ، فأنا أعلم أنك لست من
الذين يسخرون من الناس .

وبقي جالساً مدة وجيزة من غير أن يتكلم ثم قال فجأة :
– لكن ماذا لو كنت أنا أغشك ؟ ماذا لو اخذت هذا الحذاء إلى صاحب
المخزن وقلت له بأنك قد بعثني إياه بنصف روبل وثنه يساوي روبلين ، ما
رأيك ؟

تأملته بدهشة ، كأنه أبلغ ما وعد ، بينما أردف بصوت خفيض :
– ما رأيك لو أن صاحب المخزن هو الذي دفعني إلى ذلك « إمض وجرب
هذا الفتى الذي يعمل عندي » وتحقق من مقدار أمانته . ماذا عند ذلك ؟

فقلت مغتاضاً :

– لن أعطيك إياه !

فرد عليّ قائلاً :

– انك لا تقدر على التهرب بعد أن وعدت بذلك .

وأمسكني من يدي وشدني لحوه ، وتقر على جبهتي وهو يقول :

- كيف رضيت ، بهذه البساطة . (خذ حذاءك) !
- لقد طلبته ، أليس كذلك ؟

- انني قادر على طلب أشياء عدة . فلو سألتك أن تسرق الكنيسة فهل تسرقها ؟ كيف تستطيع أن تثق بهذه البساطة في الناس ، أيها الأبله الصغير ؟
ونهض وهو يدفعني عنه :
- انني لست بحاجة إلى حذاء مسروق .. فقد كنت أمزح . وبما أنك قد وثقت بي فسوف أسمح لك بالصعود إلى برج الجرس . آتني في أسبوع الآلام ، حيث تقدر أن تشاهد المدينة وانت تقرع الجرس .

- انني أعرف المدينة .
- انها أجل من البرج بصورة أكثر .
ومشى ببطء ، وهو يذري الثلج بعقبه حذائه ، حتى توارى وراء زاوية من الكنيسة . وبينما كنت أتأمله وهو يرحل ، أخذت أسأل نفسي باضطراب :
هل كان هذا الرجل يمزح فعلا ، أم أن صاحب المخزن قد بعثه ليجريني . واختلجت نفسي بالخوف وأنا أدخل المخزن .

صرخ ساشا بي وهو يلج الساحة عدوا :
- ماذا كنت تفعل كل هذا الوقت هنا ، بحق الشيطان ؟
فمررت « التناشة » أمام عيني وقد اجتاحتني موجة عارمة من الحقد .
كنت أعلم أنه والمساعد يشتركان في سرقة صاحب المخزن . وقد يخفيان عدد من الاحذية في مكان حتى يحين وقت الانصراف . فينصرفان وقد أخفيا المسروقات في أكمام معطفيهما ، وهذا ما أغاظني وأرعيني في وقت واحد لأنني لم أنس بعد وعيد المعلم وتهديده .
سألت ساشا :
- هل تسرق ؟

فأجاب محتدأ :

— أنا لا أحاول السرقة مطلقاً ، بل إنني أساعد المساعد الكبير ، فهو يقول لي : « افعل ما أقوله لك ! » وأعتقد أنه سينتقم مني ان لم أفعل ما يأمرني به ، أما صاحب المخزن فإنه كان يوماً ما مساعداً في مخزن ما ، وهو يدرك جميع هذه الحيل . لكن يجب أن تلم لسانك !

كان يتأمل من غير انقطاع صورته في المرآة من غير أن يكف عن الكلام ، ويسوّي من ربطة عنقه .. وكان يصدر دائماً أوامره لتقدمه في السن عليّ . فقد كان يزعم في وجهي بصوت جهوري ، ويوميء لي بتعجرف كبير .. كان يحقد على الطامية وقد كانت غريبة لا يستطيع المرء أن يتحقق من أنها شريرة أم طيبة .

كانت تصر على أسنانها وتحملق بعينها وهي تقول :

— أحب المشاجرة أكثر من أي شيء آخر ..

وكان اذا نشب قتال بين الحمام أو الديكة خارج البيت ، كانت تترك عملها وتسرع الى جانب الحائط حيث تقبع واقفة الى أن ينتهي القتال .. وكانت في المساء تلتفت الى ساشا قائلة :

— لماذا تقبعان هنا ، أيها الصبيان ؟ لماذا لا تتشاجران في معركة ودية .

فيشتعل ساشا حقداً :

— لست صبياً ، أيتها العجوز البلهاء ، انني المساعد الاصغر !
— ما أصعب تصديق ذلك ! سوف تبقى صبياً في نظري حتى يوم زفافك .
— أف لك من عجوز حقاء ، خاوية الرأس !
— الشياطين ذكية ، والله لا يحبها !
كانت طريقة حديثها تغيظ ساشا .. فكأن يحاول مضايقتها وان فعل كانت

ترمقه بنظرة سريعة وتقول :

- تفو ! أيها الصرصور الحقيق ، يا مصيبة الله الكبرى .

كانت ، عندما تشعر بالسأم والضجر ، تطلب مني أن أقص عليها بعض الروايات ، فأروي لها وأنا نصف يقظان وهي ما زالت مطبقة الشفتين تهتز الى الوراء والامام . ويخيل لي أن رائحة من الشمع والبخور تفوح من جسدها ، وانها سرعان ما ستموت .. فأشعر بخوف محتاحني ، فأرفع من صوتي . فتقاطعني قائلة :

- صه ! ستوقظ أولاد الزني هؤلاء فيعتقدون أنك عشيق .

كانت دائماً تجلس في وضع معين حانية الظهر ، وقد التفت يداها حول ركبتيها وضغطت ساقيها بشدة على بعضها ، حتى أن أضلاع صدرها كانت تبدو من تحت قميصها الحشن .. كانت تقبض هكذا مدة طويلة وفجأة تقول بلمحة هامة :

- ليتني أموت ، لكي أتخلص من هذا الشقاء !

أو تلتفت إلى أحدم قائلة :

- لقد أمضيت أيامي ، فما هو نفعها ؟

حتى انها كانت لا تتوانى عن مقاطعتي في منتصف القصة لتقول لي بنبرة حادة :

- هيا إلى النوم !

كان ساشا يناديه من وراء ظهرها : « الساحرة العجوز » وذات مرة قلت له أن يناديه وجهاً لوجه بهذا الاسم ، فصرخ :
- أعتقد أنني أخاف ؟

لكن سرعان ما قطب وجهه وأردف :

- كلا ، لن أناديه بذلك في وجهها . فربما تكون ساحرة فعلاً .
لم تكن ترحم أي شخص أبداً فهي الغضوب المتعجرفة ، كانت تشدني متى

قدمي في السادسة صباحاً ، وقصرخ :
- يكفي شخيراً ، انهض واحضر الخطب ، وقشر البطاطا !

كان ساشا يهب من ثومه على صوت صراخها ، فيصرخ في وجهها :
- لماذا تنبحين ؟ سأخبر صاحب المخزن بانك لا فكرين لنا فرصة للنوم .
تنهض وهي تسمر عينيها المشتعلتين في وجهه متجهة نحو المطبخ وتقول :
- تقو ، يا مصيبة الله الكبرى ! لو كنت أجيري لما أبقيتك لحظة .

فيسبها ساشا :

- لعنة الله عليك !

ثم يصرخ لي ولنحن في طريقنا إلى المخزن :
- سأجعلهم يتركونها . سأضيف إلى الطعام كمية كبيرة من الملح في غفلة عنها
وبما أن الطعام سيكون دائماً مالحاً فإنهم سيضطرون إلى طردها . بل سأضع
بترولاً ، لماذا لا تفعل ذلك ؟

- لماذا لا تفعله أنت ؟

فصرخ في وجهي :

- جبان !

وتوفيت الطاهية أمام ناظرينا . فقد كانت منحنية لترفع شيئاً عن الأرض ،
فتدحرجت على جنبها وأرخت يديها ، وأخذ الدم ينزف من فمها .
وبقينا فترة عاجزين عن الكلام ، وأخيراً انطلق ساشا خارج المطبخ ...
وأقبل صاحب المخزن ، وجلس القرفصاء إلى جانبها مضطرباً ثم جس جسدها ،
وقال :

- لقد توفيت فعلاً . ما قولك في ذلك ؟

ثم أخذ يرسم إشارة الصليب ، حتى إذا انتهى من صلاته صرخ عبر
المشى :

كاشرين ، انطلق واعلم الشرطة !

وأتى أحد رجال الأمن ، وأخذ يتنقل بثقل .. حتى قبض رشوة ومضى .
وسرعان ما عاد بصحبة سائق عربية ، وحمل الطاهية ونقلها إلى الخارج .
وكانت امرأة صاحب المخزن تسترق النظر من فتحة الباب .
قالت تأمرني :

– أفرك الأرض جيداً
وتنهّد صاحب المخزن قائلاً :
– حمداً لله أنها توفيت في المساء .
ولم أدرك لماذا يحمّد الله على ذلك ..

وعندما اضطجعت في الفراش قال ساشا بلهجة غير مهودة من الرقة :
– لا تطفئ النور !
– هل أنت خائف ؟

فغطى رأسه باللعاف ، وركن إلى السكون مدة طويلة . وكان الليل بدوره
هادئاً صامتاً كأنه يسترق السمع إلى شيء ما . وتحيلت أن رنين الأجراس سيتعالى
بعد لحظة ، وإن سكان البلدة سينهضون هلعين وهم يتدافعون في شيء من الخوف
والجزع .

ثم أخرج ساشا أنفه من تحت اللعاف . واقترح عليّ بلهجة رقيقة :
– لنم جنباً إلى جنب على الموقد .
– الحرارة شديدة هناك .
ثم غرق في الصمت من جديد...
وأخيراً قال :

– ألم تتركنا فجأة ؟ لقد ظننتها ساحرة . إن النوم لا يراود أجفاني .
– ولا أنا .

وشرع يتحدث عن الأموات ، وكيف ينطلقون من قبورهم الى البلدة في منتصف الليل . مفتشين عن منازلهم وأهلهم .

ثم همس في أذني قائلاً :

— الموتى يتذكرون البلدة فقط ، بيد أنهم لا يتذكرون الشوارع والمنازل .
واشتدت السكينة وخيل إليّ أن الظلام يشتد حلقة ...
... كانت الرياح تعصف والمطر ينهمر ضارباً النافذة بجيبياته .. فاستدار
ساشا تجاه الحائط ولاذ بالصمت .

وفجأة من غير أن يلتفت إليّ قال :

— مهلا حتى تجف أرض الحديقة .. سأريك شيئاً يبهر أنفاسك .
واتجهت إلى الفراش من غير أن أجيبه .

وبعد لحظات من ذلك هب من فراشه فجأة ، وأخذ يضرب الحائط ثم قال
بصوت أدركت منه مبلغ خوفه وهلمه :

— إنني خائف .. آه يارب ، هل أزلت خوفاً يا رب ، ارحمني !

وفجأة سرت عدوى الخوف إليّ فشعرت برعشة خوف باردة تجتاح أوصالي
وتخيلت الطاهية تقف إلى النافذة وهي تشد نفسها إلى الزجاج وقد أولتني ظهرها ،
كما هي عاداتها حين تراقب مشاحنة الديكة .

بعد بضعة أيام أقبل علينا عيد لم نشغل فيه إلا قبيل الظهر ، فرجعنا أدرأجنا
الى البيت لتناول طعام الغداء ، وبعد أن آوى صاحب المخزن وزوجته لأخذ
قسط من النوم في الظهيرة أقبل عليّ ساشا خفية وقال :

— تعال معي !

وأدركت أنه في سبيل مرافقتي الى رؤية ذلك الشيء الذي سيبهر أنفاسي .
زلنا الى الحديقة فاستدار ساشا حول البيت متجهاً نحو سور الشارع ثم توقف
تحت إحدى الشجيرات ، وبقي واقفاً فترة طويلة يراقب المنزل المجاور وجلس

القرفصاء ، فجأة وأخذ يزيل كومة من الأوراق بيديه ، حتى كشف عن جذع معوج وقرميدتين قد غرقتا في الأرض الى جانبيه . فأزاح القرميدتين فاذا بصفيحة من القصدير قد فرشت تحتها ، وما ان أزاحها حتى شاهدت حفرة عريضة في باطن الأرض .

أخذ ساشا عوداً من الثقاب وأشعل بقايا شمعة قد خبأها في تلك الحفرة .
ثم قال :

— أنظر ؛ لكن لا تخف .

كان الخوف يرسم على وجهه بوضوح تام ، فالشمعة ترتعد في يده ، واصفّر لونه ووارى يده الثانية خلف ظهره ، وانتقلت عدوى الخوف إلى ، فتأملت باحتراس بالغ إلى ما تحت الجذع الذي يشكل قوساً لكهف صغير . في حين أشعل ساشا ثلاث شمعات يهت المكان بنور أزرق ، كان الكهف بالغ العمق وقد غطيت جدرانها بقطع من الزجاج الملون والفخار . وفي وسطه مرتفع صغير وضع عليه نعش قد صنع من القصدير الرقيق . شبه مغطى بقطعة من القماش تشبه النسيج الحريري . ومن تحت هذا الغطاء كانت مخالب رمادية لعصفور دوري تبرز مع متقاربه الصغير .

كان نور الشمعات الثلاث يتجه نحو فوهة الكهف فيشكل ألواناً براقية متعددة . كان الكهف يعبق برائحة التربة والنفوثة في فترات متراوحة ، بينما ارتسمت ألوان قوس قزح أمام ناظري . كل ذلك أثار في نفسي الدهشة وبسده خوفاً وأزاله .

سألني ساشا :

— أليس هذا بديعاً ؟

— لكن ما فائدته ؟

فأوضح لي :

— إنه مكان حرم ، أفلا يبدو لك كذلك ؟

- لست أدري .
- العصفور الدوري يمثل الجسد . وربما أصبح جثثانه معجزة مقدسة لأنه
قضى ضحية بريئة !

- هل عثرت عليه ميتاً ؟
- كلا . لقد دخل الكهف ، فاصطدته بقبعتي وخنقته .
- لماذا فعلت ذلك ؟
- هذا ما حدث .

وحدثني بنظرة غريبة من جديد ، واستوضح :
- أليس هذا بديعاً ؟
- كلا !

فانثني وسد الكهف بسرعة بواسطة القطعة الخشبية ، وقطعة القصدير ثم
أرجع القرميدتين إلى مكانها ، ثم نهض واقفاً وهو يزيل التراب العالق على ركبتيه
وقال بلهجة جافة :
- لماذا لم يعجبك ذلك ؟

- لأنني حزنت على ذلك العصفور الدوري .
ثم سرح نظره في نقطة بعيدة كأنه يسترجع شيئاً ما ثم لطمني على صدري
فجأة ، وزعق قائلاً :

- أحمق ! لقد زعمت أنه لم يعجبك لأنك تغار . بل ربما تعتقد أنك رقت
زاويتك في الحديقة بصورة أجمل ، هناك في شارع الكائناتنايا ؟
فأجبت من غير تردد ، وقد عادت صورة الزاوية إلى مخيلتي :
- انه فعلاً كذلك بكل تأكيد .
فنزح ساشا معطفه ورماه أرضاً ونفث في يديه وصرخ :
- حسناً إذن لنتقاتل .

لم اكن اجد رغبة في القتال في ذلك الحين فقد كنت متضجراً من كل ذلك .
فلم اعد اطبق رؤية وجه ابن خالي الفاضل .
هجم عليّ والقاني رضاً ثم جثم فوق اضلاعي صائعاً :
- الحياة ام الموت ؟

كنت اشد منه وقد ثار غضبي الآن . ولم يمض زمن حتى كان متهاكاً علي
الارض وقد خارت قواه ، واضعاً يديه فوق رأسه ، وجربت ان انهضه ، وقد
شعرت بقلقي عظيم بيد انه دفعني عنه ، مما ضاعف قلقي . وابتعدت عنه لا ادري
ماذا افعل .

- لقد تغلبت عليك الآن . سأظل متمدداً علي الارض حتى يماثر عليّ
صاحب الخزن وسأعلمه بكل شيء فيطردك .
واخذ يكيل لي الشتائم مما اثار غضبي ، فقصدت الكهف ، وانزعجت
القرميدتين ، والقيت بعش العصفور من فوق السور ، ووطئت الحفرة بقدمي .
- اليك اليك هل شاهدت هذا ؟

كان رد فعل ساشا شديداً . فقد اقتعد الارض وفمه نصف مشدوق ، وقد
تقوس حاجباه ، يتأملني من غير ان يقول كلمة وعندما انتهيت مما فعلته ، نهض
علي مهله نافضاً عنه الغبار ، ثم القى بمعطفه علي كتفيه ، وقال بلهجة هادئة فيها
شيء من الوعيد :

- سوف تشاهد ما يحصل . مهلاً لقد فعلت هذا من اجلك فقط ، انه
سحر ! وقد تم الآن .

فشعرت ببرودة تسري في اوصالي كالجليد قتهاويت في مكاني وابتعدت عني
ساشا من غير ان يتطلع وراءه . . محطمني ببروده ذلك .
وتم رأيي ان اهرب في صباح اليوم التالي من المدينة وصاحب الخزن ومن ساشا
وسحره حتى من الحياة الرتيبة الموحشة .

صرخت الطاهية الجديدة وهي تنبهي من النوم في الصباح :

– يا الهي ! ماذا جرى لوجهك ؟

فقلت بيني وبين نفسي ، وقد انتابني شعور من الرعب :

– لقد بدأ السحر فعله !

بيد ان الطاهية انفجرت ضاحكة حتى اني لم اتمالك نفسي من الابتسام
عندما رأيت وجهي في مرآتها . كان وجهي قد غطي بطبقة كثيفة من الهباب .

سألت :

– هل ساشا فعل ذلك ؟

فقمقتها الطاهية قائلة :

– قد اكون انا التي فعلت ذلك .

وشرعت في تنظيف الاحذية بيد انني ما ان وضعت يدي داخل احدها

حتى لذعني وخز دبوس ، فقلت في نفسي :

– لعل هذا ايضاً من فعل السحر !

كانت الابر والديابيس قد وضعت بأحكام في جميع الاحذية بصورة لا بد لها
من وخز اللحم . فأخذت وعاء من الماء البارد وصببته بغبطة كبيرة فوق رأس
الساحر الذي كان لا يزال يغط في نومه أو أنه كان يتظاهر بالنوم .

بيد أن الشقاء من ذلك لم يغادرني . حتى انني لم استطع التخلص من رؤيا
النمش الذي يلذ المصفور الدوري ومخالبه العارية بينما نور ساطع يشع من
حواله يحاول عبثاً ان يلم نفسه في قوس قزح . واتسع النمش وكبرت مخالب
المصفور ، واخذت تكبر وتكبر ، حتى دببت فيها الحياة .

قررت في تلك العيشة على الهرب . بيد انني بينما كنت أسخن الحساء على النار
قبيل الفداء ، فسبغت في بحر من التصورات والاحلام وبقي الحساء يغلي كثيراً .
وعندما حاولت اطفاء النار انقلب القدر على يدي فارسلت الى المستشفى .

كان الناس جميعاً وخاصة جدي وجدتي يرددون دائماً ان الناس يتضورون جوعاً
حتى الموت في المستشفى . فادركت ان ايامي قد امست معدودة . واقتربت
مني امرأة ذات نظارتين وكتبت شيئاً لم ادركه بالطبشور على لوحة مشبّعة عند
رأس سريري . فتكسرت الطبشورة وتناثرت على شعري .

سألني :

-- ما اسمك ؟

- ليس لي اسم .

- ليس لك اسم ؟

- كلا .

- يكفي هزأراً ، وإلا ضربت .

وانني كنت على يقين تام بانهم سيجلدونني ، أبيت ان اجيبها إلى طلبها ..
فبصقت ثم توارت .

واشعل قنديلان واخذنا يلتهبان كأنها يودان ان يتحدا بنور واحد .

تعالى صوت احدم في زاوية ما :

- هيا نلعب بالورق .

- وكيف اللعب بيد واحدة ؟

- آه لقد بتروا ذراعك اذن ، اليس كذلك ؟

وخيل اليّ انهم بتروا ذراعه لانه لعب الورق فاخذت اتساءل ماذا يحل بي
قبل أن يقتلوني .

وتطاول الليل حتى بدا كأنه اعوام . فانزلت قدمي على الارض ونهضت
باتجاه الباب المزدوج . كان شبه مفتوح فما ان وصلت اليه حتى بسدا لي شبح
في الظلمة قابض على صخرة اشيب الشعر وشاهدت عيناه تحمقان بي ، فحاولت
الاختفاء .

— من الذي يتجول هناك ؟ تعال هنا !
كانت رنة الصوت ناعمة لا توحى بالرعب أبداً . فتأملت طريقي ، وتأملت
وجهه المدور الملتحي . كان شعره يتناثر في جميع الأرجاء كهالة فضية . وسلسلة
من المفاتيح تتدلى من حزامه .. وخيل لي أنه لو كان شعره ولحيته أطول بقليل
لكان أشبه خلق الله بالقديس بطرس .
— هل انت ذو اليدين المحروقتين ؟ لماذا تتجول في حلقة الليل ؟ هذا شيء
يخالف القوانين واللائحة المرعية .

ثم نفث الدخان في وجهي وطوفني بذراعه الدافئة وشدني اليه :
— هل انت خائف ؟
— اجل .
— الجميع هنا يخافون لأول مرة . بيد انه ليس من داعٍ للخوف . وخاصة
معي ، لانني لا اترك احداً يصاب باذية .. اين والدك وولدتك ؟ ليس لك من
اب ولا ام ؟ لا بأس ، لا حاجة بك اليها فينبغي ان تتدبر امورك من دونهما .
لان اظافرك لم تعد ناعمة .

لقد مضى وقت بعيد لم اصادف فيه انساناً يتحدثني بهذه الاحاديث البسيطة
الناعمة ، وكنت اجد لذة في الاستماع الى اقواله .
ثم ارجعني الى سريري .
رجوته :

— إبقى لحظة أخرى معي .
فاجاب :
— حسناً ، سأبقى .
— من انت ؟
— جندي ، لقد حارب في القفقاس ، وحاربت في معارك عديدة وهذا

شيء طبيعي اذ أن الجندي يمشي لخوض المعارك . وقد اشتركت في صفوف
الهنغارين والشراكسة والبولونيين ، ان الحرب يا بني شر كبير .
وغفيت برهة ، وعندما أفقت من غفوتي وجدت جدتي جالسة مكان
ذلك الجندي ، بينما قد انتصب هو في جوارها ، يقول :

- وهكذا توفي الجميع . لا تقولي ذلك !
واشرقت الشمس بطلعة بهية كطفل يرح ، ثم اختفت بسرعة صابغة كل شيء
في الافق بلون اشعتها الذهبية ، لتعود أدراجها من جديد باسراق جديدة
فتملأ الكون باشعتها الدافئة .
اثنت جدتي وسألتنني :

- ماذا جرى لك ، يا صغيري ، هل تأذيت ؟ لقد اعلمت ذلك الوحش
الاحمر الرأس بالقضية ..
فقال الجندي ، وهو يذهب :
- سأدبر كل شيء ، في لحظات ، وفقاً للأنظمة والقوانين .
قالت جدتي وهي تمسح الدموع عن وجنتيها :
- يظهر ان هذا الجندي من بالاخنا .
وركنت الى صمت عميق وانا اعتقد انني ما زلت غارقاً في بحر من
الاحلام .

ثم اتى احد الاطباء وضمدي يدي ، ثم غادرت المستشفى بصحبة جدتي
فاجتازنا شوارع المدينة ونحن في عربة .
قالت جدتي :
لقد فقد جدك عقله . واصبح عظيم البخل ، حتى انه يثير الاشمئزاز ..
كانت السحب تتطاير في السماء كالعصافير والشمس تتلألأ بانراوها .. واخا
قلبي يفرد كالحسون :

- كم احبك ، يا جدتي !

فلم تندهش لذلك .

قالت ببساطة :

- هذا طبيعي .. بيد انني لا استطيع ان اقول أن الغرياء كذلك

يحبونني .. لتكون المذراء الطاهرة مباركة !

واردفت وهي تبسم .

- لسوف تفرح سريعاً ، فابنها سيقوم من بين الاموات ، اما ابنتي انا ،

فاريوشا ..

وركنت الى صمت عميق !

* *

وجدت جدي في ساحة المنزل حيث كان راکعاً يسوي عموداً بفأسه . القى
 الفأس كأنه هم أن يضربني ، ثم نزع قبعته وقال بلهجة استهزاء ومهاترة :
 - أهلاً بكم بيننا ، يا صاحب السعادة المعظم . ها قد انتهت خدمتك ؟
 حسناً تستطيع ان تعيش كما يحلو لك . تفو !
 فقاطعته جدتي وهي تلوح بيدها :
 - نعلم هذا كله .

وعندما ولجنا الغرفة التفتت اليّ جدتي قائلة :
 - لقد افلس جدك هذه المرة تماماً ! فقد اعطى جميع ما عنده من مال
 لنقولاى ، ابنه في المعمودية ، ليعمل به لحسابه من غير ان يأخذ ايصالاً بذلك .
 لست اعلم ما جرى بالتأكيد ، لكنني اعلم انه فقد جميع ما يملك ، هذا جزاء
 من لم يساعد الفقراء والمساكين لم نرحم البؤساء وهكذا فعل الله فلم يرحم آل
 كاشرين . فأخذ منا كل شيء .

وتلفتت حولها ، واردفت :
 - وقد عملت جهدي كي احزن قلب الله حتى لا يقسو كثيراً على العجوز
 الهرم . فاني اخرج في الامسيات ، أوزع بعض الحسنات على الفقراء مما اكسبه .
 في استطاتنا الليلة الذهاب معاً اذا اردت فعندي شيئاً من المال .

وبدا جدي في الباب ، كالح الوجه كئيب الطلعة .
قال :

— هل حصلتيا على ما تقوآن به أنفسكم ؟
فأجابته جدتي :
— لسنا نقتات من أموالك . باستطاعتك أن تبقى معنا إذا شئت فهناك ما
يكفيينا .
فجلس إلى الطاولة ودمدم بلطافة :
— اسكبي لي قدحا .

لم يتغير شيء في الغرفة ، سوى زاوية أرمي المهجورة التي تبدو كثيبة المظهر ،
وعلى الحائط فوق سرير جدي علقت ورقة كتب عليها بأحرف كبيرة : « خلّص
ايها المسيح نفسي ... لترافقني رحمتك طوال حياتي حتى ساعة وفاتي » .
— من كتب هذا ؟
فلم يجر الجسد جواباً ، بينما قالت جدتي بعد لحظة من الصمت وهي
تبتسم :

— هذه الورقة تساوي مائة روبل .
فصرخ جدي :
— هذا شيء لا يخصك . سأهب جميع ما أملك للغرباء !
فأجابته جدتي بلهجة صارمة هادئة :
— لم يبقَ عندك شيء تهبه ، وإذا بقي فأنت تبخل به على نفسك .
فزعل الجد :
— صمتاً !

وأنتني أخبار فاجعة موت فياخير وأنا في الشارع في أسبوع الآلام ، لقد مات
بالجدري ، وانتقل غايي إلى المدينة ، في حين أن ياز فقد القدرة على المشي فهو غير

قادر على مبارحة منزله . وقال لي كوستروما القاتم العينين ، وهو يقص عليّ
هذه الاخبار :

- ان الأولاد يموتون سريعاً !

- لم يمِثْ غير فياخير .

- الأمر سيان . عندما يمضي الفتى في الشارع تستطيع أن تعتبره ميتاً .
انك لا تكاد تصادق أصدقاء وأصدقاءك الألفة بأحدم ، حتى يبعثوا به الى العمل
أو يطوي الموت حياته . وقد استأجر سكان جدد في ساحتك عند شيسنو كوف
ولهم صبي اسمه لوشكا ، صبي طيب ، شديد الهزال ، وابنتان ، الواحدة صغيرة
والأخرى عرجاء ، تمشي على عكازين . وهي جميلة .

واردف بعد فترة :

- لقد وقعنا أنا وشوركا في هواها . ولا نزال طوال الوقت نتخاصم .

- معها ؟

- بالطبع لا . فيما بيننا ، فنحن قليلاً ما نتخاصم معها .

وشاهدت الفتاة العرجاء في عشية ذلك المساء . كانت تنزل سلم الساحة ،
فأفلتت منها عكازاتها ، فبقيت مكانها غير قادرة على الحركة ، وقد تشبّلت
بالدرايزين . فحاولت بنفسها أن التقط العكاز ، بيد أن ضمادات يدي خانتني ،
فبقيت مدة أحاول مفتافاً بينا وقفت هي تتأملني وتضحك برقة بالغة .

سألتني :

- ماذا جرى ليديك ؟

- لقد حرقتها .

- وأنا عرجاء . هل تسكن في هذه الناحية ؟ هل أمضيت زمناً طويلاً في

المستشفى ؟ لقد أمضيت فيه مدة طويلة .

وأردفت بعد أن أصعدت تنهدة حرة :

— مدة طويلة هائلة.

كانت ترتدي ثوباً أبيض عتيقاً ، ومع ذلك فهو مرتب المنظر .. كان شعرها المسرح ناعماً ينساب على صدرها في صفائر قصيرة ، تضفي الوداعة في عينيها .. تملو مبسمها ابتسامة عذبة ، مع كل ذلك لم ترق لي حتى ان كل كيانها المريض يكاد ان يقول :

— لا تلمسني ارجوك !

شعرت بالاضطراب ، فرجعت ادراجي الى المنزل .

* * *

وتتالت الحياة ، سريعة .. فكان كل مجرى فيها يفعم نفسي بانطباعات تغبطني ، او تكدرني ، او تشلني ، او تحملني على التأمل والتفكير . وسرعان ما شعرت برغبة عارمة تتأجج في نفسي لرؤية تلك الفتاة العرجاء ، والتحدث معها ، او الجلوس الى جانبها بهدوء وسكون قرب البوابة . حتى ان الجلوس بجانبها بصمت عميق كان يبعث في نفسي الغبطة ، كانت نظيفة مرتبة تجيد وصف الحياة في القوزاق حيث عاشت فترة من الزمن مع عمها وهو ميكانيكي في مصنع للزبدة والألبان ، ثم رحل والدها وهو صانع اقفال ، الى نيجني نوفجورود .

— ولي عم آخر يعمل في خدمة القيصر نفسه .

في امسيات الأعياد كان الناس القاطنون في ذلك الشارع ينطلقون من منازلهم فيمضي الفتيان والفتيات الى المقبرة يتنزهون وينشدون اعذب الأغاني ، بينما ينطلق الرجال الى الحانات ، ولا يبقى في الشارع غير النساء والأولاد ... كنا نلعب بجوية فائقة ومنافسة وحشية ، ومها غرقنا في لعبنا ، شوركا وكوستروما وانا ، فمن المؤكد اننا نخصص بعض الوقت لنعدو نحو الفتاة العرجاء ونمتر بمهارتنا وقوانا .

— هل شاهدت كيف رميت الاوتاد الخمسة بضربة واحدة ، يا لودميلا ؟
فتبتسم بركة ، وهي تهز رأسها .

كانت شلتنا تلعب ، فيما سبق ، في صف واحد من اللعبة ، أما الآن فأنني
ألاحظ أن شوركا وكوستروما يفترقان في معسكرين مختلفين ، ويعملان بشق
الطرق للتنافس في المهارة والقوة الى درجة المشاجرة في بعض الاحيان . وقد
تشاجرا ذات مرة بعنف شديد اضطر معه الكبار الى التدخل ، وقد سكبوا
عليها الماء فكأنها كلبان يتعاركان .
كل ذلك ضايقي وكدرني . فقد أدركت انني أفقد صديقي ، والسبب في
ذلك كله لودميلا وحدها .

وبينما كنت ، ذات مساء ، أفرز العظام والحرق والاممال التي جمعتها ،
أنت لودميلا ووقفت أمامي وهي تلوح بيدها اليمنى .
هزت رأسها مرات ثلاث ، ثم قالت :
— مرحباً ، هل ذهب معك كوستروما ؟
— أجل .

— وشوركا ؟
— لم يعد يلعب شوركا معنا مطلقاً . وانت السبب في ذلك . لقد وقعا أسير
هواك . وهذا ما يدفعها الى القتال .
فاحمر وجهها ، بيد انها أجابت مازحة :
— لا تقل ذلك ! لماذا انا المسؤولة ؟
— لماذا اوقعتهما في غرامك ؟
فأجابت محتدة .
— لم اطلب اليها ان يقعا في غرامي ؟

واضافت وهي تمضي :

— هذه سخرية ! فأنا اكبر منها سنًا . إني فتاة في الرابعة عشرة من عمري .
والفتيات لا يقعون في غرام فتيات يكبرنهم سنًا .

فصرخت ، وأنا أتمد إغاظتها :

— حقًا ! هلا تأملت صاحبة المتجر ، أخت كليست ، فهي كبيرة في السن ،

ومع ذلك فالفتيان يلاحقونها !

فحرق عكاظها بجميعًا في الرمال وهي تلتفت إليّ بغضب .

قالت بسرعة ، والدموع تترقرق في مقلتيها ، وقد غصت الكلمات في

فمها :

— أنت لا تدرك الأشياء ، فصاحبة المخزن امرأة ساقطة ، هل تظنني

كذلك ؟ إنني ما زلت صغيرة . ولا ينبغي أن يمسني أحد أو يقرصني ... لو

انك طالعت الجزء الثاني من «الكامشادلكاه» لما تلفظت بهذه الأشياء !

وانطلقت باكية ، فشعرت بالأسف من أجلها . إن عباراتها تحوي في الواقع

أشياء من حقيقة لم أكن أدركها بعد . لماذا يقرصها رفيقاي ؟ وهما يدعيان

حبها !

وفي اليوم التالي أردت أن أكفر عن ذنبي ، فاشتريت بسبعة كوبيكات

«سكر النبات» وكنت أعلم أنه الصنف المفضل من الحلويات عند لودميلا ،

فسألتها :

— أتودين شيئًا من هذا ؟

فقلت ، وهي تتصنع الغضب :

— اليك عني ! لا أريد مصادقتك !

بيد أنها ما عمت أن تناولتها قائلة :

— كان يجب أن تضعها بورقة على الأقل ، فأمل قدارة يديك .
— لقد غسلتها ، بيد أن لونها لم يتغير .

فأخذت يدي في يدها الحارة الجافة ، وتأملتها :
— لقد شوّمت يديك .
— وكذلك أصابعك مخرّمة .
— هذا من فعل الإبرة . فأنا أخيط كثيراً .

وبعد لحظات ، تلفتت حولها قائلة :
— لنختبئ في مكان ما لنقرأ « الكامشادلكاه » ما رأيك ؟
امضينا وقتاً طويلاً حتى وجدنا المكان الملائم . وقررنا في النهاية ان نأتي إلى
ممر غرفة الغسيل ، وبالرغم من انه معتم فإنه باستطاعتنا ان نقبع إلى النافذة
المطلّة على فسحة قد فرشت بالقش ، وميزة هذا المكان ان الناس لا يأتونه إلا
نادرأ .

وهكذا قبعنا لودميلا إلى النافذة ، ومدت ساقها المريضة بينما استندت
الساق السليمة إلى الارض ، وقد امسكت بيديها كتاباً بالبرواخذت تسكبه منه
على مسامعي جداولاً من العبارات الكثيرة المبهمة . كنت اشعر برغبة ملحة
بأن اصيغ هذه الكلمات بعبارات شعرية واحاول ان اضعها في عدة قوالب الشيء
الذي حال بيني وبين متابعة وقائع الكتاب ،

استوضحت الفتاة :

— هل انت صاغر ؟

فهزرت برأسي ، وازداد اضطرابي لتلك الكلمات ... وما ان انتشر الظلام
حتى ارخت لودميلا يديها الشاحبتين الممسكتين بالكتاب .
سألتنني :

— أليس بديعاً ؟ لقد قلت لك أنه سيكون بديعاً .

وأصبحنا نتردد بكثرة إلى ذلك المكان حيث تجلس لودميلا وتشعر بقراءة كتاب « الكامشادلكا » ... كنا نشعر بغبطة عظيمة في الايام الماطرة . فليس من شخص يغادر داره والمطر ينهمر بغزارة .. وهكذا لا تصدف أن يمر انسان بنافذتنا القائمة . وكانت لودميلا تضطرب خوفاً من أن يكتشف امرىء مكاننا ويجدها منفردين .

سألتنى بصوت هامس :

- هل تدرك ما يعتقدون آنذاك ؟

كنت أدرك ذلك ، لذلك كنت أحرص ان لا يكتشف امرئنا ...

لكن سرعان ما تركنا هذا المكان ، اذ أن والدة لودميلا قد وجدت عملاً عند تاجر فراء، ومضت اختها الى المدرسة في حين أن أخاها أخذ يعمل في مصنع للقرميد ، فأصبحنا بغير حاجة الى ذلك المكان .. فعندما يسوء الطقس كنت امضي الى منزل الفتاة حيث اساعدها في تنظيف الغرفة والمطبخ .

ضحكت وهي تقول :

- اننا نعيش كزوج وزوجة . بيد اننا لا ننام معاً . بل نحيا حياة افضل ، فالأزواج لا يعاونون زوجاتهم .

وفي بعض الأحيان كانت جدتي تأتي وتجلس معنا ، تطرزاو تروي لنا حكاية مدهشة . وعندما يمضي جدي الى المدينة كانت لودميلا تأتي لزيارتنا ، فكنا بهذه المناسبة نحتفل غير مباين بشيء .

كانت جدتي تشجعنا في الصداقة .

- ما اجمل الصداقة عندما تتوطد بين فتى وفتاة ! لكن يجب الا يرتكبا حماقة !

ثم اوضحت لنا معنى ارتكاب « الحماقة » بأسلوب بسيط فكانت كلماتها كلها فتنه ... فرأيت انه من الواجب ان لا تمس الورود حتى تزهو كليا ، والا

فانها لن تعبق بأريجها الشذي ، ولن تعقد اثمارها أبداً ...
كنا لمجلس قرب بوابتنا ، انا وكوستروما ولودميلا ، اما شوركا فقد دعا
شقيق لودميلا الى المشاجرة . وها هما يشيران حولهما القبار ووقعا في مشادة
عنيفة .

صرخت لودميلا في ذعر :

– يكفي !

كان كاستروما يروي لنا قصة الصياد كالينين ، بينما ثبت في لودميلا نظرة
جانبيه ، وقد مات الصياد حديثاً . وادعى كوستروما انهم لم يواروا نعشه اللثري
بل تركوه على وجه الارض .. كان النعش يستند الى اطار من الحديد ، وقد زين
بغطاء رسم عليه صليب ابيض ، ورمح ، ، وهرأوة ، وعظمتين .
ويدعي ان الصياد الهرم ينهض كل ليلة من نعشه ، ويشرع في التجوال في
المقبرة مفتشاً عن شيء ما حتى اطلالة الفجر الاولى .

فقالت لودميلا راجية :

– لا تتكلم عن هذه الاشياء المرعبة .

وصرخ شوركا وهو يخلص نفسه من قبضة اخيها :

– اتركني !

واستدار نحو كوستروما ، وقال بلهجة مازحة :

– لم الكذب ! لقد شاهدتهم يحفرون للنعش ، ويتركون كوة في القبر حتى
يثبتوا فيها الشاهد ! اما الادعاء الذي يقول بان شبحه يتجول فهي من تأليف
الحداد السكران !

فاقترح كوستروما من غير ان يتطلع اليه :

– اذا كنت متأكداً من ذلك فاذهب وامض الليل في المقبرة !

وشرعا يتجادلان حول هذه القضية ، فالتفتت لودميلا إلى أمها وسألتها وهي تهز رأسها بكآبة :

— هل يتجول الاشباح في الليل ، يا أماء ؟
فوافقت الأم على ذلك ، كأنها استدعيت من مكان بعيد :
— أجل انهم يقومون بذلك .
واندفع نحو الجميع فاليوخ السمين ، ابن صاحبة الحزن ، الذي يبلغ من العمر
عشرين عاماً ، وأرهف السمع الى المجادلة ، ثم قال :

— سأهب عشرين كوبيكا وعشر سجائر للشخص الذي ينام قرب النعش
حتى الصباح ، أما اذا فزع فسأشد له أذنيه يا محلولي . حسناً ما
رأيكم ؟

فخيم صمت عميق ، أزاله صوت والدة لودميلا :
— يا للهزار ! لا يمكن أن تطلب ذلك من الصغار
فدمدم شوركا :

— اعطني روبلا فأقوم بذلك !
فاستفسر كوستروما بلهجة حاقدة :
— هل تخاف أن تقوم بذلك مقابل عشرين كوبيكا ؟ أعرض عليه روبلا يا
فاليوخ . انني متأكد من انه لن يذهب ، انه يتفاخر فقط .

— حسناً ، سأدفع روبلا .
ووقف شوركا ، واتجه نحو السور . فاطلق كوستروما صغيراً حاداً ، بينما
زعقت لودميلا مغتظة :

— يا إلهي ؛ لماذا يتفاخر كذلك ؟
قلت لفاليوخ :

— اعطني روبلا فامضي انا .
فنقد ام لودميلا روبلا ، وهو يطلق ضحكة بصوت عالٍ قاصداً اخافني .
قالت والدته لودميلا وهي تمضي غاضبة :
— كلا لا اريده ، ولن آخذه .

وكذلك رفضت لودميلا تناول الروبل ، مما ضاعف من سخرية فاليوخ .
وكدت انطلق من غير أن اطلب المال ، في اللحظة التي وصلت فيها جدتي .
وبعد أن سمعت القصة اخذت الروبل وهي تقول بهدوء :
— ارثد معطفك وخذ غطاءك ، فالبرد قارس قبيل الصباح .
كان لكلامتها هذه وقع في نفسي فقد ملأني شجاعة وارسخ في نفسي انه
لن يقع شيء مريب .

كان شرط فاليوخ أن ابيع بجانب النعش حتى الصباح ولا افارقه مهما
حدث والا فانني اخسر الرهان .
حذرنى فاليوخ :
— احذر ، سأراقبك طوال الليل !

وعندما مضيت الى المقبرة ، رسمت جدتي اشارة الصليب فوق رأسي وهي
تنصحيني :

— إذا ظهر لك شيء ، فلا تتحرك أو تخف بل صل للعداء .
وانطلقت جاداً وأنا اتحرى شوقاً لانهاء هذه المهمة . ورافقني فاليوخ
وكوستروما ، وصبية آخرون . وعندما شرعت في تسليق الحائط القرميدي
تعثرت يدي بالغطاء فوقعت ، ثم قفزت توأ كأن الرمل قذفني . فتنهامت الي
موجات الضحك من الجانب الثاني للحائط . واخذ شيء في صدري يخفق ،
وسرت قشعريرة باردة في اوصالي وانتقلت الى ظهري .
كان النعش غارقاً من احد جانبيه في الرمل ، فتعثرت به ، بينما كان انا

الجانب الآخر مرتفعاً كأن احدهم اراد ان ينهضه من مكانه ولم يستطع . فجلست على طرف النعش وتأملت في المقبرة حولي : ان المقبرة قد ملأت بالصلبان الرمادية التي تشبه أذرعة عظيمة ترفع نحو السماء ..

وقرر والد ياز جرس الحراسة بفتور وخمول . فكان الحبل عندما يشد عليه ، يعلق بقطعة من الحديد تبعث انيناً مؤلماً يتبعه رنين قصير جاف لجرس صغير .

كان الجو داكناً يبعث في شعوراً لست ادري كنهه فكنت احس بضيق شديد ، واخذ العرق يتصبب مني بالرغم من برودة الطقس ورطوبة الليل . وفكرت هل انني استطيع أن أصل إلى كوخ الحارس إذا حاول كالينين الهرم الخروج من نعشه ؟

كنت اعرف المقبرة جيداً ، فطالما لعبت انا وياز وبقية الاصدقاء بين اضرحتها . وهناك بالقرب من الكنيسة حيث ترقد امي في مثواها . وتناهت إلى مسامعي تنف من الضحك في الحي وبعضاً من الغناء في اماكن نائية فالناس لم تتم بعد .

ان الاصغاء إلى هذه التنهدات الاخيرة للحياة كان يشدد من عزمي . بيد أن الهدوء كان يشتد كلما قرع الجرس ، فيخيم جو من الصمت رهيب ، يطمس كل شيء ويزيله . كانت نفسي تهيم في فضاء غير محدود في عدم تحقيق حيث تذوب في محيط خاو حيث لا شيء غير النجوم .

دثرت نفسي بغطائي جيداً ، وجلست وقد ثنيت ساقي تحت جسدي تجاه الكنيسة . كان النعش يصر والرمل يهوي اثر كل حركة تصدر عني . وتناهي الى اسماعي صوت شيء يصدم الارض مرة ومرتين من خلفي وبعد ذلك سقطت قرميدة جانب النعش . فتملكني الرعب لكن سرعان ما فهمت أن فاليوخ ورفاقه يلقون بهذه الاشياء من خلف السور في محاولة لاختافي ، مما طمأن نفسي

اذ انني أدرك أن مخلوقات بشرية ما زالت بالقرب مني ، فهدأت غاوفي .
فتكورت على نفسي . وجررت الغطاء فوق رأسي وأسلمت للنوم .

أيقظتني جدتي من النوم . فكانت تقف إلى جانبي وهي تنهري مع الغطاء
قائلة :

- انفض ، هل تشعر بالبرد ؟ حسناً هل كان ذلك مرعباً ؟
- نعم ، لقد كان رهيباً ، لكن اياك أن تعلمي احداً .
- وفي المساء امسيت (بطل) شارعنا . كان الجميع يسألوني :
- هل كان ذلك مخيفاً ؟

واذا اجبتهم : (اجل ! كان مخيفاً) كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون :
(ارأيت ؟) .

وصرحت صاحبة الخزن بلهجة واثقة :

- إذن الإدعاء بأن كالنين ينهض من قبره كاذب . فهو لو خرج لكان
القي بالقي من خلف السور والله وحده يعلم أين كان سيذهب به .

وتأملتني لودميلاً باعجاب لطيف . حتى ان جدي نفسه قد سر أيما سرور .
اما شوركا فكان مقتناً قال :
- ان ذلك هين بالنسبة اليه فجذته ساحرة .



اخذ اخي الصغير يذوي بشكل مريع كنجمة في مطلع الفجر . وكنا ننام
 انا وجدتي وهو ، في (خيمة) على اكوام من الحشت فرشت باسمال بالية .
 وبالقرب منا كان صاحب الدار يشيد (قناً) تأوي اليه الدجاجات .
 ففي كل عشية كانت اصوات الدجاجات الثملة من الاكل تتناهى إلى اسماعنا
 وهي تنفض اجنحتها ، بينما كان صوت الديك يوقظنا في الصباح على نعم تغريده
 الصباحي .

و ذات صباح دمدمت جدتي وهي تفرك عينيها :

— كان ينبغي أن يقطع رأسه .

فنهضت بدوري وجلست اأأمل طلوع الشمس وهي تسترق النظر من
 خلال شقوق الجدار تتراقص في خيوطها حبات الغبار .
 كان الصباح بديعاً صافياً الا انني كنت اشعر بالغم ، واجتاحني رغبة
 ملححة للذهاب الى الحقول حيث انفرد بنفسي . كنت ادرك أن الناس
 سيشوهون منظر ذلك النهار البديع باصواتهم وحركاتهم .

و ذات مرة نادتني جدتي ، وكنت قد استلقيت على السطح ، واخبرتني
 بلهجة هامسة مشيرة الى السرير .

— لقد مات كوليا .

لقد انزلنى الصغير من سريره الى الارض . كان عارياً ازرق اللون . وقد
التف قميصه حول عنقه كاشفاً عن بطنه المنتفخة وساقيه المتجمدتين بينما يده
قد التوت خلف ظهره فكأنه كان يحاول انهاض نفسه ، وقد إنحنى رأسه قليلاً
على كتفه . .

بينما كانت جدتي تسرح شعرها قالت :
— شكر الله على موته . كيف يستطيع ان يعيش هذا المريض الصغير ؟
واقبل جدي واخذ يحوب الغرفة امام الجنة . ثم لمس عيني الصغير باحتراس
وحذر .

زعقت جدتي محتدة :

— لا تلمسه بيدك القدرتين !

فدمدم .

— لقد اقبل على الحياة ولم ننتفع منه بشيء ..

فقاطعته جدتي :

— فكر فيم تقول !

فحدجها بنظرة هازئة ، وانطلق الى الساحة .

قال :

— افعل ما تشائين ، فليس عندي مالاً لدفنه .

— آه ايها الانسان الشرير !

فتركت المنزل ولم أعد إلا في المساء .

وفي صباح اليوم التالي دفن كوليا الصغير .. لم ادخل الى الكنيسة ، بل
قبعت في الخارج حتى انتهت مراسم الجناز ، وقد حفر له بجانب قبر والدتي «
الذي فتح من جديد ليضم جثمان اخي الصغير ..
عندما تأملت تلك الحفرة السوداء ، التي تتصاعد من جوفها رائحة كريهة «

وقع بصري على بعض الألواح الخشبية السوداء فحاولت أن انهل عليها بعض
الرمال ليغطي تلك الألواح .
قال والد ياز ، وهو يدخن غليونته :
— دعك من هذه الآلأعيب ، يا فتى .

أتت جدتي حاملة النعش الصغير الأبيض . فقفز والد ياز الى الحفرة واخذ
النعش من يديها ، وواراه الى جانب الألواح الخشبية ثم خرج خارج الحفرة
واخذ يهيل الرمال برفشه وقدمه .. ليس هناك من كان ولا احد سوى ثلاثتنا
في ذلك الحشد من الصليبان .
وتعالى صوت جدتي مؤنبة وهي تتقد الحارس النعود :
— لقد ازعجت مأوى فافارتي ، اليس كذلك ؟

— ليس هناك وسيلة أخرى ، فقد اخذت قليلا من أرض الجيران ، لا ضرورة
في ذلك اننا لم نؤذ احدًا .
وانثلت جدتي حتى لامست ارض الضريح . وشهقت وبكت ثم ابتعدت .
وخب جدتي في اثرها ، يللم معطفه البالي . وقد وارى عينيه تحت قبعته .
زعى على حين غرة مسرعاً امامنا كأنه طير يشب على الارض :
— لقد بذرنا حبوبنا في ارض قاحلة .

فاستوضعت جدتي :

— ماذا قال ؟

فأجابت :

— ان الله وحده يعلم . فله طريقته الخاصة في التفكير .

كان الطقس حاراً ، وجدتي تمشي ببطء في المقدمة ، وقدماما تقوران في
الرمال ، ومن حين لآخر كانت تتوقف لتمسح وجهها بمنديلها .
سألتها وانا اجتهد في الكلام :



جوركي ولين

— ذلك السواد في الضريح ، هل كان نعش والدي ؟
فقلت بلهجة كثيبة :

— أجل ، يا له من حفار احق ! لم ينقض سنة بعد ، وما هي فاريت قد
تشقت ! وذلك بسبب الرمل فهو يسمح بتسرت المياه . ان الطين افضل .
— هل يتشقق الجميع ؟

— أجل

— انت لن تشققي مطلقاً !

فتوقفت وواست القبعة على رأسي ، وقالت بصرامة :

— لا تفكر بهذا مطلقاً . لا يجب أن تفكر بذلك الآن ، هل تسمع ؟

بيد انني قلت في نفسي :

— ما أبشع الموت .. انني اكرهه !

كنت اشعر بضيق شديد .

وعندما وصلنا المنزل جهز جدي المائدة وأعد الشاي .

قال :

— سنسكب قليلا من الشاي ، فالطقس حار جداً . سأعد اللبلة الشاي لنا

جميعاً من عندي .

وتوجه نحو جدتي وربت على كتفها .

— حسناً ! ماذا تقولين يا أماء ؟

فأومأت جدتي بيدها قائلة :

— ماذا تستطيع ان اقول ؟

— هل ترين يا أماء ، ان الله يصب علينا جام غضبه ، فهو يأخذ قطعة قطعة .

آه لو ان العائلات يعيشون متحدتين سوية ، كأصابع يدك ..

لقد مضى زمن طويل من غير ان اسمعه يتكلم بهذه الرقة . فأصغيت له متأملاً

أن يخفف من آلامي ويساعدني على نسيان تلك الحفرة ذات الالواح السوداء .

لكن جدتي قاطعته برزانة محتدة :

— كف عن هذا ، يا أبتاه ! لقد عشت طوال حياتك تردد هذه الكلمات .
بيد انك هل حاولت ان تساعد احداً في يوم من الايام ؟ لقد امضيت حياتك
وانت تستثمر الناس ، كما يفعل الصدا في الحديد .
فرمها بنظرة حادة وهو يدمدم ، ثم لاذ بالصمت .
وفي المساء اخبرت لودميلا بما حدث ، فوجدت ان ما حدثتها به لم يجد له
صدى عندها .

— ان المرء يفضل ان يحيا يتيماً .. اذا توفي ابي وامي ، فسوف اترك اخي في
رعاية اخي ، واصبح راهبة . فلا استطيع فعل غير ذلك ! فسوف لن اتزوج
لأنني عرجاء ولا استطيع العمل . واذا ما تزوجت فانني سأنجب أطفالاً
يعرجون .
كانت تتحدث بلهجة هادئة بيد انني فقدت كل اهتمام بها بعد تلك الجلسة ،
والحقيقة ان احداث حياتي لم تعد تسمح لي برؤيتها إلا نادراً .

ناداني جدي بعد مضي عدة ايام من وفاة اخي ، قائلاً :
— نم الليلة باكراً ، سننهض في الغدوة عند طلوع الشمس ، ونذهب إلى
الغابة لجمع الحطب .
وزادت جدتي :

— وسأجمع انا الأعشاب .
... كانت الغابة تستقبلنا بصفوف من اشجارها الداكنة ، واشجار الشوح
تناجي الطيور ، بينما المنحنت اشجار البتل كصبايا عذارى . وبعيد المروج تأتي
رائحة المستنقعات في امواج متلاحقة .
دخلنا الغابة في طريق ندية تلسرق بسين الادغال المنتشرة هنا وهناك

يتخللها بعض المستنقعات . وخطرت في مخيلتي فكرة وخالجت نفسي أن لا شيء اروع من ان يلج الانسان غابة الى الابد ، فهناك ليس من مشاجرات ولا خرة ، ولا مكر أو خبت ، هناك حيث تستطيع أن تتناسى العالم وشراسته جددك وضريح امك في الرمال ، قد تنسى كل شيء يؤلم نفسك .

وعندما بلغنا بقعة جافة قالت جدتي :

— اجلسا ، لقد آن لنا ان نأكل شيئاً .

واخرجت من سبتها بعض الخبز ، والبصل الاخضر والخيار ، وشيئاً من الجبن المجدد ، وتأمل جدي كل ذلك . وهو يترقب بعينه بصورة مختارة :

— يا إلهي ... لم احضر معي شيئاً !

— هناك ما يكفيننا ثلاثتنا .

افترشنا الارض تحت صنوبرة طويلة ، كان النسيم يهب لطيفاً يدغدغ الاعشاب فتتنحي له باحترام ...

وذات مرة بينما كنت في الغابة اجمع الحطب ، فاذا بطلقة صياد تصيب وجهي وتدفن في جني الأيمن سبعة وعشرين حبة من الخردق الصغير . وقد نزع لي جدتي بإبرتها إحدى عشرة حبة ، وبقيت الحبات الباقية تحت جلدي سنوات عدة ، حتى نزع لي شيئاً فشيئاً .

كانت جدتي تفتبط جداً عندما تجدي الحمل الالم بصبر كبير :

— يا لك من فتى طيب ! ان التقلب على الالم معركة عظيمة .

كانت جدتي تبقى مرتدية ثيابها البالية ، حتى في ايام الاعياد .

وذات مرة زعق جدي في وجهها :

— إن مظهرك اسوأ من مظهر المتسولين ، وهذا ما يجلب عليّ

العار .

— لا بأس عليك ، لست ابنتك ، وانني لست فتاة حتى تبحث لي
عن زوج .

وهكذا كانت مشاداتها تزداد يوماً بعد يوم .
كان جدي يصرخ ، معبراً عن ألمه :
— ليست ذنوبي اكثر من ذنوب غيري . بيد انني أشد هم عقوبة .
فتحاول جدتي لإغاطته :
— ان الشيطان لاحده يعلم قيمة الانسان .
وذات يوم عاد جدي من المدينة وقد ابتلت ثيابه بالمطر . كان الوقت
خريفاً .. ومما ان بلغ عتبة الباب حتى نفص عنه المطر ، وقال بلهجة
ظافرة :

— حسناً ، ايها الحامل ، ستمضي غداً إلى العمل !
فسألته جدتي
— اين سيعمل ؟
— عند اختك ماخروينا ، يعمل لحساب ابنها .
— انك لم تحسن الانتقاء ، يا ابتاه !
— صحتا ، ايتها العجوز البلهاء ! قد يجعلون منه رساما .

وحنت جدتي رأسها ولاذت بالصمت .
وفي المساء أخبرت لودميلا بانني سأذهب الى المدينة لأعيش هناك .
وبعد تأمل قصير قالت :
— سامضي إلى هناك في وقت ما عما قريب . فاني يريدكم ان يقطعوا لي
ساقبي . فانهم يدعون ان صحيق ستصبح حسنة إذا ما فعلوا ذلك .
لقد اصبحت ضامرة العود ، وعلت وجهها صبغة تميل الى الزرقة ، حتى ان
عينها اتسعتا اتساعاً كبيراً .

سالتها :

- هل انت خائفة ؟

فاجابت :

- اجل .

وشرعت تبكي بكاء صامتاً .

كنت غير قادر على تعزيتها .. فاني كذلك خائف من حياة المدينة . فبقينا
زمناً طويلاً متلاصقين جنباً الى جنب والصمت يشرع وشاحه فوقنا ..



ومن جديد عدت الى حياة المدينة ، لأسكن في بيت جديد ابيض اللون مؤلف من طابقين يشبه النعش ، وقد بني بشكل يتسع لعدد كبير من الناس . كان البيت يقوم بصورة جانبية في الشارع ، تطل نوافذ الطابق الارضي على زاوية الشارع ، بينما تطل نوافذ الطابق العلوي على جهة يفرض ان تكون واجهة له . وتشرف من فوق السور ، على تلة قدرة ، ومسكن صغير تقطنه الغسالة .

لم يكن هناك شارع بالمعنى المعروف لهذه الكلمة بل كان يقوم أمام البيت خندق يشطر التلة القدرة حيث يقوم إلى جانبه بيتنا وفي الاقصى إلى يساره حيث اختار السكان تلك البقعة لرمي النفايات ...

كنت اعرف صاحب عملي جيداً ، فقد زارنا ذات مرة واخوه ، وهذا الاخير هو الذي كان يردد بصورة مسلية :

— اندريه بابا ، اندريه بابا .

وقد لاحظت انهما لم يتغيرا ابداً . أما والدتها فهي اخت جدتي ، بيد

انها كانت عضوباً عصبية . كان الكبير متزوجاً من امرأة سوداء العينية ،
بيضاء البشرة .

ومنذ اليوم الأول لوصولي قالت لي مرتين :
- لقد وهبت املك ذات يوم معطفاً حريرياً قسداً وشعاً بجبات من المرجان
الأسود .

ولسبب خفي لم اصدق انها قدمت اية هدية لوالدتي . فقلت لها عندما
ذكرتني بذلك مرة اخرى :
- ان كنت قد قدمته لها حقاً ، فلماذا تنسحين ؟
فانتفضت مذعورة ، وقالت وهي تتراجع الى الخلف :
- ما .. ذ .. ذ .. ذ .. مع من تحسب نفسك تتكلم ؟
وتورد وجهها وجحظت عيناها ، وندمت زوجها .

دخل المطبخ حاملاً فرجاراً في يده ، وقد وضع قلماً خلف اذنه ، قال لي ،
بعد ان سمع من امراته ما جرى :
- يجب عليك الا تكون قليل الحياء ، وقصاً .
ثم التفت الى زوجته ، وزعق بها بلهجة نافذة الصبر :
- لا تعجبيني مرة اخرى بمثل هذا الهراء واللغو !
- ماذا تقصد بمثل هذا اللغو والهراء ! عندما اقرباؤك ...

فصرخ :
- اخذ الشيطان اقربائي .
وانطلق خارجاً ...
لقد كرهت ان يكون مثل هؤلاء من اقرباء جدتي ، وقد افهمتي جدتي
ان الاقرباء ياملون بعضهم بعضاً اسوأ من معاملتهم للغريب ...

كانت معلمتي الكبيرة ، اخت جدتي ، تنهض في الساعة السادسة صباحاً .
ثم تجثو بعد ان تغتسل بسرعة وتأخذ في شكواها إلى الله ، أمور حياتها وكنيتها
وولديها .

كانت تلمس جبهتها برؤوس اصابعها وتشكو بلهجة كثيبة :
- يا إلهي ! لا أسالك شيئاً سوى الراحة وقليل من السلام .

وفي بعض الأحيان كان صوتها يوقظني من النوم ، فأتد اراقبها
من تحت الغطاء ، وأنا ارفع السمع الى صلاتها .. كانت تضرب بشدة على
كتفها وجبهتها ويطنها بحركة عشوائية من يدها اليسرى ، وتأخذ برسم
إشارة الصليب :

- إن كنت راض يا إلهي ، فعاقب كنتي ، واجعلها تعتذر عن إهاناتها
لي ، وأجل بصري ولدي بحيث يستطيع رؤية حقيقتها . وساعد فيكتور
وهبه رحمتك .
ثم اخذت تهتز إلى الامام والوراء في لحظات هادئة ، ثم قالت من جديد
بصوت حاقد :

- وليتصيب الجليد في لب عظامهم ، ولتجف السماء في عروقهم !
وجدت ان جدي لم يرفع مثل هذه الصلاة البغيضة .
وما ان تنتهي من صلاتها حتى توقظني من نومي :
- إنهم كفالك خمولا ، فنحن لم نستأجر لك الله . قم وهات الخطب ! لقد
اهملت كذلك إحضار الاخشاب الصغيرة منذ المساء !

كنت اعمل بطيبة خاطر ، واجد لذة بتكنيس أقدار البيت وغسل الارض ،
وتنظيف الاواني ومقايض الابواب . وفيما كنت اعمل كانت تدف إلى اسماعي
اكث من مرة ، حين يهيم السلام ، صوت المرأتين تتكلمان :

- إنه يشتغل بمجدة .
- انه نظيف .
- لكنه وقع .
- لا تنسي من رباه .

وجربت كل منهما أقصى جهدها كي تفرض عليّ احترامها . بيد أنني كنت اعتبرهما شبه مجنونتين ؛ فلا اطيعهما ، حتى أنني كنت أقسو في الإجابة عليها ..
..كانتا تشكوانني إلى صاحب عملي دائماً ، فيقول معتداً :
- يحذر بك أن تقلبه إلى أعمالك وأقوالك ، أيها الفق !

و ذات يوم استدار نحو أمه وزوجته وقال :
- ما الطفكما ، فانتما تغتلبان هذا الفتى . مثل الحصان ، فلو كان أحد غيره لكان لاذ يالهرب من زمن بعيد . او حتى قد مات من القسوة !
بيد ان هذا الكلام جعل المرأتين تسخطان وتفساب الدموع من مقلتيهما .
ضربت زوجته الارض بقدمها وزعقت غاضبة :

- كيف تستطيع أن تقول هذا الكلام بوجوده ، ايها الاحق ! كيف
سيطيعني بعد ان سمع هذا الكلام ؟ يجب ان تتذكر انني حامل !
وانتجبت امه في حرقة :

- غفر الله لك يا فاسيلي ، يجب أن تتذكر ما اقله : سوف تفسده .
ثم انطلقنا في غضب .

فاستدار نحوي ، وقال بلمهجة قاسية :
- هل رأيت هذا المشهد ؟ لقد سببته انت ، ايها الشيطان الصغير ! سوف
ابعث بك من جديد الى جدارك . هذا ما انويه ، وتقدر عند ذلك العودة الى جمع
الاسماك .

فاجبته وانا غير قادر على تحمل هذه الالهانة .

— انني افضل جمع الاسمال على العيش معك . لقد أتيت لأتمرن على العمل ،
بيد ماذا علمتني ؟ لقد علمتني حمل القاذورات وفضلات الطعام ! .

فامسكني معلمي بلطف من شعري ، وحدجني بنظرة وهو يقول :
— انت وحش صغير على اي حال . هذا لن يقع ابداً .. !
كنت متأكداً من انه سيرجعني الى جدي ، بيد انه بعد يومين دخل المطبخ
يحمل قلماً ومسطرة وكراساً من الورق .
قال :

— انقل هذا بعد أن تلتهي من عملك .
كانت الصورة كناية عن بيت مؤلف من طابقين ، مليء بالتوافذ وقد زين
بزخرفة صنعت من الجص .
— وهذا مقياس . خذ قياس الاسطر كلها . ثم ضع علامات على الورقة
وبعد ذلك أوصل فيما بينها . في البداية ارسم الخطوط الافقية وبعد ذلك الخطوط
العمودية . هيا .

وغمرتني نشوة من السعادة فهذا عمل نظيف قد انيط بي . بيد انني تأملت
الادوات والورقة مندهشاً لأنني لم ادرك منها شيئاً .
جلست إلى العمل بعد أن غسلت يدي . فوضعت كل الخطوط الافقية
ووصلت فيما بينها لكنني وجدت ثلاثة اسطر زائدة . وبعد ذلك وضعت الخطوط
العمودية فوجت لذلك إذ وجدت أن البيت قد تغيرت معالمه . فالتوافذ اصبحت
مكان الحائط الوسط بينما ارتفعت احداها في الهواء وراء البيت ، وظهر الاقريز
اعلى من السقف ..

وبقيت مدة طويلة اتأمل هذا الشكل والدموع تترقرق في مقلتي محاولاً
ادراك السبب . واخيراً حاولت تلافي ذلك بما توحى لي تخيلتي ، فرسمت على
طول السطح والاقريز العصافير والحمام . وقريباً من التوافذ على الارض رسمت

اناساً معوجي الساقين .. ثم وضعت خطوطاً متقطعة في وسط الصورة وبعد ذلك حملتها إلى رب عملي .

تأملها بدهشة وهو يرفع حاجبيه ثم صرخ بلهجة كثيبة :
— ماذا تطلق على هذا ؟

فاجبته :

— السماء تمطر ، وعندما تمطر السماء تظهر المنازل بشكل معوج كالطر .
وجميع العصافير في الأيام الماطرة تحتبىء تحت الافاريز وهؤلاء الناس يمدون إلى منازلهم . وتلك فتاة قد تعثرت ، وهذا بائع ليمون .
فأخذت رب عملي موجة من الضحك وهو يترنح على الطاولة ثم قال :
— انني شاكر لك في الواقع .

ثم اردف :

— ينبغي أن اخفيك عن وجه الارض . هذا ما يجب ان افعله . ا

وولجت معلتي الصغيرة وبطنها يسير امامها ثم تأملت رسمي .

خاطبت زوجها قائلة :

— يجب ان تجلده .

فأجابها زوجها بلهجة واثقة :

— آه ، لا في الواقع لم ارسم افضل من هذا عندما بدأت الرسم .

ثم اشار الى الاخطاء بقله الاحمر واعطاني ورقة ثانية .

— حاول ذلك من جديد . يجب أن ترسم ذلك بصورة حسنة حتى تنقلها

جيداً .

اما محاولتي الثانية فقد كانت افضل من الاولى سوى نافذة واحدة قد تربعت على عتبة الدار . تأملت البيت فلم يرقني منظره خاوياً فانصببت عليه يجمع من من الناس . واجلس في النوافذ قتيات يسكنن بمراوحن وفتيات يدخلن

السجائر ؛ وقد تركت واحداً من غير سيجارة بل جعلته يدمس انفه بين سائر الفتيات . ورسمت عند البوابة عربة يرقط بجانبها كلب صغير .

سألني معلمي بلهجة غاضبة :

— لماذا أفسدتها مرة ثانية ؟

فوضّحت له أن الصورة كانت حزينّة من غير اناس ، بيد انه اخذ يزجرني ويؤنبني :

— لعن الله ذلك . اذا أردت أن تتعلم ، فينبغي أن تشتغل بصورة جيدة .

اما هذا فمزاح .

وكم كان سروره عظيماً عندما رسمت اخيراً صورة قريبة الى الاصل .

— هل شاهدت ما تستطيع فعله عندما تجرب يحدية ؟ واذا تابعت كذلك

فستصل بسرعة كبيرة .

ثم اعطاني عملاً جديداً :

— اصنع مخططاً للمنزل توضح فيه مكان الغرف . والنوافذ والابواب . ولن

اوضح لك ذلك . يجب عليك ان تفعل ذلك من تلقاء نفسك .

دخلت المطبخ ، وجلست افكر من اين أبدأ .

بيد أن دروسي في الرسم انتهت عند هذا الحد . فقد أتنني المعلمة الكبيرة

وقالت بفجور :

— تريد أن تصبح رساماً ، اليس كذلك ؟

ثم امسكتني من شعري وضربت رأسي بالطاولة بعنف كبير مما اراق الدم

من فمي وشفتي وانقي . وبعد ذلك مزقت الرسم واتلفت أدواقي ، وانتصبت

واضمة يديها على خصرها وهي تصرخ ظافرة :

— حاول ذلك مرة اخرى ؟ ! سوف ترى ماذا يجري . انه يريد شخصاً

آخر ان يعمل مكان أخيه ، لكي يتخلص منه وهو من لحمه ودمه !

واتى معلمي على اثر ذلك الصباح تخب في اثره زوجته ، وتلا ذلك مشهد
عنيف من المجادلة . فقد القى الثلاثة بانفسهم على بعضهم يدمدمون ويصرخون
وفي النهاية انسحبت المراتان وهما تبكيان وتذر فان الدموع ، بينما قال لي معلمي :
- من الافضل لك ان تترك العمل في الوقت الحاضر . توقف عن الدرس !

كنت لا اجد فيما حولي غير الشر الذي لا يعرف الرحمة ، والانحطاط الدنس
الذي يزداد بصورة اكثر منها في شوارع كونايفينو ، تلك التي لم تكن تنقصها
بيوت الدعارة والساقطات . إن المرء يشعر وراء قذارة كونايفينو بحتمية تلك
القذارة والشرور ، والعبودية والشقاء . اما هنا فالتناس يعيشون في راحة ونعيم .
والاضطراب المشوش يحل محل العمل . ويقبع كل شيء في ظل السامة الخادعة .
كنت اغرق في تعاسة شديدة تزداد عندما تزورني جدي . كانت دائماً تدخل
المطبخ من الباب الخلفي ، وبعد ان ترسم اشارة الصليب كانت قنحني حتى
خصرها إحتراماً لاختها الصغيرة . فكانت تلك الانحناءة تسحقني كصفعة
اليمة .

كانت معلمي الكبرى تقول بلهجة باردة بشيء من الاحتقار :
- آه ، اهذه انت ، يا اقولينا ؟

ولا اعود أتعرف جدي . انها تعض على شفتيها بتواضع بطريقة تغير ملامحها
كلها . وتقتعد بصمت كبير يحانب الباب كأنها قد اقترفت ذنباً مشيناً ، تجيب
على اسئلة اختها بلهجة رقيقة وبصوت هامس .

فلم يرقني ذلك ، فقلت غاضباً :

- لماذا تجلسين هنا ؟

فأجابت بلهجة كلها تأثر وقد غمرتني بحنانها :

- أطبق شفتيك ، فانك لست السيد هنا .

فأجابت معلمي الكبيرة ، وقد بدأت شكواها :

– انه يتدخل دائماً فيما لا يعنيه ، غير مهتم لذلك مهما جلد او زجر .
كانت تستوضح اختها في بعض الاحيان . بلهجة ماكرة .
– اذن قد اصبحت متسولة ، اليس كذلك ، يا اقولينا ؟
– ليس هذا بالامر المشين .
– ليس من شيء مشين ، اللهم ما لم يكن مخجلاً .
– يقال ان السيد المسيح كان يتسول .
– البلاهاء والهراطقة وحدهم يدعون هذه الاقوال ، وانت تعطيمهم اذنك .
ايتها العجوز العبيطة ، لم يكن المسيح متسولاً . فهو ابن الله وسوف يعود كما هو
مدون ليحياكم الاحياء والاموات ولا مجال للتواري منه . حتى ولو حرقت
نفسك وتحولتي إلى رماد . وسوف يعاقبك انت وفاسيلي على تكبركما وعجفرتكما ،
لانكما طردتماي يوم اقيت اطلب معونتكما ، يا قريبي الغنيين .
فاجابت جدتي من غير انزعاج :

– لقد فعلت دائماً ما اقدر عليه من اجلك . بيد أن الله وجد أنه من
الافضل أن ينزل بنا العقاب ..
– هذا لا يكفيكما ، لا يكفي .. !
واردفت اختها في كلامها اللاذع من غير توقف ، فكنت اتساءل وانا ازهف
السمع الى عواء معلتي الكبيرة كيف تتحمل جدتي ذلك ، فاني في مثل
هذه الحالات كنت اجد نفسي لا احب فيها هذه الصورة .

وولجت المعلمة الصغيرة وهزت رأسها بلطف :
– تفضلوا الى غرفة الطعام . هذا افضل هيا تعالوا !
فصرخت العجوز ، وجدتي تحاول الدخول :
– إمسحي قدميك ، أيتها الكسيحة المتداعية !
وقدم لها معلمي التحية ببشاشة :

- آه ، اكولينا الحكيمة ! كيف حالك ! اما زال العجوز كاشرين حيا
يرزق !

فقلت له جدتي وهي ترميه بإبتسامة ودية :
- اما زلت تجتهد في عملك ؟ انك تعمل دائما !
- اعمل دائما ، كالحكوم بالاشغال الشاقة .

كانت جدتي تحدثه بجرارة بالغة لكن بلهجة من هو اكبر سناً . وفي بعض
الاحيان كان يأتي على ذكر والدتي :
- آه ، فارفارا ، يا لها من امرأة ، امرأة مسترجلة فعلا !
فاردفت زوجته وهي تلتفت نحو جدتي :
- هل تتذكرين ذلك المعطف الذي اعطيتها اياه ؟
- نعم . بالطبع .
- لقد كان جيداً ، كأنه جديد .

قدمدم معلمي :
- هه ، معطف سيء ، فالحياة دعاية .
فاستوضحت زوجته مراتبة :

- ما هذا ؟
- آه ، لا شيء ، لا شيء على الاطلاق . ان الايام الجميلة تمضي وكذلك الناس
الطيبون ..

فقلت زوجته بلهجة قلقة :
- لماذا تتقوه بمثل هذه الاشياء ؟
وفي النهاية انطلقوا مع جدتي لترى الطفل الجديد ، بينما بقيت انا لأنظف
الاولائي .
قال معلمي بلهجة رقيقة وكأنه يحلم :

- جدتك تلك عجوز رائعة .
كانت كلماتك تلك تبعث في نفسي شعوراً بالغبطة .. وعندما انفردت
بجدتي قلت لها والام يعتصر قلبي !
- لماذا تأتين إلى هنا ؟ افلا تعرفين داخلتيهم ؟
- آه يا اليوشا ، فانا أعرف كل شيء .

اجابتنى بهذا وهي تتألمني وابتسامة رقيقة تراود شفيتها ، وسرعان ما
احسست بالخجل ! من المؤكد انها عرفت كل شيء ورأته ، حتى انها كانت
تعلم ما يدور في سريري تلك اللحظة .
وبعد ان تلفتت حولها بحذر شديد لترى ان كان ثمة شخص قريب منا ،
فعانقتني بتأثر بالغ :

- بالطبع ما كنت لآتي الى هنا لولاك ، فما حاجتي بهم ؟ جدك مريض وانا
اعتني به ولا اشتغل شيئاً . لذلك لست املك نقوداً .. وقد طرد ولدي
ميخائيل ولده ساشا ، وهكذا وجدت نفسي مضطرة الى تقديم الطعام والشراب
له . وقد وعدوا بأن يدفعوا لك ستة روبلات في السنة ، فقلت في نفسي لعلهم
يدفعون لي روبلا واحداً الآن . ها قد مضى قرابة ستة اشهر وأنت تعمل
عندهم . اليس كذلك ؟

ودنت مني اكثر من ذي قبل واخذت تهمس في اذني :
- لقد طلبوا مني ان اوبخك على اعمالك . فانت لا تطيع أحداً .. جرب
ان تتحمل ذلك سنة او سنتين حتى تقوى عزيمتك ..
فاعطيتها وعداً بذلك . بيد ان الامر كان قاسياً علي ، فقد جثم علي البؤس
بنائه ، وغرقت في ذلك الوجود الملل ، واصبحت ادور منذ الصباح حتى
المساء طلباً للقوت . فقد كنت أعيش في شبه عالم شرير .
وفي بعض الاحيان كنت انري الفجار ، بيد أن الشتاء الشرير يقعدني برياحه



جورگي وستالين

حياتي م - ۱۸۵

- ۲۷۳ -

العاصفة الثلجية ، فالرياح في الطابق العلوي تعوي قرب النافذة واخشاب السقف تنحني تحت عيباء الجليد . فكيف أستطيع الهرب ؟

لم يكن يسمح لي بالخروج من الدار للهو . وفي الواقع لم يكن عندي الوقت الذي يسمح لي بأن ألعب ، ومضت ايام الشتاء المضجرة في دوامة من الأعمال المرهقة .

وخلال الصوم الكبير أرغمت على تناول القربان ، فقصدت إلى جاراتنا ، الأب دوريميدونت بوكروفسكي ، كي اعترف له بخطايي . وكنت اعتقده إنساناً قاسياً . وانا ما زلت اذكر الخطايا الكثيرة التي اتيتها بحقه . لقد افسدت كشكه في الحديقة برميهِ بالحجارة ، وتشاجرت مع أولاده واقترفت عدة جرائم لا بد وان تثير نقمته ضدي . كل هذا كان يحول في خاطري وانا اقف في الركن القذر من الكنيسة انتظر دوري في الاعتراف . وقلبي يخفق بشدة .

لكن الأب دوريميدونت تلقاني بترحاب لطيف قال :
— آه ، يا جارتنا ! حسناً إركع على ركبتيك وقص علي خطاياك .
والقى على رأسي بقطعة من الحمل الثقيل ، فإذا برائحة البخور والشمع تضيق انفاسي ، وتجعل من الصعب عليّ ان اقول الكلمات التي لم تكن بي رغبة في النطق بها .

— هل تطيع من هو اكبر منك سناً ؟
— كلا .

— قل : « انا مخطيء » .

فانفجرت وقد غلكتني الدهشة :

— لقد سرقت قربان الذبيحة من الكنيسة .

فاستوضح الكاهن في تودة ، بعد أن فكر ملياً :

— ماذا تقول ؟ أين ؟

- في كنيسة الاقمار الثلاثة ، وفي كاتدرائية بوكروف ، ونيقولا .
- مهلا ، هل تقصد انك سرقت من جميع الكنائس؟ هذا عمل غير مستحب
يا ولدي ، خطيئة ، اتفهم ؟

- أجل .

- قل : « انا مخطيء » . ايها الفتى الاحق ، هل سرقت القربان لتأكله ؟
- في بعض الاحيان كنت آكله واحيانا اخرى ، كنت عندما أخسر
نقودي في اللعب أضطر ان احضر خبز القربان الى البيت ، ولذلك كنت
امسقه .

فدمدم الأب دوريميدونت ببعض الجمل المقتضبة في صوت هامس . وطرح
علي بعض الاسئلة الاخرى . ثم سألني على حين غرة في صوت حاد :

- هل قرأت كتباً طبعت بصورة خفية ؟

فلم ادرك معنى سؤاله .

استوضحت :

- ماذا ؟

- كتباً ممنوعة ، هل قرأت منها شيئاً .

- كلام أقرأ منها شيئاً .

- حسناً ان خطاياك مغفورة . قف

تأملت وجهه في شيء من الدهشة . كان بحياه لطيف ينم عن تفكير عميق .
فأحسست بالحجل . وكانت معلماتي قد ارسلنا بي الى الاعتراف واخبرتاني
بأشياء عدة رهيبه لتخيفاني وتجعلاني أعترف بكل شيء .

قلت :

- لقد رميت كشك حديقتك الصيفي بالحجارة .

فرفع الكاهن رأسه :

- وهذا كذلك عمل سييء ، هيا إمضى الآن .

- وكلبك ايضاً

فقال الاب دوريميدونت ، وقد حول انظاره عني :
- من دوره الآن ؟

مضيت وانا اشعر بشيء من الخيبة والاذية . فان هذا الانتظار قد ارهق اعصابي وانتهى الى لا شيء . وكان الشيء الوحيد الباعث على الاهتمام هو سؤاله عن تلك الكتب السرية ...

وفي النهاية مع اطلالة الربيع لذت بالفرار .

بينما كنت ابتاع خبز الفطور في صباح ذات يوم . كان الحباز يتشاجر مع زوجته . فرماها بأحد الاوزان الثقيلة على جبهتها ، قعدت الى الشارع حيث تهاوت وسقطت على الارض . وتجمع الناس حولها ، ثم نقاؤها بواسطة عربية إلى المستشفى . فعدوت وراء العربية وبعد ذلك ولسبب لست ادري كنهه ، وجدتني على ضفة الفولغا وفي يدي عشرون كوبيكاً .

كان النهار ضاحكاً ربيعياً ، والفولغا قد ازدادت مياهه ، والارض تمتد شاسعة حتى تعانق الافق بينما انا ، قد امضيت عمري حتى ذلك اليوم كفارة تعيش في جحرها . وتم رأي على ان لا ارجع إلى منزل رب عملي . والا أعود إلى منزل جدتي في شارع كونافينو ، بحيث اني لم أف لها بوعددي ، فأصبحت أخجل أن أراها . وعلاوة على ذلك أن جدي سيعلق على عود بلهجة هازئة .

بقيت طوال ثلاثة ايام اتجول على ضفة النهر ، أتناول طعامي من عند الجمالين الطيبين وفي الليل انام معهم في مخازن للبضاعة . واخيراً قال لي احدهم

— لا فائدة من تجوالك هنا يا فتى ، لماذا لا تشتغل في المركب ؟ انهم بحاجة الى غسال للصحن .

فقصدت المركب لتوي .. تأملني رئيس الخدم ، وهو شاب طويل القامة
ذو لحية يرتدي قبعة حريرية سوداء ، وقد تربعت نظارتان فوق عينيه .
قال بصوت رزين :

- روبلان في الشهر هل معك هوية ؟
لم يكن لدي هوية .. ففكر رئيس الخدم لحظة ثم قال :
- آتني بالدتك .

فقصدت جدتي ، فوافقت على ذلك واقنعت جدي بأن يقصد غرفة التجارة
كي يحصل على هوية لي . حتى ان جدي اصطحبني الى المركب .
قال رئيس الخدم وهو يسترق النظر الينا :
- حسناً ، هيا بنا .

ورافقني الى مؤخرة المركب حيث شاهدت طاهياً ضخماً الجثة ، قد تدور
بمئزر ابيض وقبعة بيضاء قد جلس الى الطاولة يرتشف الشاي وينفث الدخان
من لفافة غليظة . دفعني رئيس الخدم نحوه قائلاً :
- غسال صحون .

وتوارى مسرعاً . بينما ارتفع صوت الطاهي وهو يزعم خلفه :
- انك تأتي بالشيطان نفسه ، على أن يأخذ أجراً شحيحاً !
ولوح ، بغضب شديد ، برأسه الى الورااء وحدجني بعينين داكنتين . ونفخ
خديه وزعم بي :
- من أنت ؟

لم يرق لي ذلك الرجل مطلقاً . كان يبدو قذراً بالرغم من ثيابه البيضاء التي
كان يرتديها . كانت اصابعه مغطاة بالشعر حتى ان شعراً طويلاً كان يتدلى
من أذنيه الكبيرتين قلت :
- إنني جائع .

فطرف بعينه ، وفجأة تبدلت اسارير وجهه الحشن ، واخذ خداه يترجعا
الى اذنيه كاشفين عن أسنان شبيهة بأسنان حصان ...

وافرغ ما بقي في كأسه من فوق حافة المركب ، وسكب كأساً لي قدمها
مع قطعة من الخبز الابيض وقطعة كبيرة من اللحم المقدد :
- كل . هل لك أب أو أم ؟ هل تعرف السرقة ؟ لا تجزع فالجميع هنا
لصوص ، سوف اعلمك عاجلاً .

كانت نبرته تصدر كالنباح . كان انفه المتورد يتدلى فوق شاربيه بينما اندلقت
شفتيه السفلى في ازدياء ، وقد اندست لفافة بين شفتيه ..
وما ان انتهيت من طعامي حتى تقديني روبلاً .

- امضِ وابتع لك مئزرين ومريلتين . انتظر ! سأشتري ذلك بنفسى .
واصلح من وضع قبعتي ونزل عن سطح المركب ، يترنح كالثلج ويدب على
الارض بقدميه كالذب .

* * *

عندما بدأ الليل يخيم بسواده الحالك واطل القمر من خلف الروابي ، كان
مركبنا يسير . فجلست اتأمل المنظر فشاهدت القمر مسرعاً يلوذ بالهرب الى
الروابي الشاسعة بينما تناثرت المياه الفضية خلف مركبنا وتحت المجاذيف .. كانت
المياه تعكس صورة المنظر القائم على الضفتين تاركة انعكاسات تلتصق في خطوط
طويلة .. بينما كانت اغان قروية تأتينا من البعيد ...

كان مركبنا يقطر مركباً آخر اقيم على ظهره قفصاً من الحديد مزج فيه سجناء
حكم عليهم بالنفي والاشغال الشاقة . بينما التمتعت بحربة الحارس في ضوء القمر
كشمعة تومض . وقد تراءت لي النجوم في السماء اللامتناهية كشمعات صغيرة .
كان السكون مخيماً على الجو لا تسمع غير صوت تكسر المياه خاف المركب .

لقد راعني منظر ذلك القارب ، فاذا بي أجلس ساعات طويلة أتأمله وهو
يدس أنفه الضخم في المياه جاراً المركب البخاري خلفه كخنزير قد شد الى
الحبل . كنت اشعر برغبة ملحاحة بالقاء نظرة قصيرة على اولئك الاناس الذين
يقبعون كالحوانات في ذلك القفص الحديدي . وعندما اتزلوهم إلى اليابسة في
بيرم ، اعتليت جسر القارب وقبعت أتأملهم . فاذا بمخلوقات رمادية تمر امامي .
والسلاسل تفرقع في ارجلهم... كانوا رجالاً ونساءً شباباً وشيوخاً كبقية البشر
وقد شوهت اساريهم لان شعورهم قد قصت . والواقع انهم من قطاع
الطرق ، بيد ان جدتي قد حكّت لي اشياء كثيرة جميلة عن قطاع
الطرق !

كان الطاهي سموري يشبه احد قطاع الطرق البائسين اكثر من أي واحد
منهم .

كان يدمدم وهو يتأمل القارب بنظرات شرسة !

— لتحمني السماء من هذا المصير !

وذات يوم قلت له :

— كيف غدوت طاهياً بينما اصبح الآخرون قتلة وقطاعي طرق ؟

فاجابني وهو يشخر :

— انا لست طاهياً . انا رئيس الطهاة ، ان النساء طهاة .

ثم اردف بعد فتره من التفكير :

— ان الفرق بين البشر موجود في رؤوسهم . فهناك اناس اذكياء وآخرون
بلهاء واغبياء . وباستطاعتك ان تصبح ذكياً اذا طالعت كتباً مختارة كالسحر
الاسود وما شاكله . ينبغي أن تطالع جميع الكتب . فهي الاسلوب الافضل في
انتقاء المفيد منها .

وكان لا يفتأ يردد على مسامعي :
- إقرأ كثيراً . وإذا لم تدركه فأقرأه سبع مرات ، حتى اثنتي عشرة مرة
إذا لم تفهمه جيداً .

كان الطاهي سموري يكلم الجميع بلهجة خشنة وقحة ، حتى رئيس الخدم
الهاديء . وعندما يتحدث يرخي شفتيه السفلى في اشمزاز ويعقص شاربيه ،
ويتفوه بالكلام بشكل يثير القرف . ومع ذلك كله فقد كان لطيفاً معي وطيباً
كذلك ، وكانت تلك الطيبة ترهني وتخيفني . وفي بعض الأحيان كنت
أشعر ان الطاهي ليس طبيعياً كأخت جدتي .

كان يقول :

- توقف عن القراءة !

ويتمدد فترة من الزمن وقد أغلق عينيه ، تتصاعد انفاسه من انفه بخشونة
بالغة . بينما تأخذ بطنه السمين بالاهتزاز ، وقد وضع يديه فوق صدره بصورة
متصالبة ...

... وفجأة يدوي صوته مدمماً :

- مثلاً الدماغ : لو اخذته بين يديك ما يمكنك ان تصنعه به : ان الادمغة قد
وزعت بشكل متفاوت . ليت الجميع يمتلكون نفس القدر منه ... هذا الفتى
يدرك والثاني لا يدرك بينما الآخر لا يملك رغبة في الادراك .

ويأخذ يقص عليّ بكلمات متعثرة تنفأ من حيائه وهو جندي . ولم استطع
ان ادرك اية فائدة لا قاصيصه . فهي دائماً عديمة المنفعة خاصة وانه لا يبدأ
بسردها منذ بدايتها بل من حيث تدعوه مخيلته .

- وهكذا نادى آمر الفرقة الجندي وسأله : بماذا أمرك الملازم ؟ فاجابه بكل
شيء ، كما جرى فعلاً ، لان من واجب الجندي ان يقول الحقيقة ، وتأمله الملازم
وهو يقف امامه كجدار من الحجر ، ثم تحول عنه وأغلق عينيه ..

فيزفر الطاهي بأشعزاز ، ويدمدم :
- كأنني كنت ادرك ماذا يجب على المرء ان يقول ، وماذا ينبغي الا يقول
وقادوا الملازم إلى السجن ، أما والدته .. اوه ، يا ربي الرحيم ، انت شخصاً لم
يخبرني بشيء !

كانت الحرارة مرتفعة ، والركب يهتز بلطف ووراء المركب كان رذاذ الماء
يتطاير .. لقد تعودت اذني الهدوء فاجد فيه راحة لا متناهية .. وتمنيت ان أبقى
بعيداً عن الجميع ، عن كل شيء ، عن العمل ، واجلس في مكان وارف الظلال ،
ليس فيه رائحة المطبخ العائقة بالدهينات . وان أأمل في شبه غفوة تلك الحياة
المرهقة التي تطفو على سطح الماء .

أمرني الطاهي بقسوة :
- إقرأ !

كان الخدم في المرتبة الأولى يرهبونه ، كذلك رئيس الخدم الهادى .
كان الطاهي سموري يزعم بالخدم :

- ايها الخنزير ! اقترب مني يا لص ! ايها المتوحشون !

كان الخدم يعاملونه باحترام لكنهم كانوا يتعلقونه ويتزلقون اليه . وكان
يزيد لهم مقدار اللحم ، ويستوضح عن احوال عائلاتهم وحياتهم في القرية . كان
الوقادون الاوكرانيون ، السمينو الجثة ، المقطي الوجوه ، يعتبرون حثالة
المركب . وكان الروسيون يطلقون عليهم لقب البقر . فكانوا يثيرون غضبهم
بقولهم :

- يا بقرة ، يا بقرة ، ماذا في الحفرة ؟

كانت هذه العبارة تثير النقمة في نفس سموري . فينتفض ويتورد وجهه -
ويصرخ بالوقادين :

- لماذا تسمحون لهم بالهزء منكم ، بحق الجحيم ! هشموا لهم أفواههم ، يا لهم من أوغاد !

واتجه نحوه نوتي سمين الجسم ، انيق وقال له :

- الروسي والاوكراني ! لا فرق بينهما .

فهجم عليه الطاهي واخذه من حزامه وياقته ، ورفعته عن الارض وجعل يطوح به في الهواء .

صرخ به :

- هل تريد ان اسحقك سحقاً ؟

وغالباً ما كانت تلك المشادات تنتهي إلى الشجار ، بيد انه لم يكن من أحد يجرؤ على ضرب سموري . لانه كان اولاً ذو قوة خارقة وثانياً لانه كان على علاقة طيبة مع امرأة القبطان ، وهي امرأة طويلة القصد ، بهية الطلعة يتبدل شعرها الاملس على وجهها المترجل .

كان يتناول كميات كبيرة من الفودكا ، لكنه لم يحدث ان ثمل مرة واحدة فهو يبدأ مع طلوع الصباح يجرع زجاجة على اربع دفعات ، ويحتسي الجمعة طوال النهار . ويأخذ وجهه بالتورد شيئاً فشيئاً ، وتوسع جدقة عينيه كالمدهوشين .

وفي بعض الاحيان كان في الامسيات يقتقد ارض المركب ويأخذ في تأمل المنظر النائي البعيد . وفي تلك اللحظات كان الجميع يرهبونهُ أما أنا فكنت أشعر بشفقة نحوه .

كان مساعد الطاهي ياكوف ايفانوفيتش يخرج من المطبخ والعرق يتصبب منه ، يلوح بيده من البعيد وهو يزغق :

- ان السمك قد تلف .

- إعمل منه سلطة .

- واذا اراد احدهم شوربة السمك أو عجة ؟

- هينه له . ميلتهمون أي شيء تقدمه لهم .
وفي بعض الاحيان كنت أجد الجرأة بالدنو منه .
ويلتفت اليّ "جاهداً" ، ويستوضح :
- ماذا تريد ؟

- لا شيء .
- حسناً .

وذات مرة قلت له :

- لماذا يرهبك الجميع بهذا الشكل ؟ مع انك طيب القلب .
وقد كانت دهشتي بالغة عندما وجدت ان سؤالى لم يثر غضبه .
أجابني قائلاً :

- انني طيب القلب في معاملتك وحدك .
ثم اردف في لهجة تأملية رقيقة :

- قد اكون طيب القلب مع الجميع ، بيد انني لا اظهر ذلك . ينبغي الا
تظهر للناس انك طيب القلب . وإلا التهموك . فالناس يتطون الرجل الطيب
ويدوسونه كما يفعلون بقطعة ارض في مستنقع .. امضِ واتني بقليل من
الجمعة .

وبعد ان افرغ الزجاجاة ، كأساً تلو كأس ، مسح شاربيه وقال :

- لو كنت اكبر بقليل لكنت قدعلمتك أشياء عدة ، انني ادرك شيئاً وشيئين
لا باس بها ، فلست بأبله . ينبغي ان تطالع فالكتب ستعلمك بكل ما ينبغي ان
تعلم . هل تود شيئاً من الجمعة .

- انا لا احبها .

- حسناً ، لا تشرب ، فالشراب مصيبة عظيمة . والفودكا شيء من اعمال
الشیطان . لو كنت غنياً لبعثت بك الى المدرسة . فالمرء الجاهل كالحيوان الذي

يضعون النير في عنقه ولا يستطيع إلا الاطاعة .
واعطته إمراة القبطان كتاباً من مؤلفات جوجول . وقرأت له « الانتقام
الشديد » وقد نالت اعجابي ، بيد ان سموري ، صرخ مغتاضاً :
— مخافة وهراء ! قصة لطيفة . انني متأكد ان هناك انواع اخرى من
الكتب .

وانتشل الكتاب مني ، وآثافي بكتاب آخر من إمراة القبطان .
امرني بصوت رقيق :

— خذ . إقرأ « تاراس » .. ما اسمه الثاني ؟ إقرأ الكتاب . انها تقول انه
كتاب جيد . جيد بالنسبة الى من ؟ قد يكون جيداً بالنسبة اليها وريئاً بالنسبة
إلي ، هل شاهدتها كيف قصت شعرها ؟ لماذا لم تقص أذنيها ؟

وعندما وصلنا الى المقطع الذي يتحدث فيه تاراس خصمه اوستاب للبارزة ،
ضحك الطاهي بصوت جهوري :
— ما قولك في ذلك ؟ احدهما يملك دماغاً والآخر يملك قوة ، يا المسخرة التي
يكتبون . أولئك الاوغاد !

وأرهف سمعه بانتباه زائد وهو يدمدم بين الحين والحين .
— آه ، هراء ! انت غير قادر على أن تشطر الانسان من كتفه حتى بطنه بطعنة
واحدة ، هذا مستحيل . وليس بإمكانك ان ترفع انساناً على رأس حربة لأنها
ستكسر . افلم أكن جندياً ؟
وقد اهاجته خيانة اندريه :
— ذلك الوحش ، ماذا ؟ من اجل إمراة ! تقو أ .

وعندما قتل تاراس ولده ، انزل الطاهي قدميه من على السرير ، وتشبث به ،
وشرع يبيكي . واخذت الدموع تنال على خديه وتتساقط على الارض . زفر
وهو يدمدم :

— يا إلهي ، يا إلهي !
وعلى حين غرة ، صرخ في وجهي :
— اكمل قراءتك ، يا نسل الشيطان !
وازداد نحيبه مرارة وشدة عندما هتف أو ستاب بابيه قبل أن يموت :
« ابتاه ، هل تسمعي ؟ » .
وهتف سموري بصوت خافت :

— لقد انتهى كل شيء . كل شيء . هذه هي النهاية ؟ آه ، يا للنهاية اللعينة
لقد كانوا في الواقع رجالاً في تلك الأيام . وتاراس هذا ، بالفعل رجل حقيقي ،
وحق الله !
واخذ الكتاب من يدي ، وشرع يتفحصه بامعان ، وهو يغسل بدموعه
الفلاف :

— الكتاب العظيم هو عيد حقيقي !
وبعد ذلك قرأنا كتاب « ايفان هو » فنال ريتشارد بلانتاجنيه اعجابه ، قال
وقد اهاجته عاطفته :

— هذا ملك حقيقي .
اما انا فقد وجدت القصة تبعث على الملل .
كانت ادواقنا لا تلتقي ابداً ، فقد أعجبتني قصة « توماس جون » وهي ترجمة
قديمة لكتاب « تاريخ توم جون » اللقيط ، .
دمدم سموري !
— سخافة ! ماذا يعني في توماس هذا ؟ وماذا اريد منه ؟ لا شك ان هناك
كتباً أخرى .

و ذات يوم اخبرته أنه يوجد كتب أخرى ، كتب ممنوعة ، كتب سرية لا
يقدر على قراءتها إلا في الكهوف بعد حلول الظلام .

فجحظت عيناه ، واهتز شارباه ، وقال :

— ما هذا بماذا تخرف ؟

— انا لا اخرف . لقد سألتني الكاهن عنها ذات مرة اثناء الاعتراف . وقد رأيت من قبل أناساً يطالعونها ويلتجحون .
فجددني الطامي بنظرة كئيبة .

سأل :

— من الذي كان يبكي ؟

— امرأة كانت ترهف السمع الى القراءة . وهناك امرأة اخرى لاذت بالهروب
مذعورة .

فضيق من فرجة عينيه وزعق بي :

— استيقظ فانت تحلم

واردف بعد مدة من السكوت :

— من غير شك ، ينبغي ان يكون هناك شيء سري . في مكان ما ، لا شك
من وجوده .. بيد انني عجوز هرم .. ولست من ذلك النوع .. ومع ذلك
فعندما تتأمل في الأمر ..

كان طيلة ساعات يتكلم بهذه الطريقة من البلاغة ..

واجتاحني رغبة عارمة من غير ان اشعر بالقراءة . فكنت استسلم لها
مغتبطاً . ان ما تفلسفه الكتب شيء يبعث الراحة في النفس على خلاف الحياة
اليومية . وهذا ما كان يحول الحياة اتعس منها قبلاً ..

كذلك ازدادت رغبة سموري في الاستماع إلى الكتب ، فكانت يوقفني عن
العمل ، قائلاً ..

— بشكوف ! تعال واقرأ .

– يوجد كدسة من الصحنون ينبغي عليّ ان أغسلها
– سيفسّلها مكسيم .
ويمسك بفسال الصحنون الذي يفوقني سنًا ويدفعه الى غسل الصحنون ..
فكان ينتقم هذا بتكسير الاكواب .
وذات مرة حذرني رئيس المركب بلهجة هادئة .
– سأطردك من المركب .
وتعمد مكسيم ذات يوم في ترك الاكواب في المياه القذرة فعندما افرغت
الحوض في البحر من فوق المركب سقطت في الماء .
قال سموري لرئيس الخدم :
– انها غلطتي ، سجل ثمنها في حسابي .
واخذ الخدم يحدجونني بنظرة شذرة . كانوا يقولون :
– حسنًا ، يا آفة الكتب ، ماذا تأتي من العمل لتستحق أجرك ؟
فكانوا يتعمدون في افساد الصحنون ويكدسون العمل عليّ . واحسست ان
النهاية ستكون وبالأعلى ، ولم أخطأ في ذلك .
ففي ذات مساء صعدت إلى المركب امرأة متوردة الوجه بصحبته فتاة قد
التفت بمنديل اصفر اللون وكانتا شبه ثملتين . واخذت المرأة تبتسم للجميع
وهي تنحني ، تغنم في كلماتها كالشمّاس في الكنيسة :
– المذرة يا اصدقائي فقد تناولت شيئًا قليلًا ، واقتادوني الى المحكمة حيث
أطلقوا سراحي بعد ذلك . فاحتسيت قليلًا من الخمر في ساعة فرحي .
وكانت ضحكة الفتاة تنعالي ، وهي تلقي بنظرات مبهمة على الجميع ، وتدفع
المرأة من أضلاعها :

- الى الامام ، أينها الحقاء ، إلى الامام !

هبطت إلى عنبر الدرجة الثانية واصبحت بمحاذاة غرفة ياكوف ايفانوفيتش وتوارت المرأة بسرعة ، وجلس سيرجي إلى جانب الفتاة وقد اندلقت شفته السفلى في تكشيرة فاجرة .

وبعد ان انتهيت من العمل كنت اتسلق الطاولة حيث انا ، اتى سيرجي وامسكني من يدي وقال :

- تعال ، سوف تزوجك .

كان غملا ، فجريت التملص من بين يديه ، بيد انه لطمني على وجهي :
- تعال !

وامرع مكسيم وهو ثمل كذلك ، وانطلق بي الاثنان الى حجرتهما . بيد ان سموري كان واقفاً بجانب الباب ، وقد انتصب ياكوف ايفا نوفييتش على العتبة امام الفتاة ، وهي تنهال على ظهره ضرباً بيديها :

كانت ترعق في صوت ثمل :

- دعني اذهب !

وانتشلي سموري من بين يدي سيرجي ومكسيم ، وامسكها من شعرها ضارباً الواحد بالآخر ..

صرخ بياكوف ، وهو يفلق الباب في وجهه .

ايها المتوحشون !

ثم دفعني عنه ، وهو يزعق :

- امض من هنا !

عدوت إلى مؤخرة المركب . كانت الغمامة تعبق في السماء ، والمياه داكنة ..

كانت الماء خلف المركب تتناثر شهباء في خطين ينتهيان عند الشاطئ الخفي ..
وبعض المصابيح الحمراء لا تستطع بنورها شيئاً كانت تظهر نارة الى اليمين ونارة
الى اليسار .. ثم تتوارى بسرعة فيبدو الليل اشد حلكة منه قبلاً ، واكثر
قماسة .

واقبل الطاهي وجلس الى جانبي ، واطلق زفرة عميقة وهو يشعل
سيجارته :

- هل قادوك الى تلك الفحلة ؟ الخنزيرة ! سمعتها حين هجما عليك .

- هل انقذتها من وحشيتها ؟

- من ؟ هي ؟

ثم انهمر في سيل من السباب لتلك الفتاة . وادف كلامه بلهجة كئيبة :

- سوف تضيق بين هذه الخنازير . فانا ارثي لك ايها الفأر الصغير ، انني
ارثي للجميع . ففي بعض الاحيان لا اعرف ما أفعل . هل اجثو على ركبتني
واكلهم قانلاً : « ماذا تفعلون ايها الوحوش ؟ هل انتم عريان ام ماذا ؟ ايها
الجمال ! » .

وتعالى من المركب صفير حاد ، ولطمت المرساة وجه الماء ، وشرع فالوس
يتلألأ في قلب الظلمة مشيراً الى مكان رصيف الميناء ، بينما انوار اخرى باهتة
تنبثق من قلب الظلمة .

دمدم الطاهي :

- غابة سكري ... لقد كان ، في الماضي ، هناك موظف يدعى سكيروف ..
سأنزل الى اليابسة .

كانت بعض النسوة من مقاطعة كاما متينيات البنية يحملن الحطب ، ويسرن

بخطوات وثيدة وهن يرزحن تحت عبء احمالهن ..
وبينما كن يعضين باحمالهن ، كان الملاحون يشبثون بهن من سيقانهن
وصدورهن ويطونهن فيصرخن ويبصقن في وجوههم ... ولقد شاهدت
الكثير في كل رحلة .. ان كل شيء يقع في كل مرة نرسي فيها لنتمون
بالحطب .

ونخيلت نفسي رجلاً هرباً قد عاش حياته على ظهر المركب فاني أعلم ما
سيقع في الغد أو الاسبوع المقبل أو الخريف القادم .

واشتاقت نفسي البكاء ، واخذت الدموع تغلي في مقلي ، وقد احسست
بالألم ، لكنني كنت أخجل من البكاء ، فانطلقت لكي اساعد الملاح بورين في
تنظيف سطح المركب .

كان بورين شاحب الوجه ، مبهم الملامح ، يبقى منعزلاً في وحدته يجلس متأملاً
بعينيه الصغيرتين . وذات مرة قال لي :

— في الواقع ان لقي ليس بورين ، بل أورين ، لان والدتي كانت فاسقة ولي
اخت كذلك . وهذا مصيرهما . ان المصير لوحة معلقة في عنقك فاذا
اردت ان تنهض فقد ينعك من ذلك .

وهذه المرة خاطبني ، وهو ينظف سطح المركب ، بلهجة هادئة :

— هل شاهدت كيف يرتمون على الفتيات ؟ تأمل ! باستطاعتك ان تضرم
النار في غصن ندي اذا استمررت في محاولتك . وانا لا أحب ذلك يا أخي ..

ومرت بنا امرأة القبطان رافعة ثوبها كي تتقي المياه المتجمعة ، انها دائماً اول
من ينهض في الصباح . رشيقة القامة متينة البنية ، ذات وجه صبور ..
واحسست برغبة في المدو خلفها لاقول لها من كل قلبي :

- احكي لي شيئاً ما ، أرجوك ..!
وتحرك المركب بهدوء ، مبتعداً عن رصيف الميناء .
رسم بودين إشارة الصليب وقال :
- ها نحن راحلون .

في سارا بول غادر مكسيم المركب . ومضى في هدوء من غير ان يودع أحداً . وتبعته المرأة الجميلة التي تعلو الابتسامة ثغرها ابداً ، والفتاة البائسة ، الجاحظة العينين . بيد ان سيرجي قبع مدة طويلة راکعاً على ركبتيه امام حجرة القبطان يلثم مصراعي الباب ويلامسه بحبهته وهو ينتحب .

- ساعني ، لم تكن خطيئتي . انها هفوة مسكيم وحده .

كان البحارة وبعض المسافرين يصرخون انه كاذب . بيد انهم كانوا يشجعونه قائلين :

- هيا ، هيا ، إبقى ، سوف يسامحك بالطبع .

وصفح عنه القبطان . بعد ان رفسه بلطمة من قدمه جعلته يتدحرج على المركب . وبعد فترة وجيزة ، كان سيرجي يسرع الخطى على ظهر المركب حاملاً اطباق الطعام ، وهو يلقي على الجميع نظرة مقطبة ككلب اخذ نصيبه من الجلد .

وعوضوا عن مكسيم ببهار سابق من فياتكا ، ذو رأس صغير وعينين داكنتين ، وبمث به مساعد الطاهي توأ كي يذبح بعض الدجاج . فذبح اثنتين بينما انطلقت الاخريات من فوق سطح المركب . وعبثاً حاول الامساك بها فطار

منها ثلاثة من فوق حافة المركب . فاغتم الجندي كثيراً وجلس منتحباً على رزمة من الحطب أمام المطبخ .

سأله سموري بدهشة :

— ماذا جرى لك أيها الأبله ؟ من رأى جندياً ينتحب ؟

فأجابه الجندي برقة بالغة :

— انني لم أكن في صفوف المحاربين .

وفي ذلك كانت نهايته . فقد بقي المسافرون ، طوال نصف ساعة ، يسخرون ويضحكون منه .

كانوا يأتون جماعات ، ويتأملون الجندي ويسألون « هو؟ » ثم تجتاحهم موجة عارمة من الضحك ..

بيد ان الجندي لم ينتبه في بادئ الأمر الى ما يفعلون فلم يكن يعير انتباهه إلى ضحكاتهم .. وسرعان ما بدأت عيناه تقدحان شرراً فيأخذ يندندن بلهجة أهالي فياتكا قائلاً :

— لماذا تخلقون في ؟ إذهبوا إلى الشيطان . وابقوا عنده إلى الأبد !

لكن لهجته تلك كانت تزيد من قهقهة القوم فيأخذون في شد قميصه ومثزره ويعملون على مضايقته من غير رحمة أو شفقة حتى جاء وقت الغداء . وبعد انتهاء الغداء علق أحدهم قشرة ليمونة في طرف ملعقة خشبية ثم ربطها بحبل مثزره . فأخذت الملعقة تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار مع خطوات الجندي ففرق الجميع في الضحك . ويضطرب هو كفأرة في قفص من غير ان يظن السبب . كان سموري يراقبه من غير أن يقول كلمة واحدة ، وقد عطف عليه ولانت ملامحه .

وشمرت بالشفقة على ذلك الجندي .

سألت سموري :

— هل استطيع أن أخبره بشأن الملعقة ؟
فهرز رأسه علامة الإيجاب

وما كدت انتهي من إخباره عن السبب الذي يثير ضحك الجميع حتى اختطف الملعقة وضربها بالأرض وداس عليها ، ثم أمسكني من شعري بكلتا يديه . وشرعنا نلتاجر ، مثيرين السرور في أنفاس المشاهدين الذين سرعان ما التفوا حولنا .

وشق سموري طريقه بين هذه الجمهرة وأبعدنا عن بعضنا ، وشد على أذني وقد أمسك الجندي من أذنه . وتعالى ضحك الجمهور وهم يرون ذلك الشاب الفارغ القامة يحاول الإفلات من الطاهي ...

.. وافلت سموري الجندي والتفت نحو القوم كثور هائج ، ويسداه وراء ظهره وقد كشر عن أسنانه وأخذ شارباه يتراقصان .
— كل واحد إلى مكانه ، اذهبوا أيها المتوحشون !
والقى الجندي بنفسه مرة ثانية عليّ ، لكن سموري انتشله بيد واحدة ورفعته إلى المفصلة ووضع رأسه تحت الماء وضغط على جسمه كأنه دمية في يده .

واتى بعض الملاحين وهم يهرولون ، والتفت من جديد حولهم جمهرة مسن الناس . وظهر وجه رئيس الحدم فوق الجميع هادئاً رقيقاً كمادته .
وقبع الجندي على رزمة من الحطب وخلع حذائيه بيسدين مضطربتين ..
كانت المياه تتساقط من شعره المشعث ، الشيء الذي أثار موجة من الضحك عالية ..

زعق الجندي بصوت حاد :

— انتظروا قليلاً .. سوف أقضي على ذلك الصبي !
قادني سموري أمامه بينما أخذ البحارة يفرقون تلك الحشود .
وأقبل سموري ، بعد أن انصرف الناس ، إلى الجندي قائلاً :

— ماذا ستفعل بك ؟
فلم يجر الجندي جواباً . كان يحدجني بنظرة قاسية وهو يرتعش بشكل غريب .

— عشرة أيام سجن ، يا ثرثار .
فأجاب الجندي :
— هراء ! لساننا هنا في الجيش !
ولاحظت أن ذلك أفقد صواب الظاهي ، فتكورت وجنتاه وبصق . ثم انطلق راجعاً وهو يصطحبني معه . كانت فرائصي ترتعد من الخوف فأخذت استرق النظر إلى ذلك الجندي بيد أن سموري دمدم قائلاً :

— فقي مشاغب ؟ هيا بنا الآن .
ومشى سيرجي في أثرنا ، وقال بصوت هامس :
— انه يريد أن يقطع عنقه بالسكين !
فصرخ سموري :
— ماذا ؟

واقفل راجعاً وهو يعدو

كان الجندي يمسك بسكين عريضة الشفرة تستعمل لقطع رؤوس الدجاج وفصم أخشاب الموقد . وقد تجمع جمع من الناس أمام الحجرة يتأملون ذلك الرجل الصعلوك بشعره المبتل . كان أنفه الأفطس متورداً وقد اضطربت شفتاه وهو يفقر فيه ويدمدم من غير توقف :

— شياطين شيا .. ط .. ين !
وعندما أخذ يصلح من وضع قميصه وأعادته تحت السروال قال رجل كان يقف بجانبني ، وهو ييمث بزفرة عميقة :
— إذا كان سينتحر فلماذا يصلح من وضع قميصه ؟

فملا ضحك الناس . كان من المؤكد أن أحداً منهم لا يصدق قدرته على الانتحار . كذلك لم أصدق أنا ، بيد أن سموري بعد أن حدجه بنظرة عجيلى ، أخذ الجمع يفرق ببطنه ، وهو يزعم :

– ابتعدوا من هنا ، أيها البلهاء !
كان شغوفاً باستعمال هذه الكلمة كصيفة للجمع ، فهو يدنو من حشد ما ويخاطبهم جميعهم بقوله :
– ابتعدوا ، أيها البلهاء .
كل ذلك كان مدعاة للتسلية ، والواقع أن ذلك اليوم كان الناس جميعاً قد أصبحوا رجلاً واحداً أبلهاً .

وبعد أن فرق ذلك الحشد اقترب من الجندي وأمسك به من يده :

– اعطني هذه السكين .
فأجابه الجندي بينما كان يعطيه السكين :
– لا جدوى من ذلك الآن .
ناولني الطاهي السكين ثم دفع بالجندي إلى داخل الغرفة .
– تمدد وخذ قسطاً من الراحة . ماذا جرى لك ؟

وقبع الجندي من غير أن ينبس ببنت شفة .
– سوف يأتيك بشيء من الطعام مع قليل من الفودكا . هل تحبسي الفودكا ؟

– قليلاً .
– إياك أن تلمسه . فليس هو من مزأ بك . هل تسمع ؟ أنا أقول لك بأنه ليس هو من مزأ بك .

فاستوضحه الجندي بلهجة كثيفة :
– لماذا يؤلمونني بهذه الصورة ؟

فركن سموري إلى الصمت برهة ثم قال :

- هل تعتقد إنني أعلم لماذا ؟
ثم عدنا أدراجنا سوية إلى المطبخ .
ولحن في الطريق . همس سموري قائلاً :
- لقد وجدوه غودجاً فقيراً يائساً من غير شك . هل شاهدت ذلك ! قد
يحملوك على الجنون . انهم قادرون على ذلك .. !
وعندما أحضرت قليلاً من الخبز واللحم والفودكا إلى ذلك الجندي . كان
يجلس منتصباً مثل النساء هازأً جسده إلى الورا والامام .. وضعت الأكل على
الطاولة ثم قلت :

- "كل" .

- أوصد الباب .

- حتى تسود الظلمة .

- أوصد الباب وإلا عادوا إليّ .

ومضيت .. كنت أكره ذلك الجندي . فهو لم يبعث في قلبي أية شفقة .
وهذا ما كان يزعجني . لأن جدتي كانت تخاطبني دائماً :

- ينبغي أن تشفق على الناس ... أولئك التعساء الذين يكدون طوال

حياتهم ...

وعندما بلغت المطبخ أقبل عليّ الطامي مستوضحاً :

- هل ناولته الأكل ؟ حسناً . كيف حاله الآن ؟

- إنه ينتحب .

- يا للشيطان ويدعي أنه جندي ؟

- انني لا أشعر بشيء من العطف تجاهه .

- ماذا تقول ؟

- وينبغي على المرء أن يعطف على الجميع .

فأمسكني سموري من يدي وضمني اليه وهو يقول بلهجة رقيقة :
- انت لا تقدر أن تجبر نفسك على الشعور بالعطف ، والكذب نتيجة سيئة .

هل تسمعي ؟

وأقلت يدي - أردف مقطباً :

- هذا مكان ليس لك . خذ لفافة .

.. في الليالي الحارة كان الجو لا يحتمل تحت السقف المبدئي الذي يمتص الحرارة طوال النهار . فكان البحارة يجتمعون في مكان ما ، وينامون حيث يحلو لهم . وعندما يتوقف المركب كان البحارة يوقظونهم بالضرب والرفس :

- هيا ، نظفوا المكان ! إرجعوا الى أماكنكم !

فينهضون ، ثم يتفرقون هنا وهناك والنعماس يعمل في أعينهم .

كان ما يميز البحارة عن سائر الركاب ثيابهم وحدها . ومع ذلك فقد كانوا يصعدون اليهم الاوامر كأنهم رجال شرطة .

كان الشيء الذي يلفت الأنظار أكثر من أي شيء آخر هو استسلام الركاب المفجع .. فقد كنت أشعر ان هؤلاء الناس لا يعلمون الى أين يسرون ، وكانت وجوههم تعبر انهم غير مباليين بالجهة التي سيقودهم اليها المركب ..

و ذات ليلة ، بعد أن انتصف الليل ، تحطمت إحدى الآلات بانفجار شديد مدوي . وسرعان ما غص سطح المركب بسحابة كثيفة من الدخان الأبيض اندفع من غرفة الآلات ...

كنت أرقد بالقرب من غرفة الآلات على المائدة التي أغسل فوقها الصحون وعندما استيقظت على دوي الانفجار كان كل شيء قد عاد الى السكون والهدوء . وأخذت الآلات تبعث بصوت يشبه الوشوشات وأصوات المطرقة يقرقع بنغمة مسرعة . ولم تمض بضعة ثوان حتى كان الركاب على سطح المركب

يزعقون وينبسون بصورة مرعبة فعلاً . ويصطدمون ببعضهم بعضاً ويتعثرون بالحقائب والصرر ، وهم يستغفرون الله والقديس نيقولا ، كان المشهد مرعباً ، بيد انه يبعث على الاهتمام . وأخذت اعدو خلفهم كي القي نظرة وأدرك ما جرى .

لقد كانت تلك الحادثة في ليلة تنذر بالخطر التجربة الأولى في حياتي . لذلك أخذت اشعر أن ذلك كله لم يكن غير خطيئة . وبقي الناس ينطلقون من هنا وهناك في شبه جنون . وأسرع مسافروا الدرجات الأولى فأطأوا برؤوسهم على السطح فقفز أحدهم وتبعه الباقيون . وزعق سيد ضخمة الجثة وهو لا يرتدي غير سروال واحد ضارباً صدره بقبضة يده :

— هل هذا مركب ؟ أيها الأبالة !
وقوائب البحار هنا وهناك ، يحرون الناس من ياقاتهم ويلكونهم على رؤوسهم ويدفعونهم جانباً . وانطلق سموري بثناقل وقد تدثر بمعطف ثقيل .
أخذ يزعق في وجه الجميع بصوت أشبه بالرعد :
— ألا تنجسون قليلاً . هل فقدتم عقلكم ؟ إن المركب شديد فهو لا يفرق .
هنالك صخرة في مجرى النهر . .
وشرع يهوي بقبضته على رؤوس الركاب فينطرحون على الأرض كالأكداس .

وقبل ان تخفت الضجة انطلقت سيدة ترتدي قبعة على رأسها ممسكة بلمعة في يدها تمزها في وجه سموري ، وتصرخ :
— كيف تجرؤ على ذلك ؟
وأمسك بها رجل ، ودفعها إلى الوراء .
قال في تبرم ، وهو يقرص شاربيه :
— اتركه وشأنه ، هذا المتصلب الرأس .

وهز "سموري بكتفيه . وقد اعتراه شيء من الاضطراب والتفت نحو ي قائلاً :
- هل أعجبك ذلك ؟ ماذا تريد مني هذه المرأة ؟ انني لم أشاهد وجهها من
قبل أبداً .

لقد شاهدت مثل هذه الحادثة المربعة مرتين خلال الحريف وفي تلك المراتين لم
يكن الخطر السبب الحقيقي ، بل الخوف المطلق من ذلك الخطر . وفي المرة
الثالثة القى المسافرون القبض على لصين كان أحدهما يتنكر في ثياب راهب .
واخذوهما بعيداً عن أعين البحارة وانهالوا عليها ضرباً ولكاً طوال
ساعة كاملة ، وعندما أنقذهما البحارة في النهاية . هرع الجمهور واطبق عليهم زاعقاً :
- لصوص يحمون لصوصاً ، نحن نعرف طينتك !

- اتم كذلك لصوص ، لأجل ذلك تخافون ان يفتلوا منكم !
لقد ضرب اللصان ضرباً مبرحاً ، حتى انها كنا عاجزين عن الوقوف على
اقدامها حين اخذتها الشرطة في المحلة التالية .
كانت أمثال هذه الحوادث تقع غالباً ، وبطريقة خطيرة تبعث على التساؤل
ما إذا كان الناس اشراراً أم طيبين بالفطرة ..

وإذا ما سألت الطاهي هذا السؤال . فانه سيحجب وجهه بدخان لفاقته
ويحجب بلهجة ملؤها الضيق :

- وماذا يعنيك في ذلك ؟ الناس هم الناس . واحد ذكي وآخر أبله . ينبغي
أن تطالع الكتب وتقرأ وتكف عن تعذيب نفسك . وسوف تجد الأجوبة في
جوف الكتب . إذا كانت هذه الكتب من النوع الجيد .
لم يكن سموري يحب الكتب الديلية أو سير القديسين . كان يقول :
- انها تعني الكهنة ، أو أبناء الكهنة .

وذات مرة عازمت أن أقوم بخدمة طيبة نحوه . فقررت أن أقدم له كتاباً .
فاشاريت في قازان كتاب « كيف أنقذ جندي حياة بطرس الاكبر » . وكان
الطاهي في ذلك اليوم غلاماً وقد عازمت أن أقرأ له تلك «الاسطورة» قبل ان

أقدمها له . وقد أعجبتني بشكل غريب ، فهي في غاية الوضوح والبساطة ..
وكنت متأكداً من ان هذا الكتاب يبعث في نفسه الغبطة العميقة .
وما كدت ان اتأوله إياه حتى اخذه بيده ومن غير أن يقول كلمة واحدة قد
قذف به في النهر .

قال في غلاظة :

- هذا كتابك ، أيها الأبله ! انني هنا أعلمك طوال الوقت وانت مثل كلب
الصيد لم تزل تلتهم المصافير .

ولطم الأرض بقدمه ، وزعق بي :

- اي نوع من الاسماء تسمي هذا الكتاب ؟ لقد قرأت هذه السخافات
جميعها ! هل ما كتب فيه صحيح ؟ تعال ، قل لي !

- لست ادري .

- حسناً . انا اعلم . لو انهم اقتطعوا رأس اول فتى ، لكان قد خرج على
الدرج وكان الآخرون ما جرؤوا على الذهاب الى مخزن العشب ليس الجنود بحمقى
كان باستطاعتهم ان يضرعوا النيران في العشب اليابس ويضعون حداً لذلك .
هل تسمع ؟

- اجل .

- اذن ، هذا ما يقع . انني اعلم كل شيء عن ذلك القيصر بطرس ، ان شيئاً
من هذا لم يقع له مطلقاً ، اذهب من هنا !

وتأكدت ان الطاهي كان مصيباً . بيد انني ما زلت معجباً بالكتاب
وابتعت «الاسطورة» وطالعتها مرة اخرى فدهشت لذلك اذ وجدت ان الكتاب
لا يساوي شيئاً في الواقع . فخبلت من ذلك ، واخذت ارنو الى الطاهي باحترام
كبير واخلاه متزايد ، بينما كان هو لا ينفك يقول :

- ماذا ! ينبغي ان تدرس ، هذا المكان لا يناسبك !

وقد احسست فعلاً ان هذا المكان لا يناسبني ، وكان سيرجي يعاملني

بكراهية . وقد ضبطه مرات عدة يسرق أدوات الشاي من على طاولتي ويبيعها إلى المسافرين ...

وقد نبهني سموري أكثر من مرة .

— حذار من أن تترك الفرصة للخدم كي يسرقوا السكاكين والشوك من على مائدتك .

كانت أشياء عدة تقع على سطح المركب تنذرني بالسوء والشر . لذلك أخذت أفكر في ترك المركب في المحطة المقبلة والحرب إلى الغابات . بيد أن سموري كان يحول دون ذلك ، وهذا ما جعله يكبر من أهميته عندي . لكن حياتي على ظهر المركب انتهت بخاتمة نخبلة مجترأة . ففي ذات مساء ، وكنا نبحر من قازان إلى نيجني نوفجورود ، بعث الناظر في طلبي . وعندما مثلت أمامه أوصد الباب وتوجه إلى سموري ، الذي كان يقبع على كرسي مكتئب الوجه وخاطبه قائلاً :
— هذا هو .

ثم سألتني بحدة :

— هل كنت تعطي الملاحق والسكاكين وحوائج أخرى إلى سيرجي ؟

— لقد كان يأخذها بنفسه عندما أكون غائباً .

فقال الناظر بلمحة هادئة :

— إنك لم تشاهده يقوم بذلك ، بيد أنك كنت تعلم أنه يفعل ذلك .

لطم سموري ركبته بقبضة يده ، ثم حك مكانها وقال :

— مهلاً ، فليس من شيء يدعو إلى العجلة

ثم طرق مفكراً

تأملت الناظر من خلف نظارتيه ، واخذ هو يتحدث بي ..

واستوضح سموري بعد فترة من السكون :

— هل نقدك سيرجي فلوساً ؟

— كلا

— مطلقاً ؟

مطلقاً .

فالتفت سموري إلى الناظر وقال :

— انه لا يكذب .

فأجابه هذا الأخير بلهجة هادئة :

— ذلك لا يغير من الأمر شيئاً .

وعندما وصلت إلى نجني نوفجورود انهسى الناظر حساباته معي . فنقده في شيئاً يشبه ثمانية روبلات ، وكان هذا المبلغ أول مبلغ كبير أربحه في حياتي .

التفت بي سموري وهو يفادرنني

— يجب أن تبقي عينيك مفتوحتين في المستقبل . هل تسمع ؟ ينبغي ألا تصبح صياداً للذئاب !

وملأ يدي بكية ضخمة من التبغ .

— خذ هذا ، انه عمل بديع قد أتاه ابني من أجلي في المعمودية . حسناً !
الوداع . يجب أن تقرأ الكتب ، وهو خير عمل تأتبه .

وأمسكني من تحت ابطي وطوح بي في الفضاء ثم قبلني ورفعني على رصيف المرفأ . واحسست بشيء من الأسف على فقدته . ولم أستطع أن أحبس ذموعي إلا بصعوبة متناهية . وانا اتأمل ذلك الرجل الضخم الجثة ، الوحيد للذي ينصح طريقه بين الجمالين قافلاً إلى المركب ...

ووقفت لحظة وانا اتأمل هؤلاء الناس الذين لفظتهم الحياة وشاءت الصدف ان التقي بهم في السنوات الأخيرة !

انتهى

